



د. أحمد
عكاشة

قراءة

للعقل المصري

- قراءة نفسية للشخصية المصرية ● بناء الإنسان المصري
- علاقة الزعيم بكرسي السلطة ● رؤية نفسية لسياسة النظام السابق
- التكوين النفسي للإخوان ● هل التطرف ظاهرة مرضية؟
- عن نفسية السجين والسجان ● مواجهة الانفلات الأخلاقي
- هل أغلب المبدعين مرضى نفسيون؟



الدكتور أحمد عكاشه

قراءة للعقل المصري

مقالات وحوارات

شارك في إعداد هذا الكتاب
الدكتور خالد منتصر





alkarmabooks.com

facebook.com/alkarmabooks

twitter.com/alkarmabooks

instagram.com/alkarmabooks

الطبعة الأولى ٢٠٢٢

حقوق النشر © دار الكرمة ٢٠٢٢

© أحمد عكاشة ٢٠٢٢

الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة

تتسلك الكرمة بحقوق الملكية الفكرية، فاحترام الملكية الفكرية بدعم الإبداع ويعزز الإنتاج الثقافي.
نشكركم لنشر انكم نسخة أصلية من هذا الكتاب، ولامتناعكم عن استخدام أو إعادة طباعة أي جزء منه بأي طريقة
من دون الحصول على موافقة خطية من الناشر، لأنكم بذلك تصمون المؤلفين وتسمحون للكرمة بالاستمرار
في نشر الكتب التي نعتجبكم.
أبيات نزار قباني © دار نوفل

قراءة للعقل المصري: مقالات وحوارات / أحمد عكاشة - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢٢.

٢٤٨ ص ٢١١ سم.

تتملك: 9789776743939

١- الصحة النفسية - مقالات - حوارات

أ- عكاشة، أحمد

ب- منتصر، خالد (إعداد)

ج- العنوان

رقم الإبداع بدار الكتب المصرية: ١١٠٥٨ / ٢٠٢٢

المحتويات

- [الأستاذ - تقديم بقلم الدكتور خالد منتصر](#)
- [مقالات](#)
- [الثقافة والفن](#)
- [والطب النفسي: هل التطرف ظاهرة مرضية؟](#)
- [هل الذكاء](#)
- [المصري في خطر؟](#)
- [أحمد زويل والذكاء العاطفي](#)
- [التكوين النفسي للإخوان](#)
- [توصيات لمواجهة](#)
- [التطرف والإرهاب](#)
- [حديقة الحيوان](#)
- [البشرية: عن نفسية السجين والسجان](#)
- [بناء الإنسان المصري](#)
- [كيف تذاكر وتذكر؟](#)
- [أمراض الثانوية](#)
- [العامّة](#)
- [النسيان في الشباب: هل هو خرف الشباب؟](#)
- [كلمات عن الحب](#)
- [اللتويبر الثقافي: عن الشقيق والأستاذ والمعلم](#)
- [لدكتور ثروت عكاشه](#)
- [المساندة الاجتماعية والتمركز حول الآخر والصحة النفسية](#)
- [الحملة الوطنية لإزالة وصمة المرض النفسي: المعاناة النفسية مثل](#)
- [أي مرض له علاج](#)

- حوارات
- المرأة ليست أكثر حنًا وخيال الرجل أكبر
- الزعيم يتوحد والكرسي مع طول بقائه في السلطة
- قراءة نفسية للشخصية المصرية
- كنت أتمنى أن أكون خبيرًا في الطهي
- رؤية نفسية لسياسة النظام السابق
- سأنتخب الرئيس صاحب الرؤية المستقبلية
- مجتمعنا أكثر
- اهتمامًا بإرضاء نصفه الأسفل دون الأعلى
- الانفلات الأخلاقي كارثة يجب مواجهتها
- الأخلاق طريق النهضة الوحيد قبل القوة العسكرية أو السياسية
- أنا محاولة لإسعاد من عانوا محنة المرض النفسي
- كورونا مش عاروا الإعلام ضخم الأزمة
- أغلب المبدعين مرضى نفسيون

الأستاذ

صار من المتعارف عليه في مؤتمرات الطب النفسي أنهم عندما يطلقون جملة «الأستاذ حضر» أو «الأستاذ خرج» أو «الأستاذ سيلقي محاضرة»، فإنهم يقصدون الدكتور أحمد عكاشه، حتى لو كان المؤتمر مليئاً بالأساتذة الأجانب، فالكل صار يدين له بالأستاذية، وأنا واحد من هؤلاء. على الرغم من أن تخصصي مختلف، وعلى الرغم من أنني تخرجت في طب القاهرة وليس عين شمس التي تتشرف بانتمائه إليها كأستاذ، وفي ظل مشاغل الأستاذ المتعددة، ولقاءاتنا القليلة التي تأتي مصادفة، فإنني أعتبر أن بصمته على تكويني المعرفي والثقافي والنفسي لا يمكن أن تُمحى، فهو أسطى بكل ما تحمله الكلمة من معنى، يستطيع كأسطوات الأرايبسك أن يعلمك ويبهرك ويمنحك الأسرار دون أن ينصب من نفسه كاهناً، كاريزما لا تقاوم، شياكة وأناقة في الحديث والمظهر وطريقة التدريس وأسلوب الكتابة ومنهج النقاش، لا تستطيع إلا أن تنجذب إلى مغناطيسه الذي يتغلب على كل قوى الجاذبية، يكفي أن لديه مفاتيح النفس، وبأسورد السلوك الإنساني، وشفرة الوجدان، وأسرار كيمياء العقل. فلا تندهش إذا ضبطت نفسك وأنت تسحب كل أشواك القنفذ الدفاعية في حضرته، وتجلس أليفاً هادئاً تستمع وتنصت وتحلم بأن تنام على طاولة التشريح النفسي لأسطى الطب النفسي أحمد عكاشه.

وهو قامة عملاقة وشقيق قامة عملاقة أيضاً، لا بد أن جينات ثروت عكاشه قد تسربت إلى أخيه أحمد، فعندما تجلس إلى أحمد عكاشه فلتستعد لرحلة كونية فلسفية عبر الأثير مطعمة بالموسيقى ومطرزة بالفن التشكيلي والسينما والمسرح. لا يمكن لمن تربى في حضن ثروت عكاشه إلا أن يصبح موسوعياً، صاحب رؤية متسامحة مع الآخر، غير متعالية حتى على المريض، إنه يتعلم من مريضه، ويؤمن بأن أهم مرجع طبي في العالم هو المريض.

عندما قرأت خبر حصوله على جائزة النيل اندهشت. معقول حتى هذه اللحظة لم يحصل أحمد عكاشه على الجائزة! انقشعت غمامة الدهشة عندما عدت إلى رشدي وتذكرت أن التأخير والمجيء بعد فوات الأوان عادة مصرية صميمة وذميمة، ومرض مصري قديم مثله مثل مرضي التراكوما والبلهارسيا!

روشتة العلاج وخارطة الطريق

صك أحمد عكاشه مصطلحات جديدة في الطب النفسي، هوايته ترجمة الوجدان، وتفسير العقل المصري هاجسه، لم يجلس في برج عاجي يدخن الغليون ويلعن غباء الناس، بل اشتبك مع الشارع والبشر، وكتب ونشر وانتقد

وهجوم، واقتحم كثيرًا حقول ألغام المسؤولين والسياسة وشخصهم اضطراب هوية، دخل عش الدبابير مع السلفيين عندما برأ المنتحر المكتئب من تهمة الكفر، حارب الدجل والخرافة والسحر وعشوائية التفكير، غرد خارج السرب فأغضب البعض ممن يريدون المثقف فردًا في قطيع مطيع، كشف ثقب الضمير فانكشف سماسرة الشعارات.

يكتب الدكتور عكاشه في هذه المقالات روشة علاج، ويرسم خارطة طريق، يضع مانيفستو خطة عمل ودستور ممارسة، علينا بتحليلها واستيعابها وفهمها وتشربها وتسريبها إلى مسام العقل والروح. جمهوريتنا الجديدة تحتاج إلى تحليق خارج السرب، والبعد عن دفء قطيع الأفكار المعلبة والمحنطة، وليس أفضل من مقالات الدكتور أحمد عكاشه كجناحي تحليق بعيدًا عن غيوم العادي والبديهي والمألوف.

رؤية زرقاء اليمامة ويوميات الجبرتي

بعد قراءة تلك الحوارات التي أجرتها صحف مصرية عديدة مختلفة الأطياف السياسية والاجتماعية، يجمعها فقط فضول معرفة وقراءة ما يدور في عقل أستاذ ومايسترو ومؤسس علم الطب النفسي في مصر ومنها إلى العالم العربي كله، بعد قراءة حوارات الدكتور أحمد عكاشه، ألح على عقلي سؤال مؤرق: ماذا لو كنا قد قرأنا تلك الحوارات جيدًا خصوصًا التي أجريت في زمن مبارك ومرسي؟ لقد وضع الطبيب النفسي يده على مكنن الداء، وشخص الأعراض والخلل والاضطرابات، ولم يكتفِ بذلك، بل قدّم روشة العلاج. عندما تقرأ تلك الحوارات سيقفز إلى ذهنك هذا السؤال، وستندهش مثلي على قوة ودقة تلك البصيرة التي نحتتها سنوات الخبرة وجدة الذكاء وعمق الرؤية وحكمة الزمن. وهذا ما يفرق بين المجتمعات التي تتقدم بسرعة الضوء، والمجتمعات التي تتحرك بسرعة السلحفاة، المجتمعات التي تنافس في الماراثون وتتقدم السباق، والمجتمعات التي كل مهاراتها في تمرين الجري في المكان.

حوارات الدكتور عكاشه هي بلغة الطب أشعة رنين مغناطيسي على عقل وروح وأحشاء مصر المحروسة. حواراته تحاليل دلالات أورام مستترة تحت الجلد وفي ثنايا الأنسجة، تدق جرس الإنذار وبقوة للتدخل في الوقت المناسب. هناك في الكون كائنات أكثر حساسية للزلازل وتشعر بقرب حدوثها، ويخمن البشر أحيانًا من فرط حركتها وانزعاجها أن هناك كارثة ترحف لتنقض وتحول المدينة أنقاضًا، هذه الحوارات هي بمثابة تلك الكائنات بقرون استشعارها الطبيعية ورادارها الرباني وبوصلتها الفطرية.

الدكتور أحمد عكاشه في هذه الحوارات المهمة، هو جبرتي مصر الذي يكتب يومياتها بريشة زرقاء اليمامة، فأنت عندما تقرأ الحوارات ستشكل صورة عن تاريخ تلك الحقبة وجغرافيتها، لكن التاريخ العكاشي - إن جاز التعبير - هو تاريخ مختلف وتدوين متفرد، فهو يحمل في طياته رؤية زرقاء اليمامة التي جعلتها تمتلك النبوءة الصادقة، زرقاء اليمامة التي كانت ترى الأعداء على بُعد أميال، وتحمي قبيلتها بحسن التوقع وقدرتها على معرفة المستقبل. هذه القدرة لم يكتسبها الدكتور أحمد عكاشه لأن له قدرات السحرة والعرفانين، لكن لأنه عالم حقيقي، ومثقف موسوعي، وإنسان يفتح مسامحه لكل ما حوله من متغيرات، منحنه خبرته في الطب النفسي قدرة على سبر أغوار النفس البشرية، بكل أحرشها ودروبها الملوغمة التي لا يستطيع المغامرة فيها إلا ذوو البأس العقلي والروحي.

قراءة كف مصر ليست مجرد هواية عند الدكتور عكاشه، لكنها همٌّ واهتمام، همٌّ يسكنه واهتمام يشغله، تلمسه في كل جملة في تلك الحوارات، بل في كل حرف.

الدروس المستفادة من حوارات الدكتور أحمد عكاشه أكبر من أن يستوعبها مقال أو حتى كتاب، لذلك أطالب بأن تكون تلك الحوارات موضوع مناقشة لمائدة مستديرة من المثقفين والمتخصصين، لنستخلص منها رؤوس موضوعات لأجندة عمل للمرحلة القادمة التي نشكل فيها ملامح الجمهورية الجديدة.

خالد منتصر

مقالات

الثقافة والفن والطب النفسي

هل التطرف ظاهرة مرضية؟

الإبحار في عالم النفس البشرية: أحلامها، وهمومها، وعقدها، وأزماتها، وتحولاتها، يحتاج إلى ربان ماهر يعرف كيف ينقذها من الغرق، يجسد الداء ويصف الدواء ويشرح بعض الجوانب الصحيحة والمريضة في هذه النفس.

لا يوجد فرع في الطب له علاقة بالأدب والفن مثل الطب النفسي، ولذا كانت البداية في دراسة الطب النفسي في بريطانيا عرضًا لبعض المسرحيات وبعض الكتب المألوفة في هذا الوقت. وأتذكر أنني عندما ذهبت إلى معهد الطب النفسي في بريطانيا، وكعادة المصريين يسألون أساتذتهم ما هي الكتب المفضلة التي نستطيع قراءتها كمراجع، وجدت أستاذي البريطاني ذكر لي أسماء ثلاث قصص ومسرحيتين، وعندما ذهبت للمكتبة وجدت أنها قصص عادية جدًا وليس لها علاقة بالطب النفسي، فذهبت إليه ثائرًا وأخبرته أنني جئت للبعثة من بلاد فقيرة ووقتي لا يسمح بقراءة القصص وإني أريد دراسة مهنة الطب النفسي مباشرة، فابتسم وقال لي: «تأكد أنني لا أضيع من وقتك، وأني سوف أجعلك تستفيد، اقرأ وسوف تناقش كل عمل قرأته».

وكان أول الأعمال كتابًا لكافكا، وكان علي ما أذكر «المحاكمة»، وعندما بدأت القراءة وجدت أنها ممتعة، ولكن وجدت أن الكاتب يجنح لخيال غريب، وأحيانًا تتداخل الألفاظ والمعاني بحيث يترك للقارئ حرية فهمه كما يشاء، وهذا هو أحد الاضطرابات الموجودة في التفكير عندما يصبح التفكير مغلقًا. وعندما سألتني أستاذي عن رأيي في فكر كافكا، أجبت بأنه ليس مترابط التفكير، فقال لي: «نعم، إنه كان يعاني من اضطراب فصامي وكان عنده اضطراب في التفكير». ثم بدأ أستاذي يطلب مني قراءة هاملت وعطيل وأن أحضر المسرحيات. وكانت هذه بداية غريبة جدًا، تعلم الطب النفسي بطريقة مختلفة، إنني أقرأ في الأدب والمسرح والفن ومن خلالها أفهم الطب النفسي. وكنت أتمنى كأستاذ في الطب النفسي أن أبدأ في تعليم أولادنا بهذه الطريقة، ولكن هنا توجد صعوبات ضخمة في مجتمع غير ناضج بشكل كافٍ.

الطبيب النفسي الناجح يجب أن يكون على وعي تام ليس فقط بالفن والأدب، ولكن أيضًا بالعلاقات الإنسانية التي تؤثر حتى في السياسة العامة للدول، والذي يقوم بسياسة الدول أفراد، والأفراد لهم سمات تعليم وتكوين في الشخصية بحيث إنه من الممكن إلى حد ما فهم القرار الذي يتخذه كل زعيم سياسي. ولا شك أن البصمة الأدبية والفنية مفروض أنها تتواجد في هذا الفرع

لأن له علاقة بأشياء كثيرة. ومن الملاحظ أن معظم الأفلام والروايات، سواء التي تحصل على جوائز أم لا، تقوم على العلاقات النفسية بين الأفراد، والاضطرابات النفسية تشغل ٧٠ أو ٨٠٪ من كل ما نراه. فلا شك أن كل هذه العوامل قد تجمعت، بالإضافة لتأثير شقيقي الأكبر عليّ والذي كان عاشقًا للفنون والثقافة والأدب وخاصة عندما كتب «الأذن ترى والعين تسمع».

إن كل العقد النفسية مأخوذة من الأساطير اليونانية، سواء عقدة أوديب أو إكترا، أو حتى الاضطرابات السادية والماسوكية، وكلها لها علاقة بالأدب. ولا شك أن معرفة هذه الأشياء تضيء على العلم ثراء، ولكن أستطيع بالطبع أن أقول إن الأدب ساعدني في احتراف الطب النفسي، وما زالت هوايتي الأساسية في أوقات فراغي هي القراءة في الأدب والفن والتاريخ والقراءات الدينية.

إن هناك كتابًا عنوانه «العرب ظاهرة صوتية»، يحكي أن العرب تعودوا أن تكون مبارزاتهم كلامية، وهذا استمر منذ العصر الجاهلي حتى الآن، وبالتالي أصبح التعبير اللفظي والظاهري هو الغالب في السلوك بين العرب مما يؤدي إلى مشاكل كبيرة، فالكلمة سهلة أما التنفيذ فصعب، والصمت أصعب من الكلام. ولذا فالعرب ومناطق البحر المتوسط وأمريكا الجنوبية يتميزون ليس فقط بالكلام كأساس لحياتهم، ولكن أيضًا بالصوت العالي والتعبير الانفعالي بالوجه والأيدي.

ولا ننسى شيئًا في غاية الأهمية، أن إحدى معجزات الدين الإسلامي هي اللغة متمثلة في معجزة القرآن الكريم، ولقد تأثرنا بذلك تأثرًا شديدًا، وتعتبر الكلمة هي الأساس، ونبوغنا مقترن بالكلمة أكثر من النواحي الأخرى، وأيضًا نلاحظ أن ديننا الكريم حرم العديد من الأشياء في وقت ما؛ حرم التماثيل بسبب عبادة الأصنام، وحرم الصور، وكل هذه العوامل كان لها أثر في الحد من قيمة الفن التشكيلي والنحت والتصوير، وحتى الموسيقى يقال إنها إلى حدٍّ ما غير محبة إلا إذا كانت موسيقى رفيعة، وبالتالي موسيقانا تعتبر موسيقى بدائية تعتمد على الطبل والدفوف وتعتمد على الإثارة الحسية، ومن ثمَّ أعتقد أن هذا هو السبب في أن إبداعنا يكون دائمًا في مجال الكلمة.

ولا نستطيع القول بأنه لا يوجد لدينا فلاسفة، ولكن مدارسهم محدودة ولم تصل إلى درجة العالمية. والملاحظ أن الفلاسفة الذين ظهوروا في فترات سابقة، نظرياتهم إلى حدٍّ ما جاءت من خلال عصر الترجمة، ترجمة الدراسات اليونانية إلى العربية ثم القيام بإضافات من عندهم وتصديرها مرة أخرى إلى أوروبا. وما يحدث الآن مختلف إلى حدٍّ كبير، فهناك الآن آراء تنادي بأن نعود

إلى الأصالة وأن نعود إلى الوراء وألا نترجم ما هو موجود حاليًا، فهناك بعض الجمود.

أيضًا الفلاسفة في الماضي كان العالم أيامهم أضيق من الآن، لم تكن هناك الولايات المتحدة ولا أستراليا، وكانت العلاقة بين العرب والرومان والإغريق وأوروبا والهند والصين فقط. وفي الماضي كان هناك تفرغ وجدية في القراءة، وكانت مغريات الحياة أقل من الآن. والمشاكل التي تواجه الفلاسفة في الوقت الحالي هي أنهم لا يستطيعون التفرغ للإبداع والفكر، وهذا لا يعني أننا لا يوجد عندنا في مصر فلاسفة، ولكن كما ذكرت، مدارسهم محدودة. فعلى سبيل المثال الدكتور عبد الرحمن بدوي في كتبه، وإن كانت أكثرها تراجم لكنه أضاف إليها بعض الشيء، لم يستطع الاستمرار في مصر لأسباب سياسية. والدكتور زكي نجيب محمود له آراؤه الخاصة التي لها احترامها، ولكنها لم تصل إلى درجة العالمية. والفلسفة تحتاج لفكر عميق داخلي، والظاهرة الآن في البلاد العربية هي الاهتمام بالمظهر وليس الجوهر، وقراءة الفلسفة وفهمها هي أجمل رياضة عقلية، وأيضًا الوقت ونوع التدريس في بلادنا العربية يهتم بالمظهر أكثر من الجوهر، ومن ثمّ فما دام التعليم في الابتدائي والثانوي بهذا الأسلوب الحالي وهو التلقين والسطحية فلن يتم إفراز فلاسفة. ولا ننسى أن الفلاسفة الذين ظهوروا في عصور الإسلام المختلفة كانوا ينتمون إلى الحضارة الإسلامية أكثر منها إلى العربية، وكان أغلبهم من بلاد فارس.

هناك مثل أتذكره، إن أي إنسان يميل إلى العقلانية والموضوعية ويميل إلى العمق يتجه إلى اليسار قبل سن الثلاثين، وإن العاقل والناصح يختلف مع اليسار بعد سن الثلاثين، إذن فشباب الأدباء في مرحلة يريدون المثالية كما يريدون إزالة الفوارق بين الطبقات، وأيضًا يريدون تملك الدولة لكل شيء، وهذا يكون نابغًا من حماس خاص، وخاصة أن هناك ترابطًا في أفكار الناس أن اليسار مرتبط بالثقافة أكثر، فكان الانتماء للييسار نوعًا من الموضة، وأكثر الأدباء كانوا يتجهون للييسار. وبالطبع فهناك بين اليمينيين مثقفون، وهناك على العكس من ينادون بوجود فوارق، بل ونادى البعض بأنه يجب أن يكون هناك السوبرمان، مثل نيتشه وشوبنهاور، وهم ضد اليسار تمامًا. ولكن الأدباء الموجودين حاليًا كانوا في مرحلة الانبهار باليسار والتوحد مع الاشتراكية، وكانوا يعتقدون أنها السبيل الوحيد لإثبات الذات، ولكن ثبت الآن أن المثقف موجود سواء كان يمينيًا أو يساريًا، وليس لذلك أي ارتباط بالمجتمع والبيئة. وأكبر مثل أن أعظم أدباء روسيا ظهوروا قبل الشيوعية، تولستوي ودوستويفسكي وتشخوف، وأيضًا الموسيقيون، وإذا نظرنا إلى ما بعد الثورة فلن نجد نفس العظمة وضخامة الإبداع.

يقول البعض إن نسبة الأمية ما زالت عالية جدًا في الشعوب العربية، ومن الصعب في هذه الحالة أن يكون الأدب محركًا لثورة أو دافعًا للتغيير، ولكن ردًا على هذا الرأي يمكن القول إنه عندما قامت الثورة الفرنسية والروسية كانت هناك أيضًا أمية. وأنا أعتقد أن الأدب يمكن أن يُروى وأن يُحكى وليس بالضرورة أن يُقرأ. وأرى أن الشعب المصري، مع كثرة ما عاناه من قمع وقهر واستعمار لمدة طويلة، تعلم الصبر الشديد جدًا حتى أصبح ملتصقًا بأرضه بطريقة مرضية، إلى درجة أن كلمة «عرضي» أصلًا مرادفة لكلمة «أرضي»، وشخصية المصري بطبعه مسالمة.

وعلى أي حال، لكي يكون للأدب تأثيره فيجب أن يصل إلى الناس. وهنا في مصر مع نسبة الأمية العالية جدًا يصل إلى الناس من خلال الإعلام: التلفزيون والراديو. والأدب الذي يعرض في التلفزيون إلى حدٍّ ما يعبر عن الطاعة لولي الأمر والاستسلام للواقع، وكانت هذه الأجهزة في الماضي تتبع الحاكم، حتى وصل الأدب الثوري إلى الناس! لا يستطيع الإنسان أن يعيش دون أن يشعر بكرامته، وبما أن تاريخ الحاضر ومنظر المستقبل لا يعطي للشباب أو للمواطن هذا الإشباع، فالنرجسية الوطنية والقومية تجعله يتكلم عن أمجاد الفراعنة وأمجاد الإسلام وأمجاد العرب.

ولا شك أن عدم وجود قدوة في الحاضر أو فكرة قدوة في المستقبل، جعل الكثير من الشباب يصاب بنوع من الجزع واليأس والقنوط، ويلجأ إلى الأسلاف، حيث يرضي النرجسية الذاتية. ولا يصح أن مصرًا يتكلم ويفخر بخوفه في كلامه العادي في الوقت الذي تمتلئ فيه الشوارع بالقمامة والمتسولين، وهذا تناقض شديد، فإذا كنا نحترم ماضينا فيجب أن نحترم حاضرنا، ولكن واضح أن احترامنا للحاضر والمستقبل اختفى وأصبحنا نعيش في الماضي، وهذا هو التأخر، وهذا هو ما أسميه العالم الثالث. فإذا نظرنا للعقد النفسية الموجودة في شعوبنا نجد أنها تتكلم عن الماضي، وأنا أعتقد أن حضارة الولايات المتحدة سببها الرئيسي أنه لم يكن لديهم ماضٍ، فكان عليهم العمل لصنع حاضرهم ومستقبلهم، وأظن أنه لا خلاف على انبهارنا بهم في مجال العلم والمعرفة، حتى لو لم تكن تتفق معهم أخلاقيًا، ويبدو أن العودة إلى السلف تعوق التقدم.

وكما ذكرت، فإن الشباب لا يجد في حاضره ما يفخر به، ولا يجد في مستقبله ما يتطلع إليه، فيعود إلى الوراء. أما كبار السن فلا يجدون في حاضرهم الحالي ما يستطيع أن يرضي ذواتهم، فيكون الكلام عما قبل الثورة والتاريخ ما هو إلا إسقاط المؤرخ عن الحقبة التي يتكلم عنها، والتاريخ زائف وكاذب، ولا يوجد

تاريخ صادق مائة في المائة، لأن التاريخ كتبه فرد أسقط إدراكاته الخاصة على هذا الحاكم أو على السياسة.

وهناك أيضًا اعتبار أنه عندما يكبر الفرد، أي بعد ٦٠ أو ٦٥ سنة، فإن تمكنه من استيعاب الحاضر يصبح أقل، فالخلايا العصبية لا تستطيع أن تحتفظ بالمواد الجديدة، وما يبقى هو المواد القديمة، فهم يعيشون في الماضي بالفعل، وهذا هو ضمور الخلايا العصبية في الشيخوخة. وأحب أن أضيف أنه يقال دائمًا عن العربي إنه شديد الوفاء والشهامة، ولكن للأسف، فإن هذه السمات في الوقت الحالي غير موجودة، لأنها أصبحت قاعدة: أنه ما من أحد يرحل أو يترك الحكم إلا ولا يوجد غير الكلام عن سلبياته. وأنا أعتقد أن لكل شخص إيجابياته وسلبياته سواء الحكام الذين عاصرناهم أم لا. فهذه قضية أزلية، حتى منذ أيام قدماء المصريين، كان الفرعون عندما يأخذ الحكم يشطب أعمال من قبله، فتحطيم القدوة دون بناء قدوة أخرى ميراث قديم تتوارثه!

وأنا أعتبر التنافر الموجود بين الشباب أو بين أفراد الشعب المصري بل والعربي هو نتيجة إعطاء مؤثرات ومنبهات متناقضة في نفس الوقت، فيصبح الإنسان في حالة من الصراع النفسي، ويصاب بحالة من اللامبالاة وبأنه سوف يقبل أي شيء. هناك مؤثرات متناقضة، ليس فقط في الدين بل في السياسة أيضًا وفي الأدب وفي الفن، ففي كل شيء الأحوال متناقضة كما أسميها، فتقوب الضمير اتسعت جدًا، وأنا أشبه الضمير بأنه مثل الحاجز الذي به تقوب ضيقة جدًا ولا يمر أي شيء من خلالها. والذي حدث أن الضمير يتكون من الأبوين ومن المجتمع، ولكن عندما يعطي المجتمع أشياء متناقضة، والأبوان يعيشان في هذا المجتمع، فنجد أن التقوب اتسعت. فلا شك أن إنسان القرن الحادي والعشرين الغافل اتسعت تقوب ضميره، فتساهل في أشياء لم يكن يرضاهما من قبل!

وأعود لأقول إن الإعلام أصبح أقوى من المدرسة وأقوى من الأبوين، فلقد أصبح شيئًا جوهريًا في المجتمع، ومن ثم تناقض المؤثرات التي تحدث في الإعلام وعدم وجود خط واضح جعل الشباب في حالة من الحيرة والتناقض واللامبالاة، والقابلية للإيحاء تصبح خطيرة، ويكون عرضة للانتماء لأي مذهب يعرض عليه. ولا يوجد في الإعلام تخطيط استراتيجي ولا أهداف، وعندما تنشر أخبار عن الاغتصاب في الصفحة الأولى فإن جريمة الاغتصاب تتزايد. وثبت رسميًا أن الكلام عن ظاهرة معينة بصفة مستمرة يزيد من حدة هذه الظاهرة لأنه يحدث نوعًا من أنواع التحصين للإنسان فيقبل شيئًا لم يكن يقبله، مثل قضية فتاة العتبة وهذا التركيز الهائل عليها وكأنها أصبحت المشكلة الأولى

والأخيرة، والبرامج التي تتعرض لمشكلة الإدمان، وكأننا نعلم الأطفال ما هو الشم!

يقول بعض الناس إن ظاهرة الإدمان والاعتصاب والعنف سببها العامل الاقتصادي، ولكن الإدمان موجود في البلاد الغنية أكثر، والتطرف أيضًا موجود في بلاد مثل ألمانيا وفرنسا وفي بعض الأماكن من الولايات المتحدة، وهذه الظاهرة تعبر عن شيئين: زيادة سمات حدة المزاج، والتطرف في العبث. وتتبع من عاملين: تتبع من محاولة الهروب من الواقع، واليأس الذي يواجه بعض الناس، بغض النظر عن أن البلد فقيرة أم غنية، لأن هذه الظواهر موجودة في كل البلاد، بل نحن أقل من غيرنا. ومن الممكن أن يكون الرجل الفقير الذي لا يعمل سعيدًا وغير يائس، ولكن يجب إعطاؤه هدفًا. وأنا رأيت أن غياب الهدف العام والهدف القومي وغياب القدوة يجعل الإنسان غير قادر على التضحية، ومن ثمَّ يكون فرديًا. وبما أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش فرديًا دون الانتماء لمجموعة، إذن يجب أن يهرب من هذا الواقع الأليم، فإذا تعرض لبعض الجماعات فسيهرب من واقعه ودينه وحياته باحثًا عن الآخرة أو عن الجنة. وإذا تعرض لهؤلاء الذين يدمنون المخدرات فسوف يدمن كنوع أيضًا من الهروب. والإنسان الذي يعلم أن نهايته إما السجن أو الجنون أو الموت، فهو إنسان يائس. وحتى الإنسان الذي يعتصب ويعلم أن مصيره أيضًا السجن أو الإعدام، فهو نوع من أنواع تحطيم الذات غير المباشر، والانتحار لا يكون فقط بقتل الذات، ولكن بسلوك يؤدي إلى القتل!

لا أعرف من هو الكاتب أو المسؤول الذي أطلق على الجماعات المتطرفة تعبير «التطرف الإسلامي»، لأن الكلمتين متناقضتان، لأن التطرف لا يتواءم مع الإسلام، والإسلام لا يتواءم مع التطرف. الإسلام هو سلام وتسامح، وبالتالي كيف نطلق على هذه الجماعات «إسلامية»، فهذه الجماعات مكونة من بعض الشباب الفاشل اليائس الذي لا أمل له في مستقبل دراسي أو سياسي، ومن ثمَّ فهم يعيشون يومًا بيوم، وبخدعة من أمراء هذه الجماعات، وواضح أنهم ليس لهم علاقة بالإسلام. وأنا أعرف أن التدين الصحيح يأخذ بنوع من الشورى والتقوى والتسامح، ولو لم يكن كذلك لما اعتنق أحد الدين الإسلامي عندما جاء العرب إلى مصر. وهذه الجماعات هي إفراز نفوس مريضة، ومن النادر أن يكون إنسان ما ناجحًا عمليًا وأسريرًا وعنده المسكن والعاطفة في الأسرة ويتجه لهذه الجماعات.

وفي القرآن الكريم: «چ چ د ي د»، فكلنا خلقنا في مشقة نحاول أن ننساها بعملات تعادلية في الحياة، إما بالعمل أو بالدين أو بالرياضة والفن. أما بالنسبة لشبابنا ففرص العمل محدودة، إذن لا يوجد تنفيس لأي شاب يريد أن

يوجد تعادلاً لمشقة الحياة إلا بالدين، والتدين محبوب مرغوب، ولكن التطرف ظاهرة غير صحية. ولا شك أن عدم وجود تعبير سياسي، وإمكانية الانضمام لحزب سياسي للشباب الجامعة، من بين أسباب الاتجاه لهذه الجماعات. وليس عيباً الانضمام إلى جماعة دينية، فهناك فرق بين الجماعات الدينية والجماعات الإرهابية، فعلى سبيل المثال أغلبية قادة ثورة يوليو كانوا منضمين إلى جماعة الإخوان المسلمين بمن فيهم عبد الناصر، ولكن الموقف تغير تمامًا عندما حاولوا اغتياله في ميدان المنشية.

في السنوات الخمسين الماضية تأجلت سن الزواج، ومن ثمّ فالحرمان الجنسي والكبت موجودان في معظم الشباب. ولا شك أن إسقاط الكبت الجنسي يستعمل في النواحي الدينية، ومن ثمّ فهو يرى ساق المرأة ويستثار أكثر من المشيع جنسيًا، ونحن نهتم بالمظاهر أكثر بكثير من جوهر الدين.

عندنا نظرية وهي أن العنف يولد العنف، هذه نظرية نفسية سلوكية، ولكن هذا لا يمنع إطلاقاً من الردع والعقوبات على من يمارس العنف، ولكن في نفس الوقت يجب إيجاد نوع من التنوير والتشكيل الثقافي والحوار مع بعض هؤلاء الذين يقبلون الحوار، ويجب أن يكون الردع متوازنًا تمامًا مع الحوار وتغيير أسباب العنف.

لا شك أن بعض أمراء هذه الجماعات الخفية، ولا أقول كلمة «إسلامية»، يعاني من الإحساس بالعظمة وبعض الاضطرابات النفسية التي تجعله يشعر بأن لديه رسالة، ومن ثمّ فإنه يجد بعض الأتباع، ولكن ما يمارسونه في حياتهم الخاصة ضد أي شيء ديني، إذن هي مجموعات موجودة في كل بلاد العالم ولكنها ليست تحت شعار الدين، وهم ناس خارجون عن القانون.

لو كان حكام مصر عبر التاريخ أعطوا فرصة للمصري أن يشارك، كان من الممكن أن تكون هناك عملية تشكيل حضاري ونضوج شديد، ولكن للأسف فإن معظم الحكام سواء في فترات الاستعمار أو المصريين الذين حكموا لم يعطوا الشعب الانتماء أو المشاركة، ومن ثمّ أصبح الإنسان لا يبالي؛ إنني لا أشارك في الحكم فدعهم إذن يحكمون.

كنا ننتظر من جمال عبد الناصر وأنور السادات أن يجعلانا نكبر وننضج، ولكن الذي حدث أنهما عادا بنا إلى مرحلة الرضاعة، فأصبحت العملية هي أن يعطونا الطعام والشراب والعمل والتعليم والحماية والتأمين الصحي، بمعنى «أنت أيها الحاكم تولى كل شيء»، وما زلنا إلى الآن متأثرين بهذه المعادلة، خاصة إذا كان حقيقياً أن المصري يعمل ٢٨ دقيقة في اليوم!

من الممكن أن تكون هناك ظواهر اجتماعية مَرَضِيَّة، ولا شك أن طريقة الحكم في أي بلد تجعل للشعب سمات وطباعًا معينة، فالشعب الروسي مثلًا تحمّل لمدة سبعين عامًا أسلوبًا معينًا في الحكم، ثم في خلال أيام اكتشف أن كل هذا خواء، وكان يعاني طوال هذه الفترة من ظواهر اجتماعية مَرَضِيَّة. ونفس هذا الكلام قيل عن الملك فاروق، وفؤاد، ومحمد علي، وكل الحكام. فلا أستطيع أن أقول إن عبد الناصر هو السبب، ولكن عبد الناصر امتداد. ولا شك أن جمال عبد الناصر بالفعل جعل الهيئة كلها له هو، وليس لأي فرد آخر، وهذا أحدث خللًا في المجتمع، مثل دستور يقول إن ٥٠٪ عمال وفلاحون، فكل المصريين عمال وفلاحون، وهل عندما يتعلم الفلاح لا يصبح فلاحًا، أم من المعقول أن ينوب عني فلاح غير متعلم! وكل هذه الأشياء والقرارات كان بها نوع من الديماغوجية، وهو فن تضليل الشعوب لكي تكون كل السلطة في يد الحاكم، وهذه إحدى سليات عبد الناصر، وله أيضًا إيجابياته.

وعن أعضاء مجلس قيادة الثورة، فلم يكن لهم حرية اتخاذ القرار، ولكن السؤال هنا: هل كنا نحن كمصريين في هذه الفترة محتاجين إلى شخص كعبد الناصر لكي يذيب الفوارق ويؤمم القناة؟ وهذا متروك للتاريخ. وهل كل شعب محتاج لدكتاتور في فترة من فترات حياته؟ لا نستطيع أن نقول إن الدكتاتور لا يظهر إلا في شعب ضعيف، فهتلر مثلًا ظهر في ألمانيا، وهو ليس شعبًا ضعيفًا، كذلك موسوليني.

إن المغالاة دائمًا هي السلوك في بلاد العالم الثالث، لأنه لا توجد استراتيجية طويلة المدى، ولكن كل قانون يصدر، وكل عمل سياسي، ما هو إلا رد فعل وليس فعلًا، ونحن نريد أن يكون هناك فعل. على سبيل المثال: تتكرر حوادث الإرهاب فننادي بقانون للإرهاب، يحدث اغتصاب فننادي بقانون للاغتصاب، ولقد قرأت في إحدى المقالات أن كينيدي اغتيل شقيقه أيضًا ولم يحدث تغيير في قانون الإرهاب. والقوانين الموجودة حاليًا من الممكن أن تقاوم الإرهاب، ولكنها لا تطبق. ولقد ثبت أن أي قانون يصدر تقل الجريمة بعده لمدة ستة أشهر ثم تبدأ في الصعود مرة أخرى، وهذه نظرية نفسية في القوانين التي تحارب الظواهر، فهناك قانون لإعدام القاتل ولكن القتل لا يتوقف.

لا شك أن الأدب والفن يتأثران بالمجتمع، وإن لم يوجد الأمراء والنبلاء في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر لما رأينا الموسيقى الكلاسيكية والباليه، حيث كانت هذه الفنون الرفيعة لا تُعزف للشعب وكانت تُعزف للنبلاء. وطبيعة العصر الحالي لا توجد هذه الظروف، وهذا العصر سريع جدًا وبه الكثير من المغريات، فأصبح من الصعب وجود هذه الفنون، فكل عصر له أدبه الخاص،

فإذا نظرنا إلى الباليه في أوروبا ونظرنا إلى الأغاني الشعبية نجد أن الإقبال يكون على الأغاني الشعبية، وأيضًا هذا ينطبق على السينما والمسرح.

أرى أن الاستقطاب الذي كان موجودًا بين القوتين كان يعطي لدول العالم الثالث اعتمادية شديدة، ووجود قوة واحدة يجعل العالم الثالث إن لم يلتفت إلى نفسه ويعتمد على ذاته فسيعرض هذا العالم للفناء بالبشر الموجودين فيه. ولذا وجود قوة واحدة معناه أن تتخذ كل بلاد العالم الثالث طريق الاعتماد على الذات. وكما كان مكتوبًا في إحدى المقالات فإن أفقر بلاد العالم هي أكثر البلاد التي تشتري السلاح! والثروة والعنف والمعرفة في كتاب محركات القوة، وهو أن ثورة الغد ستكون قوة المعرفة، وليس في القوة العسكرية ولا ثروة البترول ولا قوة أي شيء مادي، فالمعرفة تفوق كل شيء، وأظن أن حرب الخليج أظهرت ذلك بشدة.

البطل الذي سيكون بعد عام ٢٠٠٠ ليس معه مسدس، البطل هو من سيضيف معلومة للمعرفة. فإن لم نفق في حياتنا عامة، وقمنا بإضافة المعلومات الجديدة وزيادة المعرفة، فالمستقبل مظلم. وإن أفقنا أصبح الآن عندنا فرصة، ومن ثمّ فالتقدم في العالم هو بين مخ ومخ، معرفة ومعرفة، فكر وفكر، وقد انتهى عهد القوة وعهد العنف، ومهما أوتيت دولة من قوة فلن تستطيع أن تتفوق على دولة لديها المعرفة.

في أوائل هذا القرن، كان موجودًا لكل طبيب نفسي طبيب يعالجه نفسيًا، عندما كان التحليل النفسي متمثلًا في رائده فرويد، وكان يقول: «لكي يستطيع الإنسان تحليل شخصية يجب أن يعرف الكثير من سمات هذه الشخصية، وعقدها، وصراعاتها النفسية، حتى لا تؤثر في العلاج». وكان في هذا الوقت لا يوجد في الطب النفسي إلا علاج التحليل النفسي، ومن ثمّ كانت الفكرة أن أي إنسان لكي يتخصص في التحليل النفسي يجب أن يمر بفترة تحليل ذاتية مع أحد أساتذته، ولكن عندما تفرع الطب النفسي ودخل علاج تنظيم إيقاع المخ والكيميائي والعلاج السلوكي والعلاج النفسي غير التحليلي، وهو السائد في العالم الآن، إذ إن العلاج التحليلي يختفي تدريجيًا، أصبحنا لا نرى تأثيره إلا في بعض الأفلام بحثًا عن الحبكة السينمائية!

العلاج النفسي الآن علاج نفسي مباشر معرفي، إذن لا توجد علاقة أو ضرورة إطلاقًا توجب تحليل الطبيب النفسي نفسيًا، لأن معنى ذلك أن الجراح يجب أن نقوم بجراحة له حتى يكون جراحًا، إذن هذه حرفة محتاجة إلى بعض اللمسات في الشخصية، ومحتاجة أن الفرد المريض نفسيًا لا يتخصص في هذا الفرع لأنه لم يصل إلى فهم نفسه حتى بعد دراسة هذا الفرع.

أما إذا كان الطبيب النفسي مريضًا، وهو بشر وله الحق في أن يقلق ويكتئب ويصاب بأي مرض، فلا يوجد أي غضاضة في أن يذهب للعلاج عند زميل. وأنا أقوم بعلاج بعض من الزملاء الأطباء النفسيين، وتكون استجابتهم جيدة. فلا يجب أن ننظر إلى الطبيب النفسي على أنه إنسان قدوة، وبالتالي يجب ألا يعاني من أي شيء، إنه بشر يتألم ويعاني، وأعتقد أنني إذا أصبت بالقلق والاكتئاب فساذهب لأحد الزملاء!

هل الذكاء المصري في خطر؟

قرأت مقالاً في مجلة النيوزويك عن بحث أجري في جامعة نيومكسيكو في الولايات المتحدة الأمريكية، وقد جذبني هذا المقال فبحثت ونقبت عن البحث الأصلي لكي أقرأه بعمق، فقد تعرض البحث لموضوع حساس للغاية، ألا وهو التفاوت في نسب الذكاء بين شعوب البلاد المختلفة، وحتى القرن الماضي كان ذلك يندرج تحت مظلة الاستعمار أو العنصرية من قبل الدول المستعمرة في أن تتهم شعباً أنه أقل أو أكثر ذكاءً إذا قورن بالشعوب الأخرى، خاصة بعد أن انتهت آراء لومبروزو إلى أن سحنة الوجه وتضاريس الأنف والحواب والذقن من الدلالات على الشخصية والأخلاق والذكاء.

ونحن نعلم أنه لا توجد فروق في معدل الذكاء بين الرجل والمرأة، أو بين الأجناس من أسود إلى أبيض إلى أصفر، ولكن توجد فروق بين طفل القرية وطفل المدينة. والمحير هو ما توصلت إليه الدراسات الحديثة من أن الملكات المعرفية تتفوق في بعض البلدان عن غيرها، كما أوضحت أنه كلما ارتفع مستوى النمو الاقتصادي والديمقراطي لدى وطن ارتفع بالتالي معدل الذكاء به، وسُمي ذلك «تأثير فلين»، الذي يتأثر أيضاً بمستوى الدخل والتعليم والعمل غير الزراعي، واستطاعت الأبحاث الأخيرة استنباط علاقة بين الأمراض المعدية في الطفولة ونسبة ذكاء الفرد.

إن مفهوم الذكاء اختلف من عالم إلى عالم آخر، ولكن اتفقوا على أن الذكاء قدرة فطرية عامة يولد الإنسان مزوداً بها وتستمر معه طوال حياته. ولقد حاول علماء النفس تعريف الذكاء في عبارات مختصرة بسيطة ومن خلال محاولاتهم استنتجوا هذه التعريفات: قدرة الفرد على الفهم والابتكار والتوجيه الهادف للسلوك والنقد الذاتي، أو القدرة على التفكير المجرد، أو القدرة على التعلم، أو القدرة على التحصيل، وهذا التعريف أكثر شيوعاً وأكثر استخداماً، أي أن الذكاء هو الأداء الجيد لاختبارات الذكاء العلمية الموضوعية الثابتة والصادقة، مثل اختبار استانفورد بينيه ومقياس وكسلر بليفو للأطفال والراشدين. ويمكن تعريفه أيضاً بكونه الأداة التي تمكن الأفراد والمجموعات من التكيف بشكل أفضل مع الظروف المحيطة عن طريق استغلال ما هو موجود للوصول إلى حل مشكلة معينة. وأفضل تعريف للذكاء أنه القدرة الكلية لدى الفرد على التصرف الهادف والتفكير المنطقي والتعامل المجدي مع البيئة.

وهناك ثمانية أنواع من الذكاء يتمتع بها الإنسان، وهي:

- الذكاء اللغوي: يقصد به القدرة على التحدث والتأليف.
- الذكاء المنطقي (الرياضي-الرقمي): هو القدرة على الحساب وحل الأمور المنطقية.
- الذكاء الحيزي (البصري-المكاني): هو القدرة على التفكير بالصور، وتخيل الأمور بطريقة ثلاثية الأبعاد.
- الذكاء الموسيقي (النغمي): هو القدرة على سماع الألحان وفهم تألفها.
- الذكاء الجسدي (الحركي): هو قدرة العقل على التحكم في الجسم بسرعة ومهارة.
- الذكاء الجماعي (الاجتماعي-العاطفي): هو القدرة على فهم الآخرين والتعامل معهم.
- الذكاء الفردي (الذاتي): هو القدرة على فهم الذات وتطويرها.
- الذكاء الحيوي (البيئي): هو القدرة على الجمع بين العمل أو الدراسة والمتعة.

ويتم قياس نسبة معدل الذكاء لدى الفرد بواسطة اختبارات نفسية، من أهمها اختبار وكسلر لقياس نسبة الذكاء اللغوي أو الحركي. وبالطبع هنا نقصد الذكاء الأكاديمي الذي يكفل للفرد إنهاء تعليمه، وهو يختلف عن الذكاء العاطفي الذي يعتمد على الحميمية والتواصل العاطفي أو الكاريزما، فالذكاء الأكاديمي يتيح للفرد التخرج بدرجات عالية، أما الذكاء العاطفي فهو الذي يجعله يشق طريقه وينجح في الحياة.

وقد خلق الله الإنسان وأعطاه هبة الذكاء بتوزيع عادل، حيث نجد أن ٦٠٪ من البشر متوسطو الذكاء، و٢٠٪ فوق المتوسط، و٢٠٪ أقل من المتوسط. والذكاء هو بمثابة عطاء من الله لا تلعب الوراثة من الوالدين فيه دورًا كبيرًا، ولكن تلعب البيئة دورًا مهمًا، فالوراثة هنا استعداد وراثي وليس للوالدين دور فيه، فالطفل الذي ينشأ في بيئة تتميز بالثراء الثقافي يتمتع بنسبة ذكاء مرتفعة عن قرينه الذي يعيش في بيئة مفتقرة للثقافة والعلم. وأذكر هنا أن العالم الكبير الدكتور مصطفى سويف، متعه الله بالصحة والعافية، كان يضيف عشر نقاط فوق معدل الذكاء نظرًا لصعوبة مقاييس الذكاء بالنسبة للمواطن

المصري. وبالفعل لاحظنا أن مستوى الذكاء في مرضانا بدأ في الانخفاض تدريجيًا إذا قورن بخمسينيات أو ستينيات القرن الماضي.

وعلى الرغم من أن جيمس فلين، وهو عالم وسياسي من نيوزيلندا، قد استطاع من خلال أبحاثه أن يثبت أن معدل الذكاء يزداد ارتفاعًا على مدار الأجيال، ومعدل ذكاء الأجيال الحالية أكثر ازديادًا عن الأجيال السابقة، وأن لذلك علاقة طردية بالنمو الاقتصادي والتكنولوجي، فإنه يقال إن معدل الذكاء كان ثابتًا منذ ألفي عام، وبدأ في الزيادة حوالي عام ١٩٣٠، متزامنًا مع ارتفاع النمو الاقتصادي والعلمي الذي ازداد في الخمسين عامًا الأخيرة بفضل التقدم التكنولوجي. وبناءً على ذلك نلاحظ أن من كان عمره فوق خمسين عامًا لا يستطيع أن ينافس أولاده أو أحفاده في مهاراتهم في التعامل مع التكنولوجيا الحديثة.

ونحن نعلم أن أهم أعضاء الجسم البشري هو المخ، والمخ هو المسؤول عن استيعاب ٩٠٪ من طاقة الطفل، ولكن إذا حدث أي تدخل في هذه الطاقة أثناء فترة الطفولة فستتجم عن ذلك آثار خطيرة ودائمة. وأخطر ما يؤثر في مخ الطفل هو الأمراض الطفيلية والمعدية، حيث تعوق النمو الطبيعي، فالطفيليات تؤثر على عملية امتصاص الطعام والفيتامينات من الأمعاء، وكذلك تبطل نمو الخلايا بالجسم، كما تقوم بتوجيه الطاقة إلى جهاز المناعة بدلًا من المخ مما يؤثر على نسبة ذكاء الطفل في سن البلوغ، كما تشير الدراسة إلى أن من أخطر أمراض الطفولة تأثيرًا على نسبة الذكاء لدى الطفل: الإسهال. وأيضًا يؤدي مرض الإصابة بفقر الدم (الأنيميا)، خاصة نقص الحديد، لانخفاض نسبة الذكاء لدى الأطفال أو الكبار، لأنه بمثابة المسؤول عن إمداد المخ بالأكسجين اللازم، فنسبة الإصابة به في مصر ٣٠٪ من إجمالي سكانها، منهم ٧٠٪ أطفالًا، أي حوالي ٤٢٪ من أطفال مصر يعانون من أنيميا نقص الدم. كما تؤدي بعض العادات الغذائية إلى منع امتصاص الحديد في الدم، كاحتساء الشاي بعد وجبات الطعام، والذي يحتوي على مادة التانين المانعة لامتصاص الحديد، وكذلك تناول الفول مع قشره لأن القشرة الخارجية للفول تحتوي على فايئات مانعة لامتصاص الحديد، لذا ينصح بتناول الفول المصفى.

وقد وجد الباحثون أن الدول الأقل نسبة في معدل الذكاء، مثل: غينيا الاستوائية، والكاميرون، وموزمبيق، والجابون، تمثل أعلى نسبة في عبء الأمراض (يقاس عبء أي مرض حاليًا بما يُسمى العجز الناتج عن المرض، أي تأثير المرض على عدد السنوات التي فقدت دون عمل بسبب المرض، وكذلك الوفاة المبكرة). أما الدول التي تتميز بعبء بسيط للأمراض، مثل: سنغافورة،

وكوريا الجنوبية، والصين، واليابان، وإيطاليا، فتعتبر في مقدمة الدول ذات الذكاء المرتفع. وقد تم أخذ المحركات الأخرى في الاعتبار، مثل: التعليم، والعمل الزراعي، ودخل الفرد وكذلك المناخ. فقد وجد أن المناخ البارد قد يؤدي، حسب نظرية التطور، إلى ذكاء أكثر ارتفاعًا، وهذا ما جعل مواطني مهد البشرية، أي مواطني أفريقيا، ينزحون إلى آسيا وأوروبا.

وتوصي الدراسة بضرورة اهتمام الدول بحصول مواطنيها على الماء الآمن وغير الملوث بالصرف الصحي، والتطعيم، والأدوية، لتقل الإصابة بالأمراض المعدية والطفيلية، وبذلك تتحسن نسب الذكاء بين مواطنيها.

وإذا تقرر ثبات وصدق هذا البحث، فيعني ذلك أن على صانعي القرار السياسي المهمة الأولى في الارتفاع بمستوى ذكاء المواطنين من خلال الحفاظ على صحة الطفل، وذلك من خلال توفير الماء النقي والتطعيم والدواء ومحاربة أمراض الطفولة.

وحسب كتاب لين وفانها من عن «معدل ذكاء الأمم»، وحسب «تأثير فلين»، نجد أن أعلى معدل ذكاء في هونج كونج (١٠٧)، ثم كوريا الجنوبية (١٠٦)، ثم اليابان (١٠٥)، ثم الصين (١٠٤)، ثم سنغافورة (١٠٣)، ثم النمسا وإيطاليا وألمانيا (١٠٢). أما في البلاد العربية فنجد أن ترتيب لبنان بين ١٨٥ دولة هو (٥٢) بمعدل ذكاء (٨٦)، والمغرب (٥٤) بمعدل ذكاء (٨٥)، أما مصر والسعودية والإمارات فتحتل رقم (٦٠) بمعدل ذكاء (٨٣)، والسودان رقم (٧٠) بمعدل ذكاء (٧٢).

لذا نهيب بالدولة أن تعمل على محاربة الأمراض المعدية والأمراض الطفيلية في الريف أو الحضر على حدٍ سواء، وذلك من خلال أساليب وخطط علمية جادة، وأن تقوم ببحث نشرات صحية في وسائل الإعلام المتعددة لتوعية مواطنيها بأنواع الأطعمة المختلفة المانعة لامتصاص الحديد في الدم، والتي تؤدي بالتالي للإصابة بمرض فقر الدم، وأخيرًا أن تهتم بتحسين المستوى التعليمي والثقافي والاقتصادي لجميع أفراد الشعب من أجل النهوض بالذكاء المصري وإعادته لسابق عهده.

أحمد زويل والذكاء العاطفي

يختلف الذكاء العاطفي (EQ) عن الذكاء التقليدي الذي نطلق عليه «IQ»؛ أي معدل الذكاء الذي يقيس القدرات اللفظية والإنجازية والأكاديمية. أما الذكاء العاطفي فهو موهبة الفرد في التواصل العاطفي بين الذات والآخرين، ووجود الهدف، والمعنى، والعلاقة مع العالم، ومساعدة الآخرين لعمل الشيء نفسه. يلتحم مفهوم الذكاء العاطفي بالحب والعطاء والروحانية، وبحضور الرحمة والإنسانية. ويشمل الذكاء العاطفي عدة محكات: أن تعرف مشاعرك وتديرها، وأن تكون لك القدرة على إيجاد الحافز، وأن تعرف وتفهم مشاعر الآخرين، وأن تستطيع إدارة عواطف الآخرين.

النجاح في الحياة لا يعتمد على الذكاء الأكاديمي، ولكن على الذكاء العاطفي. إن الزعامة، والقيادة، وحب الجماهير، وحب العاملين، تعتمد على إحساسهم بأنك قادر على التواصل العاطفي، وهو ما نطلق عليه «الكاريزما» أو «الجابضية الجماهيرية». وتشيد معظم الأبحاث النفسية بأن قوة الذكاء العاطفي هي الدليل على التنبؤ بالنجاح أكثر من الذكاء الأكاديمي.

وإذا أخذنا بعض الشخصيات كمثال للتفاوت بين الذكاء العاطفي والذكاء الأكاديمي، فالرئيس الراحل كينيدي كان متوسط الذكاء، ولكن عنده مقياس عالٍ من الذكاء العاطفي والكاريزما، وكذلك ريجان، أما كارتر فذكاؤه يصل إلى مرحلة العبقرية ورجل له المصداقية ولكنه لا يتمتع بالكاريزما، أما كلينتون فكان يتمتع بالذكاء العاطفي والتقليدي، بعكس بوش الذي لم يهبه الله الذكاء العاطفي ولا التقليدي. وأحد أسباب انتخاب أوباما - رجل أسود في البيت الأبيض - هو وضوح الذكاء العاطفي والتقليدي. وكذلك تسعفنا الذاكرة بالنائب جيفارا الذي كان يتمتع بارتفاع في الذكاء العاطفي والتقليدي وهو أسطورة خالدة.

عندما أحاضر طلبة السنة الثانية بكلية الطب، وعددهم لا يقل عن ألف طالب، وأعمارهم تتراوح بين ١٨ و ٢٠ سنة، في محاضرة الذكاء، أتوجه لهم بالسؤال: من هو الرئيس المصري الذي تشعر بأنه يتواصل معك عاطفياً وتحس بدفع عواطفه؟ تكون الإجابة إجمالاً: «جمال عبد الناصر». مع أنهم لم يعاصروا عبد الناصر أو السادات وولدوا في عهد مبارك. فماذا يعني ذلك؟ يعني أن حب الجماهير يعتمد على الذكاء العاطفي أو الكاريزما، ومن هنا تستطيع أن تغفر الأخطاء للزعيم الملهم ذي القبول والحضور.

إننا ننهي دراستنا بالذكاء الأكاديمي، ولكن نجاحنا في الحياة وفي العمل وفي الزواج وفي الصداقة يعتمد على الذكاء العاطفي. وتوجد دراسة حديثة في أوروبا تؤكد أن ٧٠٪ من حالات الطلاق يكون من أسبابها القوية عدم وجود الذكاء العاطفي في أحد الأطراف، أي أن الزوج، أو الزوجة، لا يستطيع التواصل العاطفي مع الطرف الآخر، على الرغم من وجود هذه المشاعر المدفونة بالداخل.

لا يختلف أحد على أن الحائزين جائزة نوبل يتمتعون بذكاء متميز ومتفرد، ولكن تجد القليل منهم من يتمتع بالذكاء العاطفي. أتاحت لي الفرصة في المؤتمرات العلمية المختلفة أن أجلس مع الكثير منهم، وعلى الفور يتضح لي أنني لا أريد أن أكرر اللقاء إلا مع هؤلاء الذين أشعر معهم بالتواصل العاطفي، وينطبق هذا على الصديق العزيز الدكتور أحمد زويل، فهو رجل يتمتع بالذكاء المتفرد والتميز، ولكنه أيضًا أعطاه الله موهبة الذكاء العاطفي، ومع أنه «رجل علم» إلا أنه أصبحت له جاذبية جماهيرية تفوق «رجل السياسة»، ومن ثمَّ يتمتع بحب كل من يتكلم معه أو يسمعه أو يشاهده.

كنا نتناول العشاء، أمس الأول، معًا في أحد مطاعم القاهرة، وذهبنا للسيارة، فما كان من بائع الجرائد والسايس إلا أن حاول مصادفة أحمد زويل، ورفض أخذ أي أعاب، سواء للجرائد التي اشتراها أو لعناية السايس بالسيارة. ما معنى هذا؟ معناه أنهما يشعران بأنه يفهم ويعرف ويقدر عواطفهما، وأنه على الرغم من جائزة نوبل فإنه يتواصل مع الغني والفقير، المتعلم والجاهل والمتقف، وغيرهم. وطوال فترة العشاء كان الصغير والكبير يتوجهون لمصافحته. وللأسف توجد بعض النفوس غير القادرة التي لم ينعم الله عليها بالذكاء العاطفي لا تحاول قبول ذلك، ولكنهم يصابون بحيل دفاعية لاشعورية تجعلهم يعادون النجاح، ويذمون في التفوق، ويقللون من قيمة النجاح. ولكن هيهات أن يؤثر ذلك في نفسية الناجح! إن الأرقام لا تصيبها السهام، ولكنها تصيب الأكابر، والكبير يستطيع التسامح والتغاضي والتسامي عن الصغائر.

إنني أعلم أن أحمد زويل، على الرغم من حب الناس له واعتباره قدوة، عازف عن المنصب والقوة والجاه، ومستغرق في أبحاثه العلمية.

قد يقول البعض: وماذا نفعل إن لم يعطنا الله هذا الذكاء العاطفي؟ لا تيأس، فتوجد الآن تدريبات لتنمية الكفاءة الشخصية والاجتماعية والعاطفية والمهارات الاجتماعية، بل إنه توجد مقاييس للذكاء العاطفي يتم استخدامها في التخطيط، وملء الوظائف، والتنمية البشرية، واختبار الكفاءات، وتنمية الإدارة في حركة الأسواق التجارية وفي خدمة العملاء.

وأخيرًا، عندما تنظر إلى دراستك الجامعية أو الثانوية، وقد تعرضت لعشرات الأساتذة والأذكىاء، ستجد أنك تتذكر البعض فقط، هؤلاء هم ذوو الذكاء العاطفي، كذلك ستتذكر بعض الزعماء والقيادات والفنانين والعلماء والصحفيين، إلخ، هؤلاء الذين يملكون الذكاء العاطفي.

إنني أتحدى أن يكون في الوقت الحالي أحد يتمتع بهذا القبول والحضور والكاريزما والذكاء العاطفي مثل الدكتور أحمد زويل، ليس فقط بين طبقة المثقفين، بل بين هؤلاء العامة الذين لا يفهمون ما هو الفيمتو ثانية! والدكتور أحمد زويل يمثل لهم النجاح والتفوق والأمل، يزيد على ذلك الذكاء العاطفي، فالكثير يعتبرونه مثلهم الأعلى في المصري الذي تفوق على ذاته وعلى الآخرين، ويتمنون التوحد معه، حيث يشعرون ببعض السعادة والكرامة والقدرة على التطلعات المتفائلة.

هنيئًا لك أيها الصديق بمحبة الله والجماهير، التي تثير في القلة العاجزة الغيره واليأس، وفي الأغلبية الفخر والاعتزاز.



المؤلف مع عدد من أعضاء مجلس أمناء جامعة زويل: من اليمين الدكتور مجدي يعقوب، الدكتور أحمد عكاشه أستاذ الطب النفسي، الدكتور أحمد زويل الحائز جائزة نوبل للكيمياء، الدكتورة منى ذو الفقار المحامية وعضو لجنة الخمسين، الدكتور محمد أبو الغار مدير المركز المصري الطبي لأطفال الأنابيب، الدكتور محمد فتحي سعود رئيس مؤسسة قطر للتربية والعلوم وتنمية المجتمع، الدكتور أحمد جلال

وزير المالية الأسبق، الدكتور مصطفى السيد عالم الكيمياء المصري، الدكتورة لطفية النادي عالمة الفيزياء النووية

التكوين النفسي للإخوان

يجب التفرقة بين الإرهابي كقائد والإرهابي كتابع. فعادةً، تكون قيادات الإرهاب شخصيات راديكالية متطرفة ليس لديها أي قابلية للمرونة أو الحوار أو المناقشة، ويكون إيمانهم بالفكرة أو الاعتقاد يقينًا غير قابل للحوار، ويكون لهم القدرة على إقناع الآخرين باعتقادهم سواء خاطئًا أو صحيحًا، خاصة في هؤلاء القابلين للإيحاء ويطيعون الأوامر كقطيع دون وعي على الرغم من تفاوت ثقافتهم.

وهنا يجدر الكلام عن «متلازمة الماسادا»، وهي حالة نفسية تتميز باعتقاد مركزي راسخ بواسطة أعضاء مجموعة تشعر أن المجتمع ضدهم وله رؤية سلبية تجاههم، وهم يفضلون الانتحار أو الموت أو الشهادة على الاستسلام أو الهزيمة أو قبول الأمر الواقع.

وفي دراسة علمية عن «الراديكالية بين التطرف الديني والميليشيات والعصابات والجهاديين»، وُجد أن ما يميزهم هو: غياب النسيج المجتمعي المساند، والرغبة في الانضمام والانتماء لمجموعة تكسبهم نوعًا من احترام الذات والهوية، والرغبة في الثورة على نظام المجتمع، والرغبة في الحماية من نفس المجتمع الذي يشعرون أنه ظلمهم، وحب المغامرة والمخاطر والتجديد. ويعزز الراديكالية: الفقر، والبطالة، والظلم، وعدم وجود الحافز للتقدم، وعدم وجود الفرصة للتقدم.

العوامل السابقة التي تجعل المرء مهياً للانخراط في الإرهاب هي: التجارب الشخصية في مجال الاضطهاد (الحقيقية أو المتصورة)، وتوقعات تتعلق بالانخراط (مثل المغريات، كالإثارة والرسالة والإحساس بأن حياة المرء هدفًا)، والمشاركة في النشاطات، والتأهل للانضمام إلى المجموعة عن طريق الأصدقاء أو الأسرة أو النشوء في بيئة معينة، وفرصة للتعبير عن الرغبة في الانضمام، والخطوات المتخذة نحو الانخراط، ومدخل أو وسيلة إلى الوصول إلى الجماعة ذات الصلة.

ما نظنه في أفعال كثير من الانتحاريين المنتمين للفئة الضالة أنهم مرضى يعانون من عدم السواء النفسي والتوازن الداخلي، ولكن من استقرار مسار الجماعات والحركات الإسلامية المختلفة، لوحظ محاولة اقتناص المواهب وسرقتهم من سياقاتهم الاجتماعية والخاصة نحو سياقها الأيديولوجي، وتحييد

وإقصاء من يرويه غير مؤثر أو مصابًا بمرض نفسي ما، حتى لا يحملوا مؤونة أزماته الخاصة، أو يسبب ارتباكًا داخل التنظيم.

وتشير الأبحاث إلى تفسير «التنشئة الاجتماعية للإرهابيين» كمصدر لتطرفهم، حيث ترى أن اختيار الأفراد لطريق ممارسة الإرهاب يضرب بجذوره في تنشئتهم الاجتماعية المبكرة التي أنتجت تشوهات فكرية مبكرة، ولازمت توجههم لممارسة العملية الانتحارية والقتل باسم المعتقد ومظنة الدفاع عنه، كما تعطي هذه التنشئة الدينية أو الأيديولوجية أعمالهم مغزى مقدسًا يدنس ما سواه من آراء واجتهادات، بل يكون لدى هذا الإرهابي - المشوه نشأةً وفكرًا - ميل لاتباع الشيوخ المتطرفين تحديدًا دون سواهم، فكلما اشتد التشدد والتزمّت والتعصب في الخطاب، كان علامة على شدة التدين عند هذا الشخص الإرهابي، وتبدو الوسطية في هذه الحالة ضعفًا وتفريطًا، ويسلمون لهم قيادهم دون تحفظ أو اعتراض، فيقدمون على التضحية بأنفسهم وهم على يقين بأن ما يقدمون عليه ليس انتحارًا.

لوحظ في دراسات علمية أن الغالبية العظمى ممن اجتذبهم النشاط الإرهابي في بلادنا كانوا من دارسي تخصصات كليات القمة (التخصصات العلمية)، وغني عن البيان أن الفكر الذي اجتذب هؤلاء باعتراف الجميع لم يكن فكرًا علميًا بحال، بل لم يكن حتى فكرًا دينيًا صحيحًا من وجهة نظر الأزهر.

إن المسألة أعقد من تحليل واحد، أو الانحصر في مدخل واحد لتحليل وتفسير شخصية الإرهابي والانتحاري. ولكن تظل الأسرة، والتنشئة الاجتماعية، والمراقبة، والاعتدال، وتعزيز التوجه الوسطي والمضامين الوسطية عبر المؤلفات، واختيار الشيوخ، والأدوات السمعية والبصرية المساعدة، وسائل تحصين ضرورية، فضلًا عن جوهرية وأهمية مفردة للحوار في كل المسألة.

نحن نرى تاريخًا جديدًا في مصر، وانهيًا وتفككًا في البناء الأساسي لجماعة الإخوان المسلمين، والسلوك الحالي منهم هو سلوك إنسان يحتضر ويتمسك بأي شيء حتى لا يموت (حلاوة الروح).

لا شك أن الأبطال من الشرطة والجيش والشعب سيغفرون لمن أساء إليهم سلميًا، ولكن لا يوجد غفران لمن أساء إليهم بالعنف والكراهية والتحريض.

أشبه جماعة الإخوان المسلمين بمرضى الهذيان العقلي المدمر للذات، الذي يكون مغيبًا عن الوعي، ويتميز سلوكه بالعدوان الغاشم. لماذا الضلال ضد الشعب والجيش والشرطة؟ لماذا حرق الكنائس والسيارات؟ لماذا نهب محال الذهب والمحال التجارية؟ لماذا الهجوم وتخريب المنشآت العامة

والمنشآت الحكومية؟ لأن «أحکم أو أحرق مصر» هذا هو الشعار الحالي لهذه الجماعة المتطرفة التي تعاني من الضلال الفكري والسياسي والديني. إنهم يعتقدون أنهم الأصح والباقي في خطر وكفر. وفي الطب النفسي لا تعتبر الضلالات السياسية الدينية مرضًا يحتاج للعلاج النفسي.

إن صناعة الإرهابي الذي يفجر نفسه بحزام ناسف أو سيارة مفخخة تحتاج إلى تدريب وغياب الوعي، وما يقال عنه «غسيل المخ».

وتدل الدراسات النفسية على أن الحرمان الحسي هو أحسن الوسائل للحصول على غسيل المخ للإيمان بفكرة معينة، وقد يكون الحرمان الحسي كاملاً، مثلاً وضعه في الظلام وعدم سماع أي أصوات، والحرمان من الطعام أو الشراب، ولا مانع في غرفة مغلقة تحت الماء حتى ينهار الفرد تمامًا ويصاب بالهلاوس وفقدان الوعي وبعدها يصبح قابلاً للإيحاء، فيُعطى الفكرة الجديدة بعد غسيل الأفكار القديمة، وبعد مدة يبدأ في الاعتقاد في المنظومة الفكرية الجديدة، ونبت ونسيان المنظومة الفكرية القديمة. ويُستعمل ذلك بعد القبض على الجواسيس في أجهزة المخابرات العامة العالمية.

أما في الحالات العادية، فيبدأ القيادي تدريب التابعين على فكر ديني محدد، ويقلل، بل يمنع، أي أفكار أخرى أو منبهات للمخ تؤثر في هذا المعتقد، فتجده أولاً يتبع مبدأ السمع والطاعة، ولا يقرأ أي شيء بعيد عن الدين أو الفقه، ويتعد عن كل المؤثرات الخارجية من صحافة أو تلفزيون إلا التي ستعزز هذه الأفكار، ويصبح هذا الشخص ينظر من أفق واحد نهايته الشهادة في سبيل الله، ويشبه الحصان عندما توضع الغمامة على جانبي العينين حتى لا يرى إلا أمامه.

ونلاحظ في «رابعة» و«النهضة» أن كل المعتصمين كانوا لا يشاهدون إلا القيادات التي تعزز أفكارهم المرضية، ولا يشاهدون إلا الجزيرة والقنوات الدينية، ولا يُسمح بالجرائد، فكانوا مهئين للحرمان الحسي وعرضة فقط للمنبهات التي تعزز فكرهم، فكانوا يرفضون الاستسلام أو المناقشة، وكانهم في نفق لا يؤدي إلا للاستشهاد أو الانتحار.

لا يمكن تغيير الفكر إلا بالفكر، العنف يعزز الفكر الخاطئ. لذا يجب أن يقوم الأزهر بالإشراف على آلاف المساجد التي تغذي هؤلاء بالمنبهات الحسية من خلال خطباء المساجد في القرى، وفي مناخ فيه أمية حوالي ٣٠٪، وفقير ٥٠٪، حيث إن المصدر الوحيد للمعلومات هو خطيب القرية.

الرئيس السيسي طالب الأزهر بعمل ٥٢ خطبة للجمعة، توزع على مساجد القوات المسلحة، لماذا لا نعمم ذلك ليعرفوا التسامح، والفضيلة، والأخلاق، بدلًا من الكراهية والحقد والشماتة والانتقام والوعي الفاسد؟!

إن التجارة بالدين بضاعة رائجة في عصور التخلف الفكري. الإسلام هو الرحمة والتسامح والعمل الصالح. «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق». إن معاملة التيار الإسلامي للآخرين عبارة عن فاشية، يعانون من الضلال الفكري ويحلمون بتأسيس الخلافة الشرعية بدلًا من القانون، وهنا يجب التفرقة بين الانتحاري، والاستشهادي، والفدائي، والإرهابي.

إن هدف الإرهاب: الانتقام، والشهرة، ورد الفعل. ويتكون شخص الإرهابي من: المهمش، والساخط. ويجري تجنيد واستقطاب الشخص المهمش من المجتمع والساخط على الأحوال المحيطة به ليصبح إرهابيًا.

إن الإسلام السياسي والمعاصرة لا يمكن أن يوجد معًا في نفس المكان أو في نفس الزمان. إن العنف والدم ليسا سمات لحركات معينة من الإسلام السياسي، وإنما هما جزء لا يتجزأ من طبيعة ودستور الإسلام السياسي. إن حركات الإسلام السياسي، سواء كانت تتعلق جميعها بإطار تنظيمي واحد أم لا، فجميعهم يشكلون كيانًا واحدًا تحكمه أهداف مشتركة هي: تأسيس الخلافة، وتطبيق الشريعة بدلًا من القانون الحالي، وأخيرًا محاولة ضم كل بقعة من بقاع الأرض إلى الخلافة، وذلك يشبه النظرية الماركسية في التدويل.

الإسلام السياسي مثل شجرة، الإخوان المسلمون والسلفيون ومعهم الوهابيون يمثلون الجذع، في حين أن بقية حركات الإسلام السياسي كتتنظيم القاعدة، والدولة الإسلامية، والنصرة، وبوكو حرام، والمحاكم الإسلامية، والشهاب، وجميع المنظمات الجهادية، يمثلون فروع تلك الشجرة.

بعض الدول الغربية (مثل إدارة باراك أوباما في الولايات المتحدة) تدعم الإخوان المسلمين، وهذا يشكل خيانة عظيمة لجميع مبادئ وقيم الحرية والمعاصرة، وهو أيضًا يسمح لأعداء الحرية والمعاصرة بالقضاء على هذه القيم. هذا الدعم يعود إلى الجهل أو سوء التقدير، وستدفع الحضارة الإنسانية ثمنًا باهظًا إذا لم ندرك أنه لا يوجد أي مبدأ مشترك بين الحداثة والديمقراطية من جهة، والإسلام السياسي من جهة أخرى.

لم تتطور أوروبا إلا عندما أنهت الصراع بين المجتمع المدني والدولة الدينية. فقد كان الهدف الرئيسي لهذه الصراعات (من جانب المجتمع المدني) هو الفصل التام بين الكنيسة والدولة، ولذلك فإن دعم بعض الحكومات الغربية

لبعض حركات الإسلام السياسي (نتيجة خطأ في التفكير بكونها حركات معتدلة) هو خيانة كاملة لمبدأ الفصل بين الكنيسة والدولة، وهو مبدأ لا يعادي الدين إطلاقًا، ولكنه يعتبره مسألة شخصية ينبغي ألا تكون مرجعًا لإدارة المجتمع.

بعض حركات الإسلام السياسي، وخاصة جماعة الإخوان المسلمين، أصبحوا خبراء في فهم المجتمعات الغربية. وهم يعرفون الثغرات التي يمكنهم من خلالها التوغل، بل التحكم وليس مجرد التأثير بها. وبالتالي، فإنهم يستخدمون الديمقراطية للوصول إلى السلطة التي لا يمكن أن تكون بعد ذلك سوى دينية فاشية ومتسمة بالإرهاب. وقد كان المال هو الوسيلة التي نجح الإخوان المسلمون بواسطتها في السيطرة على عدد من أعضاء البرلمانات الغربية لترويج خرافة أن الإخوان المسلمين معتدلون، وأسطورة أن جماعة الإخوان المسلمين قد تخلت عن العنف.

الإرهاب كالزرع، لا يمكنه النمو والتكاثر إلا في أرض خصبة؛ الصراع السياسي والخلاف المذهبي، ويسبقهما التحريض الإعلامي والخطاب السياسي، لا يمكن أن نقبل بحرية مضمونة النتائج دون الاعتماد على بيئة حاضنة ومساعدة لوجستية واستخباراتية وتمويل مادي. الكثير من الدول تتورط في مساعدة المجموعات الإرهابية بشكل أو بآخر، وتحاربها في مكان وتدعمها سرًا في مكان آخر، مع تعاون أجهزة الاستخبارات على مدار الساعة.

المنتحر إنسان مهمش فاشل، لم يجد له دورًا في الدنيا، فضّل أن ينتمي إلى الآخرة، وهذا مفهوم ضلالي يسيطر عليه فكر خاطئ يصل إلى حد الضلال: أنه الفصيل الوحيد المسلم، وأن باقي الشعب كفر، وأن التخلص من باقي المسلمين وقتلهم والتمثيل بهم هو جهاد. وكما قال فيكتور هوجو: «لا تعط الحرية والديمقراطية لجاهل وإلا كأنك أعطيت سلاحًا لمجنون».

فمتى سنعرف أن الدين ليس إحيية ولا مسبحة ولا صرخة ولا عمامة ولا حفظًا لآيات وأحاديث لا نطبقها، ولا خرافات ولا كهنوت ولا مناطقية ولا حزبية ولا عنصرية ولا طائفية؟! ففي الدين الإسلامي، لا فرق بين أبيض ولا أسود إلا بالتقوى، وفيه أن المعاملة بين الناس واجبات وحقوق، تسامح وتراحم، إحسان ورفق ومودة، علم وعمل ومثابرة وجد واجتهاد.

وأخيرًا، بعض المقتطفات من شيوخنا الواسطيين:

● «الإسلام قضية ناجحة، لكن محامياها فاشل».

● «إن كل تدين يجافي العلم ويخاصم الفكر ويرفض عقد صلح شريف مع الحياة، هو تدين فقد كل صلاحيته للبقاء».

● «الإسلام لا يعارض العلم الصحيح ولا الفن النافع ولا الحضارة الخيرة، وإنه دين سهل رحب مرّن».

● «صار المسلمون لا يفهمون من الدين سوى القيام بالطقوس الشكلية».

● وعن الشاعر أحمد فؤاد نجم يقول: «يتحرش باسم الدين، يحرم باسم الدين، يكفر باسم الدين، يحرق باسم الدين، يفعلون كل شيء باسم الدين، ولا يعرفون عن الدين سوى تعدد الزوجات!».

توصيات لمواجهة التطرف والإرهاب

التطرف ثم الإرهاب: استعمال العنف للترويع والخوف والذعر وعدم الاستقرار النفسي، والأساس هو تكوين مسارات عصبية في المخ، ومنظومات معرفية لا تقبل الآخر.

التعريف اللغوي: الغلو، الإسراف، الشطط بعيدًا عن التوسط والاعتدال.

التعريف الاجتماعي: الخروج على المفاهيم والتقاليد والسلوكيات العامة.

التعريف الأمني والسياسي: الخروج على القانون والدستور، وقد يشمل الجماعات المعارضة.

النموذج المثالي: نموذج مثالي نحتكم إليه.

التطرف المعرفي: يلغي وظيفة العقل، وينغلق على فكرة أو أفكار معينة غير قابلة للنقاش أو إعادة النظر.

التطرف الوجداني: شعور حماس طاغ يجعله مندفعًا، وقد يدفعه إلى تدمير نفسه.

التطرف السلوكي: المغالاة في سلوكيات ظاهرة معينة يخرج عن الحدود المقبولة.

أسباب التطرف

• أسباب بيولوجية: استعداد وراثي في سمات الشخصية مثل انطوائي-انبساطي، ويوجد متزن أو غير متزن عاطفيًا، وكذلك المتطرف أمام المحافظ، وفي الوسط الليبرالي.

• أسباب نفسية اجتماعية: القلق، الاكتئاب، الشخصية البارانونيدية، المعادي أو المستهين بالمجتمع، الاضطراب الذهاني.

• أسباب دينية: اتساع الهوة بين القيم السائدة والقيم المعلنة، استقرار المشاعر الدينية الخاطئة من خلال تسفيه القيم والأخلاق والمعتقدات والشعائر بالقول أو الفعل.

• عوامل تحفيزية: معاملة المتطرف بتطرف مضاد، توسع دائرة التجريم.

• الفكر المتطرف التسلطي العنيف هو ضلال نفسي ناتج عن عملية غسل مخ، والضلال هو اعتقاد خاطئ لا يمكن مناقشته بأي منطق، حيث يعتقد الفرد أنه على حق والكل على خطأ، وقد تم تغيير فكر الأطفال بكرهية الآخر وتكفيره حسب التفسير المرضي لاعتقاده من خلال عملية غسل المخ في مدارس الإخوان. المقصود منها أن تصنع إنسانًا لا يتقبل أي أفكار أو آراء خلافًا لما يتم تلقينه له، بحيث يكون الشخص المستهدف مخلصًا ومطمئنًا تمامًا لفكر القادة ومقتنعًا بما يأمرونه به، ويتم ذلك عن طريق ما يُسمى الحرمان الحسي (غسيل المخ)، وهو حجب كل شيء عن الهدف، سواء آراء أو أفكار أو مناقشات، وكذا إبعاده جذريًا عن الحياة وما يدور فيها، حتى لا يستطيع معرفة شيء عن العالم الطبيعي لمدة من الزمن، وأثناء ذلك يتم ملء وزرع دماغه بأفكار تلك الجماعات ورغباتها. المقصود من الحرمان الحسي أن يصل إلى مخ هش، بحيث يسهل السيطرة عليه، وبعد السيطرة على الأشخاص يتم الزج بهم في العنف والقتل، ولكن حال فشل الانتحاري في مهمته يتم استبعاده، ولا يمكن أن يقدموه مرة أخرى، لعلمهم أن هذا الشخص قد يكون له رأي آخر بعد تجربته التي فشلت. الحل هو تغيير الفكر المتطرف مع تعرضه لمنبهات أخرى تملأ مخه وتزيل الدوائر المعرفية المرضية العصبية في المخ.

رؤية متعمقة للمجتمع المصري وأحواله، ومقترحات إصلاحية

• المواطنة (تضم كل العقائد)/ الدين (العلاقة بالله): البابا تواضروس: «وطن بدون كنائس خير من كنائس بدون وطن». البابا شنودة: «نحن لا نعيش في الوطن، ولكن الوطن يعيش فينا».

• سيد قطب في كتابه: «الإسلام ومشكلات الحضارة» و«المستقبل لهذا الدين» (الفصام/ النكد) يفصل الإنسان عن الحياة، ويفصل الدين عن الدنيا، مما صرف الإنسان عن منهج الله كله.

• الإرهابي كوكبي، ويجب أن تكون مواجهته كوكبية.

• حجم الدين في حياتنا كبير، ولكنه للأسف حجم الطقوس والشعائر والعبادات، ولا يمتد ذلك إلى القيم والأخلاق والمبادئ والمثاليات.

• المصريون يتصفون باللامبالاة، ويعشقون الفهلوة، ويتغنون بحب الوطن ولكنهم يقصرون في حقه. نعم إن قوافل الشهداء من أجل مصر تملأ الأجواء عباقًا ونورًا، ولكن السواد الأعظم لا يدرك قيمة مصريته، ولا يدفعه دينه -

مسلمًا أو مسيحيًا - نحو البناء والإعمار والعمل الدؤوب والحرص على الارتقاء
بواحد من أغلى الأوطان وأقدم الكيانات البشرية في التاريخ.

- المصريون متدينون بإفراط، ولكنهم ليسوا مؤمنين بعمق.
- وجود نسبة عالية من المحطات الدينية في التلفزيون، تبدأ من قراءات
سُنّية، إلى صرخات شيعية، إلى تراويل مسيحية، والكل مستغرق في مظاهر
العبادة دون الغوص في جوهرها أو الالتزام بها.
- نأمل تحول هذا التدين المصري إلى عمل منتج من أجل الله والوطن.
- مصر محتاجة إلى جهد كل أبنائها، وهي بحق تبحث عن جهود اقتصادية
وأبحاث علمية وابتكارات يومية بديلًا لمن يتمسحون بالدين ويستخدمون
النصوص المقدسة تبريرًا لأفعالهم وتحقيقًا لأطماعهم.
- إن الإسلام في مصر له مذاق خاص، فقد أحال المصريون منذ العصر
الفاطمي كثيرًا من طقوسه وشعائره إلى مناسبات اجتماعية ومزارات دينية،
حتى إنه قيل ذات يوم إن الشعب المصري سُنّي المذهب شيعي الهوى.
- الدين علم إلهي، والتدين سلوك بشري، والتنوير هو استعمال العقل في
فهم النص.
- يجب تغيير المنظومة المعرفية والتفكير، بدءًا من الأسرة ثم الحضارة
والابتدائي والتعليم قبل الجامعي والتعليم الجامعي.
- الأمل الوحيد هو الثورة المعلوماتية. ويجب تجنيد الشباب التنويري حتى
نستطيع الدخول إلى الثورة المعلوماتية ونصبح إيجابيين وليس متلقين.
- عظمة الأزهر في خطابه الدعوي وليس العلمي، ولذا يجب فصل الكليات
العملية والنظرية غير الدينية ونضعها تحت مظلة المجلس الأعلى للجامعات.
- البيئة الحاضنة: أزمة الهوية، الفقر، أزمة الانتماء، البطالة، الأمية، ضعف
الأحزاب السياسية.
- مشروع قومي لمحاربة الإرهاب: التعليم، الثقافة منذ الصغر.
- بناء الضمير الجمعي والاستعمال الهادف لقصور الثقافة لنشر الثقافة
والفن.

● تحكنا انتماءات كبرى ثلاثة: لمصر، وللعالم العربي، وللدین الإسلامي أو المسيحي، لكن قد يضع البعض الانتماء المصري في المقدمة، وقد يقلل البعض من أهميته إلى حد التشكيك في وجوده. والأمر بالمثل بالنسبة إلى بقية دوائر الانتماء. قضية تدرج الانتماءات تدخل في نطاق الأمور المسكوت عنها، بحيث تبدو تلك الانتماءات كما لو كانت خطوطاً متوازية، فنحن عرب ومصريون ومسلمون أو مسيحيون فضلاً عن أننا شرق أوسطيون وأفارقة، هكذا معاً، وعلى نفس القدر من الأهمية. وقد يبدو ذلك للوهلة الأولى حلاً سعيدياً، ولكنه في الحقيقة ليس بحل على الإطلاق من الناحية العلمية، فضلاً عن أنه على المستوى التطبيقي قد يمثل تهديداً حقيقياً للأمن القومي، حيث يفتح الطريق أمام كل من يريد تزييفاً لتهديدات أمننا القومي بالتغيب أو الاختلاق.

● مواجهة الرصاص للأفكار عبث لا معنى له، والاقتصار على المواجهة المسلحة وترك المنايع الفكرية الدينية الداخلية على حالها يؤدي إلى استمرار صناعة إرهابيين جدد أكثر حنكة وأشد مراساً.

● إن إغلاق طريق المراجعات، أو المبالغة في زيادة التكلفة النفسية والفكرية المطلوبة ممن يقدمون على مراجعة أفعالهم وأفكارهم، لا تؤدي في النهاية إلا إلى مزيد من تمكين جذور الإرهاب.

● السبيل الأمثل لاستعادة الوسطية إلى تديننا هو القبول المخلص بالحق في التدين لمن يريد ما دامت تلك الممارسة لم تتجاوز حدود الفكر والحرية الشخصية، وفي نفس الوقت تقديم نماذج فكرية وعملية تجسد قبول الآخر وتبني مبدأ الحوار بهدف المزيد من التعرف على الفكر المختلف، وليس بهدف تغيير ذلك الفكر.

● إن أحدًا لا تغيب عنه تلك التفرقة الضرورية الواجبة بين «الخطاب الديني» و«العقيدة الدينية»، ومن ثمّ فلا مجال للدعوة لتعديل العقائد، ولا حتى لحوار بين العقائد والأديان، فتعبيرات مثل «الحوار» و«الخطاب» لا تخرج عن كونها أنماطاً من السلوك البشري أو التفاعل بين البشر، ومن ثمّ فإنها قابلة للتعديل والتطوير والتغيير بما يوافق الزمان والمكان والمصالح، دون مساس بالعقائد التي تتصف بالثبات المطلق عند معتنقيها.

● على الدولة المصرية أن تؤكد في ممارساتها اليومية أنها دولة كل المصريين التي تلتزم بالعدل بينهم، فلا تسمح بتمييز طائفي، ولا تخضع لابتزاز ديني من أي طرف، ولا تتهاون في أعمال روح الدستور في الضرب بشدة على يد كل

من يقترب جريمة حتى لو كانت دوافعه دينية خالصة، ولا تتردد في حظر التشكيك في العقائد عبر القنوات الفضائية وفي الصحافة وفي المقررات الدراسية.

• ما الفارق الفاصل بين «الانتحاري» و«الاستشهادي» و«الفدائي» و«الإرهابي»؟ الفارق بين تلك التسميات هو فارق في الأطر العقائدية السياسية الفكرية التي يتبناها صاحب الفعل. وليس من شك في أهمية وجوهية قداسة تلك التفرقة، ولكنها تظل على الرغم من ذلك تفرقة في المرجعيات الفكرية لا تتجاوزها بحال للملاحم النفسية لصاحب الفعل.

• المسلم الحق لا تجرح مشاعره رؤية صليب أو سماع قداس، وما ينبغي أن يهز كيانه فعلاً رؤية قوم يرتكبون المذابح ويرفعون شعارات إسلامية.

مقترحات لمواجهة التطرف والإرهاب

• ينبغي مواجهة التطرف في إطار استراتيجية مجتمعية شاملة تقوم على أساس التنمية والتطوير الشامل المستمر للمجتمع، ولن يكون هذا كله ممكنًا إلا من خلال تعاون أجهزة الدولة ممثلة في وزارات التربية والتعليم، والتعليم العالي، والشباب والرياضة، والثقافة، والأوقاف، ومعها الأزهر والكنيسة وغيرها، معًا.

• أن يقوم المجتمع على أساس العدالة الاجتماعية، ومحاربة حقيقية للفساد، ورغبة حقيقية في القضاء على مشكلة البطالة التي أراها أهم مشكلة تواجه الدولة في هذا الأمر، بالإضافة إلى تطوير التعليم والثقافة وغيرهما.

• أن يقوم الإعلام بدوره المهم في هذا الأمر من خلال محاولته تصحيح صورة الإسلام والمسلمين في العالم، والتي نجح الإعلام الغربي وبعض القنوات العربية وبعض المنظمات الإرهابية التي تدّعي أنها تنتمي للإسلام في جعل الصورة الذهنية النمطية عن الإسلام صورة نمطية تربطه دائمًا بالإرهاب والتطرف.

• إنشاء مواقع إلكترونية، أو عدة صفحات على الفيس بوك، للتجاوز مع ذوي الأفكار المتطرفة، ويتم ذلك بواسطة عدد من علماء الدين وعلماء النفس والاجتماع والسياسة والمفكرين من كافة الاتجاهات، وليكن عنوانها «أسمعك وتسمعني» أو «أفهمك وتفهمني» أو «تعالوا إلى كلمة سواء» أو «الحوار بديلًا للعنف»، أو أي عنوان آخر. ويستحب أن تكون تلك المواقع تحت إشراف وإدارة الأزهر والكنيسة والمثقفين الوسطيين، ويكون لديها من سعة الصدر ما تستطيع به أن تتلقى كافة الأسئلة والاستفسارات المتطرفة وحتى الهجومية، وأن ترد عليها بشكل متحضر، فتكون نموذجًا للتقبل والتسامح على الرغم من شطط الطرف الآخر.

• مواقع إلكترونية، أو صفحة على الفيس بوك، تتجاوز مواقع الإرهاب تحت عنوان «العائدون من محاضن التطرف»، يذكر فيها العائدون من داعش والقاعدة وغيرها قصص انضمامهم ثم تجاربهم، ولماذا وكيف قرروا العودة، ويتبع ذلك تعليقات من المتخصصين في العلوم النفسية والاجتماعية على تلك الحالات، باعتبار أنها دراسة حالة يمكن تحليلها والاستفادة منها في تخطيط جهود الوقاية والعلاج لظاهرة التطرف.

• عدم التعامل مع أصحاب الفكر المتطرف على أنهم مجرمون، فهذا يوسع دوائر التطرف وينقله إلى الإرهاب، فالتطرف يمكن أن يكون مجرد فكر أو معتقد مغالى فيه أو منحرف عن الصواب، يحتاج للمناقشة والتحليل ما لم يمارس العنف، وهذا يعطي فرصة لسحب أعداد كبيرة من المتطرفين بعيدًا عن دوائر العنف والإرهاب.

• ترشيد الخطاب الإعلامي المقروء والمرئي والإنترنت والفيديو بوك المحرض والمستفز والعدواني والذي يستجلب المزيد من الأعداء للسلطة والمجتمع كل يوم، خاصة من الرموز الإعلامية المجروحة والمرفوضة.

• عقد ندوات مفتوحة في النوادي ومراكز الشباب وقصور الثقافة، لمناقشة الأفكار المتطرفة، على أن تضم هذه الندوات عددًا من المتخصصين في العلوم الدينية والنفسية والاجتماعية والسياسية والفكرية والثقافية والأمنية.

• إتاحة الفرصة لعدد من المتخصصين في العلوم النفسية والاجتماعية للقاء مباشر مع عدد من المتورطين في أعمال العنف بناءً على أفكار متطرفة، وذلك للتعرف على الخريطة الذهنية لهم، وكيف اندفعوا في هذا الطريق. وربما يتم عمل دراسات علمية منضبطة عليهم تفيد المجتمع في معرفة عوامل الخطورة لظاهرة التطرف، حيث لا توجد حتى الآن أي دراسات علمية منضبطة للظاهرة، والتعامل معها ينحصر في الدوائر الأمنية فقط.

• عمل مشروع لاستقبال العائدين من التطرف، وتهيئة الفرصة للحوار معهم، وفتح مجالات للدراسة والعمل تحميهم وتحمي غيرهم من الانخراط مرة أخرى في التطرف. وهذا ما قامت به السعودية في الفترة الأخيرة في مشروع «المناصحة»، وأثبتت عليه وقدرته الكثير من المؤسسات الدولية، حيث يحمل توجهًا علاجيًا وليس عقابيًا لأصحاب الفكر المتطرف.

• عمل مناظرات تلفزيونية ومحاورات مع المتطرفين في خارج أو داخل السجون بمشاركة كبار العلماء المعتدلين والمحايدين وذوي القبول من الشباب وغير المحسوبين على السلطة أو المعارضة، وكذلك مسلسلات وأفلام تظهر هذا الفكر الضلالي بطريقة غير مباشرة.

• الإصلاح السياسي والاقتصادي والاجتماعي ومحاربة الفساد وتحسين أحوال الناس، فالتطرف لا ينطلق فقط من قواعد دينية، وإنما ينطلق أيضًا من قواعد نفسية واجتماعية وسياسية تحتاج لوضعها في الاعتبار.

• تعمل المرونة ضد الإغلاق والانغلاق، وتسعى نحو الانفتاح.

منظومة القيم اللازمة لدعم المجتمع في مواجهة التطرف

لعل من أكثر الأشياء المؤججة للتطرف هو ضعف منظومة القيم في المجتمع، ولذلك تشكل منظومة القيم الإيجابية المتماسكة درعًا واقياً ضد تنامي الإرهاب، وتتكون هذه المنظومة من القيم التالية: العلم، العدل، الإنصاف، الانتماء، الهوية، التعددية وقبول الآخر، التدين الصحيح، حرمة النفس البشرية، الذوق والجمال، المواطنة، التعايش، التسامح والعدالة الاجتماعية، احترام الدستور والقانون، الحرية، رعاية الضعفاء، عدم التهميش أو الإقصاء، المشاركة المجتمعية، العمل، احترام حقوق الإنسان، الموضوعية، التنمية، التفاؤل.

خصائص المتطرفين

- التقليدية.
- الخضوع لسلطة الجماعة.
- العدوان التسلطي.
- التفكير الخرافي.
- معارضة التأمل.
- الميل إلى العنف.
- النزعة التدميرية والسخرية.
- الإسقاط والإنكار.
- الشكلية والمظهرية.
- الميل إلى الإغلاق المعرفي في مقابل الانفتاح المعرفي.
- عدوى الغباء والجمود وسرعة انتقالها من مستوى أعلى إلى مستوى أدنى أو بالعكس.
- التفكير الاجتراري التكراري في مقابل التفكير الحوارى الابتكاري.

• التمرکز حول الذات والجماعة بدلاً من التمرکز حول الآخر والوطن والإنسان.

• استخدام العلم والتكنولوجيا (الإنترنت، التلفزيون، الموبايل) لأغراض غريبة.

• الانكفاء على الذات.

• الافتقار إلى ما يُسمى بالتركيب المعرفي التكاملي، أي النظر إلى أي ظاهرة على أنها متعددة الأبعاد تحتوي على الذات والآخر والتاريخ والبشر الذين يختلفون ويأثفون.

• استخدام الدين، الذي ينبغي أن يكون لصالح الإنسان، من أجل التخويف والترهيب والتعذيب والتدمير، أي من أجل غايات عكس مفهوم الدين الصحيح.

• الشعور شبه الفصامي مع قدر من فقدان الوعي قد يتحول إلى ما يشبه المرض الجماعي المنتشر.

• المحاولة الدائمة للعودة إلى الماضي.

سمات المتطرفين

• الاغتيال المعنوي.

• إطلاق التسميات والألقاب.

• إطلاق التعميمات.

• عدم توفير البراهين الكافية للوصول إلى تأكيدات معينة.

• تبني المعايير المزدوجة.

• الميل إلى النظر إلى الخصوم والمنتقدين على أنهم أشرار بطبيعتهم.

• الرؤية الثنائية الضدية للعالم.

• التأييد لوجود درجة معينة من الرقابة أو الكتب للخصوم والمنتقدين.

• الميل إلى تعريف أنفسهم في ضوء تعريف عدوهم لنفسه، من يكرهونه ومن يكرههم.

• الميل إلى الجدل، وطرح القضايا من خلال التخويف والترهيب والتهديد.

• استخدام الشعارات والكلمات الطنانة والعبارات الرنانة والإكليسيهات التي توقف التفكير المنطقي.

• الافتراض الخاص بتفوقهم أخلاقياً.

• التفكير المتعلق بيوم الحساب أو الدينونة، والذي يمكن تسميته «العقل المأزوم» أو العقل الواقع تحت وطأة أزمة وشيكة.

• الاعتقاد بأنه من الجيد أحياناً القيام بأشياء سيئة من أجل قضية عادلة.

• التركيز على الاستجابات الانفعالية، والاتفاق والتركيز على نحو أقل على المنطق والتحليل.

• الحساسية العالية والتنبيه.

• الاستخدام لمنطق ما ورائي من أجل تبرير معتقداتهم وأفعالهم.

• مشكلات التحمل للغموض وفقدان اليقين في هذا العالم بوصفه عالمًا مفعماً بالبشر والأعداء كما يعتقدون، ويستحق أن ندافع من أجله عن قيمنا الزاخرة.

• الميل إلى استخدام ما يُسمى الفكرة أو الرأي الجمعي (التمسك الجمعي).

• الميل إلى شخصنة حالة العداء، غالباً أن يلحق سوء حظ شخصي وكوارث بأعدائهم، وأن هذا من غضب الرب عليه ومن نعمته عليهم (أتذكر هنا كيف ابتهج بعض أعضاء جماعة الإخوان المسلمين في مصر وخارجها وغيرهم على مواقع التواصل الاجتماعي عندما سقطت الطائرة المصرية في البحر الأبيض في ١٩ مايو ٢٠١٦، وعندما سقطت الطائرة الروسية في شرم الشيخ في ٣١ أكتوبر ٢٠١٦).

• الشعور بأن النظام لا يكون جيداً إلا عندما يكسبون هم أو يفوزون.

بعض العلماء يقولون إن التطرف هو انغلاق في الذهن، وُبعد عن الواقع وانفصال عنه، قد يؤدي إلى أمراض مثل الفصام.

والبعض يرون أن التطرف هو مزيج من الشعور بالاضطهاد والتفوق في الوقت نفسه، وهذه من خصائص البارانويا. المتطرف يضع خططاً وبرامج تدميرية وينفذها، فهو يحتاج إلى نوع من الاستفسار والوعي، صحيح أنه عقل شيطاني، لكنه يبعده عن التصنيف الخاص بالفصام، ويجعله أقرب إلى النمط شبه الفصامي، أي الذي يسلك سلوك الفصاميين المتبلدين وجدائياً المنفصلين عن الواقع والحياة، لكنهم لم يقفوا بعد في برائن المرض النفسي.

والبعض يقولون إن التطرف مزيج من السيكوباتية (المرض النفسي المتسم بالتبدل الوجداني وعدم الاستفادة من الخبرات الماضية، وكذلك النزعة العدائية للمجتمع) وكذلك السوسيوباتية (الأمراض الاجتماعية التي يتفاقم خلالها الشعور بالظلم والاضطهاد والإقصاء عن مراكز السلطة والثروة ومصادرهم).

توصيات

● محاولة الاكتشاف المبكر للتطرف الفكري والوجداني، ومحاولة علاجه قبل أن يتحول إلى تطرف سلوكي يوقع صاحبه تحت طائلة القانون.

● دراسة كل حالة توصف بالتطرف على حدة، ويشترك في هذه الدراسة أطباء نفسيون وأخصائون نفسيون واجتماعيون وعلماء دين.

● البعد عن التعميم في التعامل مع المتطرف، ومحاولة حصر ردود الأفعال تجاه من يصدر منه السلوك المتطرف حتى لا تتسع دائرة التطرف والتطرف المضاد مع الوقت.

● التأكيد على أهمية الحوار العلاجي، ذلك الحوار الذي يضع في الاعتبار دوافع التطرف وأسبابه وطرق علاجه، وفي ذات الوقت لا يلغي المسؤولية الجنائية المترتبة على السلوك المتطرف. وهذا الحوار ربما ينجح في قطع الدوائر المغلقة والتغذية المرتجعة للتطرف من خلال اكتشاف خلل معرفي أو وجداني أو سلوكي يمكن تصحيحه أو علاجه قبل وأثناء وبعد توقيع العقوبة.

● تنظيم المجتمعات بالصورة التي تخفض مثيرات التطرف والعنف إلى أدنى مستوى، وذلك من خلال منع الظلم على المستوى الفردي والاجتماعي، وإرساء العدل، ومنع تفشي الفواحش والمنكرات، وإرساء قواعد التكافل الاجتماعي، ومحاربة الفساد، وإعطاء فرص حقيقية للتعددية السياسية

والفكرية التي تمثل كافة التيارات الموجودة في المجتمع دون استبعاد أو وصم أو إلغاء.

• بث الوعي الديني الذي يرتقي بروح الإنسان عن طريق تقوية الإيمان الذي يسمو بالنفس.

• تدريس أدب الخلاف الديني والفكري والسياسي والاجتماعي ضمن المناهج الدراسية.

• المواجهة الشاملة متعددة المستويات وطويلة الأمد على مستوى السلطة والشعب والمجتمع المدني والمؤسسات الدينية والفكرية والثقافية والسياسية، لأن اقتصار المواجهة على المؤسسات الأمنية والطرق العقابية وحدها قد يغذي التطرف ويخلق حالة من الثأر ويوسع دوائر العنف والعنف المضاد، فضلاً عن فقد الأرواح، وانتهاكات حقوق الإنسان، والكلفة السياسية والدولية المرهقة.

• ضبط الخطاب الإعلامي التحريضي والعدائي الذي يزيد من استفزازات المجموعات المتطرفة ويشعل نار العداوة ويوسع دائرة الصراع ويخلق حالة من النبذ والإقصاء والتخوين والعنصرية.

• ضبط أداء المؤسسات الأمنية، بحيث لا تخرج في مواجهتها للإرهاب عن القانون، ولا تنتهك حقوق الإنسان، ولا توسع دائرة العداوات باستهداف أفراد أو مجموعات ليس لهم علاقة مباشرة بممارسة العنف.

• فتح المجال السياسي، وذلك بتنشيط الأحزاب، وإعطاء مساحات جيدة للتعبير عن الرأي والرأي الآخر، حيث هناك قاعدة مهمة تقول: «إذا ماتت السياسة ولد العنف».

• محاربة الفساد، وذلك لمنع الشعور بالإحباط والظلم وانعدام العدالة الاجتماعية.

• التنمية التي تسمح باستيعاب طاقات الشباب في العمل والتعمير والإبداع والتغيير للأفضل.

• ضرورة تعديل الخطط والبرامج الدراسية مع التركيز على الموضوعات المتعلقة بالقيم الإنسانية والتربية عن طريق الفن وتنمية الخيال.

يمكن القول إن ثقافة الإبداع هي الجديرة أكثر من غيرها بمواجهة ثقافة الإرهاب، فبينما يقوم الإبداع بالتركيز على المستقبل تهتم ثقافة الإرهاب بالتركيز على الماضي، كما أنها تعارض التأمل والتفرد والخيال ومرونة التفكير. ويشجع الإبداع على التمرد الإيجابي الفعّال لصالح المجتمع والإنسان بالخيال والتفكير الاحتمالي النسبي الترجيحي، بينما تشجع ثقافة الإرهاب على السمع والطاعة. وتقوم ثقافة الإبداع على أساس المصارحة والمكاشفة والاعتراف بالأخطاء والتصحيح الذاتي، بينما تقوم ثقافة الإرهاب على أساس الإسقاط والإنكار.

حديقة الحيوان البشرية

عن نفسية السجين والسجان

قام عالم سلوك الحيوان ديزموند موريس في كتابه الشهير «حديقة الحيوان البشرية» بشرح سلوك الحيوان في حديقة الحيوان مقارنة بسلوكه في الغابة: عندما تحرمه من الحرية وتضعه في قضبان من الحديد وتأسره في قفص كتسليية للمتريدين على حديقة الحيوان، حينئذ يتغير سلوكه كلياً ليصبح عدوانياً، وعاجزاً، ويائساً، بل يهجم أحياناً على من يطعمه، وهكذا يناقض تماماً سلوكه في الغابة، حيث يتميز بالشجاعة، ولا يهاجم فريسة إلا إذا كان جائعاً، ويتمتع بوجوده في جماعته ويتوحد معها، ومن هنا تظهر جليّة قيمة الحرية عند الحيوان والمأساة المترتبة على أسره في قفص. ثم استطرده بأن هذا يتطابق مع الشعوب التي تعيش في حديقة حيوان بشرية. ويعني بهذا الشعوب التي حُرمت من الحرية والادمية، والتي كُبلت وعُلت أفكارهم، ووُضعت في قوالب متشابهة مع إحساسهم بالظلم وأنهم يسرون في حياتهم كالإنسان الآلي الذي وجب عليه الالتزام بما هو مفروض عليه، وليس له أدنى الحق في المطالبة بحقوقه وإلا اعتُقل لأفكاره ومعتقداته المخالفة لما هو مفروض، فلا يوجد إذن احترام لإنسانيتهم، وعند ممارسة القمع والقهر على أفكارهم يتغير سلوكهم من التسامح ومساعدة الغير والوسطية إلى التطرف والتمركز حول الذات وعدم الانتماء إلى الجماعة والعدوانية، ويصبحون عرضة للإحساس بالعجز واليأس وعدم القدرة على الابتكار أو إتقان أي عمل، ويفقدون الانتماء للقيم أو الأخلاق مقارنة بهؤلاء الذين يتمتعون بالعدل وحرية التعبير عن الرأي والإحساس بالشفافية والمساءلة.

كما أوضح أيضاً ديزموند في كتابه أن الحيوانات تميل إلى العدوانية إذا زاد تكديسها في مكان واحد وفقدت مساحاتها الشاسعة، وإذا قمنا بتطبيق هذا على المجتمعات البشرية التي تعاني من التكدس السكاني في مساحات ضئيلة من الأرض، لوجدنا أنهم يفتقدون الإحساس بالحرية والتمتع بالخصوصية، ويعتبر هذا من العوامل المهمة لظهور العدوانية والأنانية، فيتحول الإنسان الذي وصف بالطيب إلى طاغية وقاسٍ، وقد يحدث ذلك تحت ضغط أخلاق وسلوك الجماعة.

ويذكرني ذلك بالتجربة التي قامت بها جامعة ستانفورد لدراسة ردود أفعال الناس العاديين في وضع كوضع نزلء وحراس السجون، وذلك بتصميم بحث يتضمن وضع مجموعة من المتطوعين في ظروف محاكية لظروف السجون، بعضهم يقوم بدور السجناء، وبعضهم يقوم بدور الحراس، وذلك من أجل خلق

ردود أفعال نفسية متباينة، من نوع: مشاعر القوة والعجز، والسيطرة والاضطهاد، والإشباع والإحباط، والحكم الاستبدادي ومقاومة السلطة. وأثبتت التجربة أن حرمان الفرد وتجريده من كل حقوقه الإنسانية بعزله في زنزانة مغلقة يجعله عرضة للتغير في السلوك مع الشعور بالعجز واليأس والانهيار النفسي. كما أظهرت أيضًا أن السجن أو الحارس حين منح القوة المطلقة، بدأ في إصدار الأوامر وتعذيب السجناء مما جعله يتعلق بالتجربة ويصر على الاستمرار فيها. ومن هنا نستخلص أن من يمارس السلطة المطلقة دون مساءلة أو ردع تتغير شخصيته ويصبح توحده مع هذه السلطة المطلقة بمثابة شهوة قوية تجعله لا يستطيع العودة إلى طبيعته الأولى. ولذا شددت كل دساتير العالم على ضرورة احترام حرية الفرد وتبادل السلطة حتى تنهض الأمم ويشعر مواطنوها بالكرامة والعزة، حيث يوجد الكثير من شعوب العالم مغلوبة على أمرها تعيش مغلولة في سجن كبير يعاني فيه المسجون من ويلات القهر بينما يتمتع فيه السجن بسلطته المطلقة.

ومما سبق نستنبط إذن محورين حيويين: أنه يجب تعميم المعاملة الإنسانية على جميع المساجين أو الشعوب المسجونة فكريًا، والابتعاد الكامل عن منح السلطة المطلقة للأفراد المسؤولين دون رقابة صارمة.

ها هي سلطة تجريبية، وأشخاص خالون من الانحراف النفسي، ومع ذلك نشأت لديهم متعة خبيثة من ممارسة السلطة والتسلط على مقهورين خائعين، أليست هذه صورة صارخة لنفوذ السلطة على النفوس الإنسانية، وفضح آلية تحول الكائن الإنساني إلى وحش أعمى يعربد استمتاعًا بالسلطة والتسلط؟!

وينتهي بنا القول إلى أن القوة والسلطة المطلقة ما هي إلا مفسدة مطلقة، وأنه مهما كان الفرد يتحلى بكل السمات الناضجة في الشخصية، وذا ثبات انفعالي، ويتحلى بمكارم الأخلاق، فالإحساس بالقوة المطلقة وعدم التعرض للمساءلة يؤدي إلى تغير تام في الشخصية واستعذاب إيقاع القمع والقهر وهدر حقوق الآخرين، وأيضًا الاستمتاع بهذا الدور والتعلق الشديد بالمنصب الذي يؤمن له هذه السلطة المطلقة. وإذا طبقنا هذه المقالة على الوضع الراهن في كثير من البلدان العربية، فسنجد أن السلطة المطلقة والإذعان القهري لأفراد الشعب والفجوة المتسعة بين الشعب والسلطة القهرية، أدت إلى حالة من اللامبالاة والتبلد والخنوع والاستسلام، بحيث أصبح المواطن ليس لديه الرغبة في إتقان عمله، وتولدت لديه سلوكيات العبيد، من النفاق والتملق والمداهنة والكذب. ولكي نعود بالشخصية العربية إلى سابق عهدها، وجب علينا محاربة بؤر الفساد، وتحديد السلطة، والابتعاد عن أن تكون

السلطة الممنوحة مطلقة، لكي تعود كرامة المواطن العربي إلى ما كانت عليه من رفعة وعزة.

فلنبداً إذن بنزع القيود الحديدية التي تكبل الآمال والأفكار والقيم والأخلاقيات والأهداف، فمن خلال تجاربي المتعددة والمبنية على احتكاكاتي بجميع طبقات المجتمع من غفير إلى وزير، ومن أستاذ جامعي إلى رئيس عمال، ومن رئيس تحرير إلى رئيس قسم، ثبت لي بما لا يدع مجالاً للشك أن الاستمرار في السلطة المطلقة له تأثير سيئ على شخصية المواطن، ويعوقه عن الاهتمام بالآخرين، والتمركز بالتالي حول الذات، فيصبح الكون يدور في فلكه هو دون الآخرين، فهو الوحيد الذي يعلم ببواطن الأمور، ويعتقد أنه أصبح مبعوث العناية الإلهية! لذا فإن تبادل السلطة والإحساس الدائم بالتعرض للمساءلة هو الحل الوحيد للنهوض بالصحة النفسية لشعوب العالم المقهورة والمقيدة في أغلالها.

إن السلطة والقوة مرضان لهما البريق والسيطرة، بل أحياناً شهوة السلطة تتفوق على مشاعر الأبوة والأمومة، وكم من روايات في التاريخ تخلص فيها الأب أو الابن من الآخر في سبيل شهوة السلطة المطلقة.

لا مانع من السلطة، ولكن يجب أن يسودها العدل والمساءلة!

بناء الإنسان المصري

دعنا نتذكر كلمة الحائز جائزة نوبل ٢٠٠٢ في الاقتصاد والسلوك دانيال كانمان، في أن نهضة أي أمة لا تعتمد على القوة الاقتصادية أو القوة الصناعية أو القوة العسكرية أو الموارد الطبيعية، ولكن على أخلاق المواطن، فالأخلاق لا تورث ولكنها تعتمد على المجتمع والحوكمة العادلة، أي تعتمد الأخلاق على البيئة، فالمجتمع الفاسد يخلق سلوكاً فاسداً وأخلاقاً تتميز بالأنانية، والعجز، والتمركز حول الذات، والمداهنة، والنفاق، والكذب، والتسبب، والوصول من خلال الوساطة والفهلوة وليس من خلال العمل الجاد والإتقان والانضباط.

يتساوى الإنسان والحيوان في المخ القديم أو المخ البدائي والذي يتبع مذهب الإشباع، والأنانية، والشهوانية، والقوة، والسيطرة، بغض النظر عن الآخر. وفي أحد أبحاث داروين حول ما يفرق الإنسان عن الحيوان وجد أن الفارق يكمن في الأخلاق والقيم، وعلى الرغم من ذلك فإن الشمبانزي لديه الرحمة، والتعاطف، والتضحية، وإنكار الذات، ولا يأخذ الطعام من زميله، ولا يقتل من نفس النوع، حتى الفئران يفضلون إنقاذ فأر آخر في مأزق. ولذا ميز الله الإنسان بالمخ الأمامي (الفص الجبهي)، وهو مكان الإرادة والاختيار بين الخير

والشكر، وهو أيضًا مركز الضمير والأخلاق والقيم والشهامة والدين، كما أنه الرقيب على المخ القديم الهمجي والذي له القدرة على إيقاف رغبات الإشباع الفوري. ولكي يعمل هذا الفص الجبهي بالكفاءة المطلوبة يجب أن يقف وراءه القانون والأمن.

من هنا نستطيع أن نقول إن الصحة النفسية هي مرادف للرضا النفسي، وتعني العمل والعطاء بحب وإتقان، والقدرة على الصمود أمام الكروب، والمشاركة في رأس المال الاجتماعي، أي المحبة والثقة بين المواطنين، والعمل بروح الفريق، وتجاوز الذات، أي الانتماء للمجتمع والوطن، فلن ننهض بالاقتصاد، والسياحة، وتماسك المصريين، والتوافق المجتمعي، وكل المشاكل الاجتماعية من تعليم وصحة وطاقات وزراعة، إلا بأخلاق المواطن والضمير الجمعي للمصريين، حيث إن الضمير ينشأ في الطفولة من المنزل ثم المدرسة ثم المجتمع، وحيث إنه بعد الثورة الإلكترونية بدأ الضمير يتأثر بالإعلام وكل مكونات التواصل الاجتماعي مثل: إنترنت، تويتر، فيسبوك، إلخ. وهكذا قامت ٢٥ يناير و٣٠ يونيو!

الأخلاق إذن لها علاقة بتنوير العقل، وخير وسيلة للتنوير هي الثقافة، والفن، وحرية الفكر، والقدرة على الحوار. إن الفن هو مجال لتطهير النفس والالتزام بالفضيلة، ووظيفة الثقافة هي خلق فرد سليم وأمة راشدة. إن محاولة قولبة الإنسان المصري في نمط تفكيري واحد هو تدمير لأخلاق المواطن المصري.

وعلى الرغم من وجود الكثير من السلبيات فإن هناك تغييرًا إيجابيًا قد حدث في نظرة المصري لذاته ولانتمائه لوطنه، ونظرة العالم له، بحيث أصبح المصري يشعر أنه قادر على إحداث تغيير ملموس، قادر على قول «لا» للظلم والقهر والفساد، قادر على النهوض بوطنه وبدء طريق الإصلاح من أجل حياة أفضل، فبدأ يشعر بالفخر والاعتزاز بذاته مما أعاد إليه نظرة الاحترام والتقدير من العالم، التي يستحقها.

لن تنهض مصر إن لم تلتزم بالأخلاق العلمية، والارتفاع بمستوى رأس المال الاجتماعي، ألا وهي الثقة والمحبة بين المواطنين، والتي هي أساس نهضة الأمم، والتي تحتاج إلى إصلاح جذري للوصول إلى التوافق المجتمعي.

وقد سبق أن قال أرسطو إن السعادة هي الالتزام بالفضيلة، وعرف الفضيلة بأنها الوسطية، والرحمة، والعدل، والكرم، والتواضع، والثقة، والصبر، والإنتاج، والحب، والاحترام للذات والآخر، كل تلك أحجار متراكمة للوصول إلى تحقيق

الذات والإنجاز والسعادة في الحياة. ونجد كل الأديان تعتبر أن الأخلاق هي أساس النفس المطمئنة.

وإذا عرفنا ما هي الثقافة العلمية نجد أنها مرادفة للأخلاق الرشيدة، فمكوناتها: مصداقية الذات، وتشمل تحمل المسؤولية والانضباط والإتقان والضمير والإخلاص في العمل. وأيضًا التعاون، ويشمل العمل بروح الفريق في كل عمل، سواء علمي أو اجتماعي أو صناعي أو مؤسسي. والتسامح والحميمية والثقة في الآخر، ونحن في مصر أبطال العمل الأوحده وليس العمل الجماعي، مما يؤثر في المنظومة الأخلاقية. وأخيرًا تجاوز الذات، وهنا يتمركز الفرد على الآخر وعلى المشاكل، وليس على التمرکز الذاتي. إن العطاء للآخر سواء عمل أو بحث أو فرد هو أساس أخلاقي يجلب السعادة وتحض عليه كل الأديان والأعراف، وعلينا الآن تنمية الضمير الجمعي في مصر، وكذلك تنشيط الثقافة العلمية، أي النهوض بالأخلاق. وقد بدأت الإمارات في تطبيق مقياس السعادة للمواطن.

وكما قلنا، إن الأخلاق لا تورث، بل هي نابعة من البيئة، إذن فنحن نحتاج لفهم كيفية نشأة الضمير في الإنسان، فالطفل حتى سن الخامسة أو السادسة ضميره في طاعة الوالدين، حتى عندما يقولون إذا كذبت فستدخل النار فهو لا يعرف الله ولكنه يخشى والديه. فإذا عرفنا هنا أن الأم هي أحسن من يعطي الأخلاق والقدوة، وإذا عرفنا أن نسبة الأمية بين الإناث في مصر تصل إلى حوالي ٣٠٪، وأن ما لا يزيد على ٠.٥٪ قادرين على وضع الأطفال قبل المدرسة في الحضانه، لعرفنا أن محاربة الأمية هي أحد أسس الارتقاء بالناحية الأخلاقية، وبعدها ينمو الضمير في الجو المدرسي. وإذا عرفنا تواضع قدرات وإمكانيات بعض معلمي الابتدائي في مصر، وعدم قدرتهم على أن يكونوا قدوة لهؤلاء الأطفال وهم يعطون الدروس الخصوصية، ويساعدون على الكذب والغش، فهنا يتكون الضمير مملوءًا بالثقوب، وبعدها يتوحد الضمير مع المجتمع الذي إذا كان مملوءًا بالتسيب والفساد والرشوة نستطيع أن نتنبأ بهوية الضمير. ولكن يوجد الكثير من الأفراد الذين وهبهم الله القدرة على الالتزام بضمير يقظ وأخلاق حميدة.

كيف إذن نهض بالأخلاق والصحة النفسية؟ إن الإنسان لديه تميز آخر هو الوعي أو الضمير، وهو أمر لا نعرف أساسه جيدًا، وسوف تكون دراسات الضمير من الدراسات العلمية الأساسية في القرن الجاري، وهي من الأشياء التي تمثل علوًا مهمًا في بعض الجامعات. وهنا أثنى ما قاله العالم الأمريكي جيمس كونانت: «هناك وسيلة واحدة مؤكدة وثابتة لدعم ومساعدة تطوير العلوم، وهي اختيار الموهوبين من الرجال والنساء ودعمهم بقوة، وتركهم

يديرون أنفسهم بأنفسهم دون وصاية خارجية». وتشير هذه القضايا إلى عدة احتياجات أساسية للتنمية، إلى تنمية بشرية تستهدف التخلص من الأمية، وتأمين مشاركة فعالة للمرأة، وتطوير الثقافة الاجتماعية، وإطلاق حرية الفكر، وتقليل حجم البيروقراطية مع رفع كفاءتها، والقضاء على الفساد أو تقليصه، وتطوير نظام من الحوافز والترقيات في إطار لوائح وقوانين متزنة وقابلة للتطبيق، وبناء قاعدة علمية تعمل على الاستثمار في الموهوبين، وإقامة مراكز للتميز، وإيجاد الفرص للحصول على المعلومات عن الأسواق الصناعية والاقتصادية داخليًا وخارجيًا، وتلاحم المعرفة العلمية مع القاعدة الصناعية. ويجب أن يسير كل ذلك جنبًا إلى جنب، وخطة عامة شاملة لتطوير التعليم العام في مدارس الدولة وجامعاتها. ففي الخمسين عامًا القادمة ستحتل المجتمعات القائمة على العلم والمهارة بنصيب الأسد.

إن ترتيب مصر في انتشار التعليم بين ٢٤ دولة عربية هو رقم ١٧! حيث تصل نسبة التعليم في مصر إلى ٧٣.٩٪، بينما فلسطين (قطاع غزة) ٩٦.٤٪، وقطر ٩٦.٣٪، وفلسطين الضفة ٩٥.٦٪، ثم البحرين، والكويت، والأردن، ولبنان، وتونس، والسعودية، وليبيا، وعمان، بين ٨٥٪-٩٠٪. وحيث إن الضمير والأخلاق يتشكلان بطريقة مختلفة في الطفل عندما يكون الأبوان على قدر من التعليم عنه في الأمية، خاصة أن نسبة الأمية حوالي الضعف في الإناث، وأن التسرب من التعليم بين ٢٠٪-٣٠٪، فهذا مما يجعل محو الأمية في مصر التي تشكل أكبر تعداد في كل البلاد العربية ضرورة. وتلخص اليونسكو تقريرها بأن سوريا، وعمان، ومصر، وتونس، في طريقهم للتخلص من الأمية، ولذا يجب الالتزام بعمل ثوري للقضاء على الأمية، مثلًا من لم يصبه التجنيد يدرّب لمدة شهور ويجند إجباريًا للتدريس في محو الأمية، أو لا يُعطى خريج الشهادة الجامعية شهادة التخرج إلا بعد خدمة اجتماعية كمحو الأمية لمدة ٦-١٢ شهرًا.

نبدأ في توعية الضمير، وتنمية الأخلاق منذ الطفولة، من خلال برامج تلفزيونية موجهة لفئة الأمهات الأميات اللاتي لا تسمح ظروفهن المادية لدخول أطفالهن إلى أي حضنة، حيث إن نمو الضمير يبدأ في سن ما قبل المدرسة، وروح الفريق تبدأ في المدرسة، أي يتعلم كيف تكون روح الجماعة والتضحية للخير، ومحاولة بث روح الكشافة والأشبال (التي كانت موجودة في كل مدارس مصر)، ومحاولة إعطاء الوقت الكافي في المدارس التي أصبحت كتلاً أسمنتية في استعمال الساحات الشعبية وقصور الثقافة في العمل الجماعي.

في اليابان من الصف الأول وحتى الصف السادس الابتدائي يدرسون «طريق إلى الأخلاق»، ولا يوجد رسوب، فالهدف هو التربية والمفاهيم الاجتماعية، ولا

يوجد حفظ، وهذا مهم لنشأة الضمير والأخلاق، حيث إن الكثيرين يجدون القدوة فيما يشاهدونه في الإعلام أكثر من دور الأسرة والمدرسة.

لذا، يجب العناية بالمدرسة، ويجب أن يتساوى معلم الابتدائي بمعلم الإعدادي والثانوي حتى يكون قدوة حسنة، فالمعلم كقدوة له تأثير في المنظومة المعرفية والأخلاق التي تستمر مدى الحياة. أيضًا يجب عدم الاعتماد على الكتب المدرسية والتلقين، ولكن على الفكر النقدي والمعلومات الإلكترونية، وأن تكون القصص في المنهج تعبر عن القدرات الأخلاقية والوطنية، والتضحيات والانتماء للوطن، مع محاولة مسرحية وإذاعة القصص سواء في الابتدائي أو الإعدادي أو الثانوي، مع ضرورة الاهتمام بالرياضة لتحفيز الإحساس بالانتماء، وكذلك التدريب على ثقافة روح الفريق.

دخول الجامعة لحوالي ٢٠٪ من الناجحين في الثانوية العامة المجانية فقط للأكفاء، ونصف المصاريف للرسوب عام، وكل المصاريف للرسوب عامين، أو الاتجاه للتعليم المهني. يجب ألا تكون قيادات الجامعة بالانتخاب أو التعيين، ولكن بالاختيار حسب الكفاءة وسمات القيادة، حيث إنها تشكل الضمير الاجتماعي في شباب مصر. كما يجب إلغاء الكتاب الجامعي والاعتماد على المعلومات من المراجع الإلكترونية. مع الاهتمام بقدوة وكاريزما الأستاذ، لأن الطالب يمتص أخلاقيات هيئة التدريس في هذه المرحلة المهمة في حياته. وأيضًا الاهتمام بعقد العديد من الندوات الثقافية والعلمية والسياسية والوطنية.

وكما سبق الذكر فإن حوالي ٨٠٪ من طلبة الثانوية العامة يجب دخولهم إلى المعاهد الفنية، حيث يجب غرس الانتماء في هذه المهن، وإعادة تدريبهم، ولا مانع من التجنيد الإجباري والتدريب بواسطة الجيش الذي يؤهل الآلاف أثناء التجنيد، ولا مانع من الدراسات العليا والماجستير في المهن الحرفية للعمال! حيث إن المصريين يعشقون الشهادات.

إن التعليم والبحث العلمي والابتكار هو الأمل، لذا يجب على الحكومات أن تقوم برفع مستوى المهارات باستمرار، ورعاية الابتكار فيما بين العاملين بها عبر القطاعات الرئيسية للاقتصاد، وعلى أسس نظام التعليم. الحكومات التي تفشل في إعداد قادة من بين الأجيال الجديدة في الوقت المناسب تحكم عليهم أن يُقادوا من الآخرين، بواسطة دول أكثر ابتكارًا.

وجدت دراسة قامت بها وزارة العمل الأمريكية أن ٦٥٪ من أطفال المدارس الابتدائية الحاليين سوف ينمون ليصلوا إلى العمل في وظائف لا وجود لها اليوم. ووجدت دراسة أخرى أجريت في جامعة أكسفورد أن ٤٧٪ من فئات

الوظائف في خطر عالٍ من الاختفاء من الوجود، لأنها يمكن أن تتم بشكل آلي من خلال التكنولوجيا. كيف نعد إبن أطفالنا والأجيال القادمة لمثل هذه الأوقات؟

لقد أصبح دور الثورة الإلكترونية الآن أقوى من الأسرة والمدرسة، ولذا يجب على الأسرة مراقبة وتحديد المدة للطفل والمراهق التي يشاهد فيها التلفاز أو الاندماج في الإنترنت (حدد بيل جيتس أغنى رجل في العالم وصاحب ميكروسوفت لأولاده ألا يزيد استعمالهم للإنترنت على ساعتين في اليوم).

وللعولمة مضارها وفوائدها، ومن مضارها أننا أصبحنا نرى العنف والقتل والدمار والاعتصاب والمخدرات طوال الوقت، مما يجعل الفرد يعاني من البلادة في الإحساس، ويمكنه القيام بذلك دون ندم أو وخز في الضمير، ولكن أيضًا من فوائدها توفير الوقت، والاطلاع على كل ما هو حديث. لذا علينا الأخذ بالفوائد والحد من المضار.

الاهتمام بتغيير الخطاب الديني أسوة برسولنا الكريم الذي قال: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق». ومن هنا وجب تغيير الخطاب الديني إلى الخطاب الوسطي التسامحي من خلال الفهم الصحيح لدور الدين في الحياة: يوجد فرق بين الإيمان بالظاهر التقليدي والإيمان العميق الفكري، بين الإيمان المستبد الفطري ونور الإيمان. إن الرحمة والحب سر الخلق، فلا تربُّ أولادك على الخوف من الذنوب بقدر ما تربهم على الإحساس بالمحسوب. الدين يحث على أن تبذل جهدك وتعمل وتنتج وتفكر وتبدع، ولا توجد قاعدة شرعية إلا وخلفها قيمة أخلاقية. العمل والإنتاج والقيم والأخلاق على رأس قضايا الإسلام. السهولة واليسر اختيار الإسلام. ملاحظة أن تحويل كل نص ظني إلى قطعي يجعل كل الدين حرامًا، ويصيب الحياة بالعقم والفسل. إن الأولوية في الدين للأخلاق، وقوام الدين هو الأخلاق، «دينًا قيمًا».

وقد قامت جامعة جورج واشنطن بدراسة واستبيان عن أكثر الدول تطبيقًا للدين الإسلامي في العالم، وعند الانتهاء من الدراسة تبين الآتي: حصلت على المرتبة الأولى نيوزيلندا، والمرتبة الثانية لكسمبورغ، والمرتبة الثالثة أيرلندا، وأيضًا كانت اليابان في المراكز المتقدمة، وجاءت الكويت في المرتبة ٤٨ عالميًا والثانية على المسلمين والأولى عربيًا، وماليزيا في المركز ٣٨ عالميًا والأولى على المسلمين. وكان القياس من خلال انعكاس القيم الدينية على سلوك الناس ومعاملاتهم. أما بالنسبة للعبادة فهذا شيء بين العبد وربّه، ولا يستطيع قياسه إلا الله سبحانه وتعالى.

ويكون التغيير في الخطاب الديني بالاهتمام بالجواهر بدلًا من الطقوس، فالجواهر هو العدل، والحب، والرحمة، والوسطية، وتجاوز الذات، والعطاء، والصدق، إلخ (المصريون أكثر شعوب العالم في الحج والعمرة، والشعب المصري هو الأوحى بين مسلمي العالم الذي يتحلى بالزبينة وهي حساسية في الجلد!). وللأسف، الطقوس تتغلب على المعاملة، وللأسف تساهل الأزهر في زحف التيار الديني المتطرف على كل مؤسساته مما أفقده الوسطية، لذا يجب تغيير الخطاب الديني، وهو أملنا الوحيد في التسامح والتوافق المجتمعي.

ترسم منظمة الصحة العالمية منظومة أن الفقر والبطالة والامية تؤدي إلى العنف والإدمان والتدهور الخلقي وتآكل في الصحة النفسية للمواطن، وأعتقد أن كل الاستراتيجيات في الدولة حاليًا لمحاربة الفقر والبطالة في مصر والتي وصلت معدلاتها إلى نسبة تشكل خطورة على الأخلاق.

تعد صحة المواطن من أهم وأخطر مسؤوليات الدولة، لذا أولها الدستور أهمية خاصة، وقرر لها اعتمادات مالية محددة. وتعتبر مؤشرات الصحة من أهم مؤشرات تقدم ونمو الدول بصفة عامة. لذا وجب الاهتمام بتنظيم محور استراتيجي لوضع السياسات الصحية طويلة الأجل التي لا تتأثر بتغيير الجهات التنفيذية والتي يجب أن تشمل على الوقاية: من خلال برامج التوعية بالصحة، وصناعة وتوزيع الأمصال، وتنفيذ برامج القضاء على الأمراض المتوطنة والأوبئة. وأيضًا على الصحة الأولية وطب الأسرة: وذلك بامتلاك وإدارة وتمويل الوحدات الصحية بالقرى والمراكز وعيادات طب الأسرة وتشمل الأمومة والطفولة والعلاج الأولي لمختلف الأمراض على مستوى العيادات الخارجية. والتسجيل الصحي: ويشمل التعرف على المؤشرات الصحية، ونشر التقارير الدورية عنها، وإعداد الخرائط الصحية عن الأمراض والخدمات والقوى البشرية، وإنشاء قاعدة بيانات رقمية للمواطنين. وأيضًا الرقابة الصحية على كافة المنشآت الطبية بغض النظر عن انتمائها الإداري، ويشمل ذلك: التزام المؤسسات الصحية بالقواعد الإدارية المنظمة لعملها، وتشمل التسجيل والإحصاءات الطبية، وتطبيق أساليب مكافحة العدوى، والالتزام بالمعايير العالمية للتشخيص والعلاج، ويجوز لها إصدار معايير مصرية تلائم البيئة المحلية، بناء على توصيات المجلس الطبي المصري للتدريب والتأهيل. وأخيرًا تنظيم ورعاية الطوارئ والإسعاف بصورة جيدة في كافة المنشآت الطبية، وهذا ما يحدث الآن بالهيئة القومية للتأمين الصحي.

يبلغ مستوى الازدحام في القاهرة حوالي ٥٢ ألفًا في كل كيلومتر مربع، وهو من أكبر المعدلات في العالم خاصة بعد نزوح المواطنين من الصعيد أو

الأرياف. وتوجد علاقة ثابتة في الأبحاث المختلفة بين معدل تدهور الأخلاق والازدحام، فالمساحة التي يعيش فيها الفرد تؤثر على الصحة النفسية. وحسب الجهاز المركزي للإحصاء فإن أكثر من ٣٠٪ من السكان يعيشون أكثر من خمسة أفراد في حجرة واحدة. ونستطيع أن نتنبأ بقيمة ذلك في أخلاق المواطن.

إن التلوث السمعي والبصري والشمي له تأثيره على سمات الشخصية، خاصة العنف وتدهور أخلاق الفرد، فكلما انخفضت قيمة التذوق الجمالي كان تأثير ذلك على إدراك الإنسان وإبداعه وابتكاراته تأثيرًا سيئًا يعوقه، فنحن نتكلم بصوت عالٍ حيث يعتقد من لا يعرف اللغة العربية أننا نتشاجر، كذلك ثبت أن انبعاث الكربون والرصاص من عادم ازدحام المرور والصناعات له تأثيره على الناحية المعرفية للأطفال، وعدم القدرة على النشاط الذهني والإبداعي في الكبار، وأخيرًا التلوث الشمي من الروائح الكريهة أو القمامة إلخ، والتي تؤثر على الإنتاج والأخلاق.

إن اللغة هي التعبير الراقي لنشاط المخ، وهي في حالة فوضى في مصر، وكلما تعددت اللهجات أثر ذلك على المنظومة المعرفية المخية والمزاج العام. فلا أعتقد أن أي شعب يتواصل مع بعضه بكل هذه اللهجات الموجودة في مصر، فعندنا لغة القرآن، ولغة المنزل، ولغة المدرسة، ولغة الشارع، وأخيرًا لغة الشباب الحالي، ولا يمكن أن تتكون منظومة أخلاقية مع هبوط التعبير اللغوي والسوقية الموجودة في أجهزة الإعلام والتي تهبط بالمستوى الخلقي والمعرفي والصحة النفسية. إن المنظومة الفكرية للفرد تعتمد على وحدة اللغة، وليس على تفككها، ويجب الحث على استعمال لغة تنهض بالأخلاق بدلًا من الألفاظ الهابطة.

الإعلام له الدور الأساسي في الارتفاع بالأخلاق، وللأسف فقد انفلت زمامه، وغابت ثوابته، فقد أصبح لا يفرق بين الظواهر والمواقف والأشياء. إنه يتحدث عن الحريات ويمارس كل ألوان التسلط، ولا يفرق بين صراع الأفكار وصراع المصالح، وكذلك لا يعبا كثيرًا بقضايا الأخلاق والشفافية!

يعتمد الضمير والأخلاق الآن، ليس فقط على الأسرة والمدرسة والمجتمع، ولكن على الثورة الإلكترونية والإعلام العالمي، وحيث إن ظاهرة الأفلام والمسلسلات والصحافة في العنف والقتل والاعتصاب والجرائم هي الغالبة (يشاهد الطفل الأمريكي والأوروبي ما لا يقل عن مائة ألف مشهد للعنف والقتل والدم) فهذا له أثره البالغ على تبلد المشاعر وبلادة الإحساس، والقيام بهذه الجرائم دون أي تأنيب للضمير أو ندم. وبالطبع، الطفل المصري أمام

التلفزيون معظم الوقت، ولنا أن نعرف تأثير ذلك على الأخلاق والعنف، ونحن نعرف أن الابتسامه والسعادة والاكتئاب لها عدوى، وكذلك مشاهدة الدم.

يعتمد تاريخ وأخلاق الشعوب على الثقافة والفن، والنهوض بالثقافة والفن له القوة في تطهير النفس والارتفاع بالأخلاقيات، فلولا الفن في مصر الفرعونية وفي الحضارة الصينية والعراقية واليونانية والأوروبية لما عرفنا التاريخ، ومن هنا كانت أهمية النهوض بثقافة المواطن المصري وتذوقه للفن، وذلك من خلال العناية وتشجيع الثقافة الجماهيرية والتي يوجد لها قصور في كل أنحاء مصر، والتي كان تفعيلها ضعيفاً في الفترة السابقة بعد أن كانت في الستينيات في حالة نشاط وإبداع مستمر. إن الكتاب، والمسرح، والموسيقى، والأدب، لها تأثير في خلق الإبداع والابتكار وتنشيط الدوائر العصبية المخية التي تنهض بالعلم والبحث العلمي، وهي أسس النهضة في الأمم. لذا يجب الحث على بث برامج خاصة لزيادة التركيز على أخلاق المواطن، وإعادة هذه التجربة بالنسبة للأخلاق مع عدد من المهتمين بالصحة النفسية والتوافق المجتمعي طوال العام، كما نهيب بالمسؤولين عن الإعلام والسينما والمسلسلات أن يتجهوا بالمسلسلات في التلفزيون إلى الحث على الفضيلة والأخلاقيات من رحمة، وتسامح، وشهامة، وبطولة، وعدل. وهكذا تتكون الأخلاق، وذلك أسوة بأفلام ومسلسلات الماضي.

إن إهمال الواقع المادي المنطقي، والانغماس في القرارات الانفعالية الحماسية، لهو دليل على عدم النضوج العاطفي والشخصية الاتكالية. ولا تقتصر هذه السمة على فئة دون أخرى، فهي السائدة من الأمير إلى الغفير، ومن الجاهل إلى المتعلم، ومن الفقير إلى الغني، بحيث تصبح الأمة كلها فيما تتخذه من قرارات وما تقيمه من مشروعات قابلة للتأرجح حسب المزاج والانفعال وليس بناء على خطة مدروسة، طويلة المدى.

يمكن تلخيص كل ما سبق للوصول إلى مستقبل أفضل في ست نقاط رئيسية كما أفردها الدكتور إبراهيم شحاتة (نائب رئيس البنك الدولي السابق):

• حتمية التغيير الدستوري، وقيام دولة مدنية تضمن حقوق المواطنة والحريات والتعددية وتداول السلطة.

• سيادة أحكام القانون والمساواة الكاملة أمامه دون تمييز.

• إقامة دولة العدالة الاجتماعية التي تعمل على تحجيم التفاوت الطبقي، وتضمن حقوق المواطنين في مجالات التعليم والصحة والتأمين ضد البطالة، وتوفير المعاش الإنساني عند السن القانونية.

• التعليم له الأولوية الأولى كمشروع قومي.

• تغيير الخطاب السياسي الاسترضائي (الشعبي) والخطاب الديني المغلق.

• الغذاء والماء، وحتمية التوسع الأفقي في الزراعة، وطرح الحلول العلمية لمجابهة مشكلة الفقر المائي المتوقع.

وأخيرًا، لم يعد من الممكن إصلاح هذه الأوضاع السلبية بالوعظ والإرشاد، وإنما بتفعيل بعض القواعد والمعايير كالقدوة الحسنة، خاصة من كبار المسؤولين والشخصيات العامة. والصرامة في تطبيق القوانين، ومساءلة ومحاسبة ومعاينة الخارجين عليها دون تمييز أو ضغوط بحكم المناصب أو القدرة أو الأوضاع الاجتماعية. والإصلاح القضائي الذي يستهدف تحقيق الكفاءة والنزاهة لهذا الجهاز المهم مع ضمان الاستقلال الكامل له لاستعادة ثقة الناس في السلطة القضائية. وسرعة البت في القضايا (العدل البطيء هو الظلم بعينه)، وتفعيل تنفيذ الأحكام وتحويلها من حالة السكون إلى الحركة، والتأكيد على تنفيذ أحكام السلطة القضائية سواء من الهيئة التشريعية أو التنفيذية. وأيضًا الاهتمام بصحة المواطن، وحصوله على العلاج بسهولة، وبأسعار في متناول يديه.

إن الحياة تبدأ وتنتهي والقوى العظمى تعلو وتهبط، لكن الأمم عبر التاريخ هي التي تصنع المستقبل، إما مستقبلًا مضيئًا أو مستقبلًا مظلمًا. الأمر يتطلب القيادة الحكيمة التي تملك البصيرة، وحرية الفرد، والإيمان، مع عدم الاستخدام الخاطئ للدين، والشعوب تقرر إما مستقبلًا فيه المحمول والنيولوك أهم الأساسيات، أو مستقبلًا يكون فيه الرخاء الاقتصادي والفكري والبحث عن المعرفة هي الأساسيات.

والحمد لله أن مصر بدأت في اتخاذ كل الخطوات المطلوبة للوصول إلى بناء الإنسان المصري الجديد من خلال تطبيق استراتيجية التنمية المستدامة مصر ٢٠٣٠.

كيف تذاكر وتذكر؟

تستطيع أن تذاكر وتذكر، هذا ممكن دون أن يكون للحظ دوره، ودون أن تكون في حاجة إلى أشياء غير عادية تعطيك القدرة لتذاكر وتتجح، فالمذاكرة في حقيقتها عبارة عن عملية فسيولوجية، ومع اقتراب موعد الامتحان فقد بدأت الأسئلة تتكرر والشكوى ترتفع من صعوبة التركيز، والنسيان السريع،

وعدم القدرة على المثابرة في العمل، والإحساس بالضييق عند الجلوس للاستذكار.

هناك الطالب الذي يبدأ في المذاكرة ليشعر بعد ذلك مباشرة بالصداع أو ألم الظهر أو الأرق، بل فقدان الشهية للأكل، والواقع أن هذه الأعراض وغيرها قد تكون ناشئة عن قلق نفسي. هذا القلق يزيد قبل الامتحان، خصوصًا إذا تبين للطالب أن الوقت الباقي على الامتحان لا يسمح له باستيعاب هذه الكمية الهائلة من المقررات، وهكذا يكون المطلوب أكبر بكثير من القدرة الحقيقية للطالب على الاستذكار.

الآن ونحن على أبواب امتحان الحصول على الشهادات العامة وامتحانات الجامعة، يبدأ موسم المتاعب النفسية، والنتيجة صعوبة التركيز والنسيان، مما يضاعف القلق، الذي يؤثر بدوره على قدرة التذكر والمذاكرة، وهكذا يمر الطالب في حلقة مفرغة تؤدي إلى حالة يمكن أن نسميها «شللًا دراسيًا»، وحتى لا يحدث ذلك يجب أن نعرف أولًا كيف نذاكر، ونتذكر.

كيف تذاكر؟

الواقع أن عملية المذاكرة تمر بثلاث مراحل: المرحلة الأولى هي التعلُّم، والمرحلة الثانية هي الاحتفاظ بما تعلمناه، والمرحلة الثالثة هي مرحلة استدعاء المادة التي احتفظنا بها عند اللزوم، أي عند الامتحان. وهذا هو التذكر.

وتحتاج كل مرحلة من هذه المراحل إلى إتقان المرحلة التي تسبقها، فلا يمكن للطالب أن يحتفظ في مخه بالمعلومات إن لم تكن طريقة تعلمه سليمة، وكذلك لا يمكن أن يستدعي ويتذكر ما قرأه إلا إذا أجاد المرحلتين السابقتين من تعلم واختزان. وقد لوحظ من التجارب العملية أن هؤلاء الطلاب الذين يشكون من ضعف ذاكرتهم، أو سرعة نسيانهم لما أتموا قراءته، أو عدم قدرتهم على التركيز، يأتون إلى الطبيب ويسألون عن الدواء الذي يساعدهم على التذكر. وعند البحث عن الطريقة التي يستذكرون بها نجد أن الدواء المفيد الحقيقي هو البحث عن الطريقة الصحيحة للاستذكار المبنية على عملية التعلُّم، وعلى هذا الأساس يجب توجيه كل الانتباه إلى علاج وتحسين طريقة التعلُّم، لأنها بالتالي تؤثر في العمليتين الأخيرتين. وإذا حاولنا أن نتكلم عن هذه العمليات الثلاث فإننا نستطيع أن نلم بأحسن الطرق للتذكر.

درجة الانتباه أثناء الاستذكار

والواقع أن درجة الانتباه أثناء الاستذكار تلعب الدور الرئيسي في التعلم. والكثير من الطلاب يعانون من صعوبة في الانتباه، وتشتت في الأفكار عند البدء في المذاكرة. فلماذا يحدث ذلك؟

هناك أولاً الأسباب الجسمية، فالإرهاق، والأرق، وصعوبة الاسترخاء، وعدم الانتظام في تناول وجبات الطعام، وقلة تناول الفيتامينات، والاضطراب في الغدد الصماء، كل هذه الأسباب تقلل من حيوية الفرد وتضعف من مقاومته، مما يؤدي إلى تشتت أفكاره.

أما الأسباب النفسية فإنها تتلخص في كثرة أحلام اليقظة والسرمان في الصورة التي سيكون عليها المستقبل، والمتاعب الحالية والماضية، والوساوس التي تسيطر على الفكر لأي سبب من الأسباب، وهنا يستطيع الطبيب مساعدة الطالب على التخلص من هذه الأحلام والوساوس.

وهناك أيضاً الأسباب العقلية، مثل مرض الاكتئاب أو الفصام، وهي حالات مرضية تحتاج إلى علاج.

أما المشاكل العائلية المستمرة، والصعوبات المنزلية، والنزاع الدائم بين أفراد الأسرة، فإنها أسباب اجتماعية يجب حسمها حتى لا تؤثر في قدرة الطالب.

كما يجب أن نضع في الاعتبار مجموعة من العوامل الخارجية، مثل: قلة الضوء، والضجيج المستمر، وشدة الحرارة أو البرودة، وقلة التهوية، إلخ.

التعلم بالصم خطأ كبير

أخطر طريقة للتعلم هي التعلم بالمحتوى، والتسميع الذاتي، حيث إنه من أخطر الأشياء محاولة تعلم المادة بحفظها صمًا، كلمة كلمة، لأن نسيانها سيكون سريعًا، وتذكرها مرة أخرى سيكون صعبًا. ولكن هناك هذه الطريقة التي تجعل النسيان مستحيلًا: أن يقرأ الطالب الدرس ويفهمه ثم يلخصه بلغته الخاصة، إما غيبياً، أو كتابة وهي أفضل، ثم يسمعه لنفسه ذاتياً، ثم الإعادة من الملخص الخاص، هذه الطريقة تجعل عملية النسيان منعقدة.

ويجب أن يعرف الطالب أن القراءة دون التسميع الذاتي أو الكتابة من أهم أسباب فشله في دراسته. ودائمًا تسمع هذه الشكوى: الطالب يذاكر ساعات طويلة ثم يرسب! والسبب أنه يقرأ دون تسميع ذاتي.

عدم وجود جدول خطأ

من المألوف أن يبدأ الطالب يومه بالجلوس إلى مكتبه، ثم يختار أحد الكتب فلا يعجبه، فيبدأ في كتاب آخر يقرأ منه صفتين ثم يتركه، ثم يتململ ويمسك بكتاب ثالث، وينتهي اليوم دون الحصول على نتيجة طيبة. والسبب في كل ذلك هو عدم عمل جدول زمني لما ستتم مذاكرته يوميًا أو أسبوعيًا. وهناك من يرفض النصيحة بعمل جدول، فالطالب يقول إنني لا أستطيع أن أتقيد بجدول ولا أنجح في إتمامه. والواقع أن هذا هو سبب فشله، إما لأن إرادته ضعيفة وأنه يريد أن يترك كل شيء للظروف، وإما لأنه يضع جدولًا مزدحمًا بشكل غير عملي وغير واقعي.

إن وضع جدول للعمل، وتنفيذ هذا الجدول، يشعر الطالب بالرضاء عن نفسه، مما يساعده على أن يبدأ اليوم الجديد بأمل وتفاؤل. إن رضاء الطالب عن نفسه، وتجدد هذا الرضاء كل يوم، يقوي ثقة الطالب بنفسه ويعينه على النجاح.

مذاكرة علم واحد لمدة طويلة خطأ

ويجب على الطالب ألا يذاكر علمًا واحدًا لمدة طويلة ثم إعادة مذاكرته أملًا منه أن ينتهي من هذا العلم، فهذه الطريقة تساعده على النسيان، فكثير من الطلاب يتركون بعض العلوم للشهر السابق للامتحان أملًا منهم في أن التركيز على هذا العلم لمدة أسبوعين أو ثلاثة سيجعلهم قادرين على إتقانه. ولكن الواقع أن العكس هو الصحيح، فلو أن الطالب ذاكر جزءًا من العلم ثم تركه مدة، ثم أعاده ثانيًا، فإن ذلك يساعده على عملية التذكر.

تنوع المواد ضروري

لا يجوز أن نستذكر في وقت واحد مواد متشابهة حتى لا تتداخل المعلومات بعضها مع بعض، مما يؤدي إلى صعوبة التذكر. فمثلًا، من الضروري أن يأخذ الطالب فترة راحة قصيرة متكررة أثناء المذاكرة، فليس من الحكمة أن يستذكر ثلاث ساعات ثم يستريح ساعة، بل الأفضل أن يستذكر لمدة ساعة ويستريح ثلاث دقائق.

وللاحتفاظ بما تعلمناه يحتاج الفرد إلى فترة معينة من الوقت تتم فيها عمليات كيميائية في بعض المواد البروتينية في المخ، والمعروف أن الأحداث القديمة تأخذ وقتها في التدعيم، وبالتالي يسهل تذكرها، أما الأحداث القريبة فلم تتح لها فرصة التدعيم الكافي، ولذلك فإنها تكون عرضة للنسيان أكثر من غيرها.

أما العملية الأخيرة في التذكر فهي عملية استدعاء المعلومات، وأهم ما يؤثر في هذه العملية هو الترابط. ويمكن أن نذكر في هذا المجال ما يحدث عندما نذكر الطالب بكلمة أو جملة، فيسارع على الفور بذكر التفاصيل الكاملة لأن عملية الترابط تساعده.

أما الأدوية التي يستعملها بعض الطلاب للاستذكار، وهي الأدوية المنبهة التي تعطي الطالب القدرة على السهر، فإن لها عيوبها، وهي أنها تجعل الطالب في حالة إرهاق تام، بل ربما تعرضه للانهيار في بعض الأحيان.

وأخيرًا أوجه هذه الملاحظة إلى الأهل: إن التعليم يحتاج إلى قدرة ذكائية خاصة، وقد شاهدت الكثير من الآباء وهم يضغطون على أولادهم للاستذكار، ولو أدى الأمر إلى الاستعانة بالمدرس الخصوصي، وهم غالبًا ما يتجهون إلى إهانة الأبناء عند الفشل. وقد فحصت بعض هؤلاء الطلاب، ووجدت أنهم محدودو الذكاء، وأن ذكاءهم لن يسمح لهم إطلاقًا بالنجاح في هذه السنة الدراسية، ومثل هؤلاء يصبحون فريسة اضطهاد الوالدين دون أن يقتربوا أي ذنب.

أمراض الثانوية العامة

اطمئن، تستطيع أن تبدأ اليوم وتنجح! فقط مطلوب منك أن تعرف كيف تذاكر، وكيف تواجه الموقف، ومطلوب من الآباء ألا يقعوا في الخطأ، وهكذا تمر الأزمة بسلام!

أمراض الثانوية العامة

قد يندهش البعض لهذا العنوان، ولكنها مشكلة متزايدة يجب أن نواجهها ونعرف آلامها ومضارها وكيفية الوصول إلى شفاؤها أو علاجها، فنحن نواجه كل عام حوالي ربع مليون طالب يتنافسون للحصول على الثانوية العامة، ويبدأون الكفاح من أول العام، ومنهم من يستطيع مواصلة الطريق، والآخر يتعثر، وجزء يفشل، وجزء آخر يعاود المحاولة مرة تلو الأخرى دون جدوى، ويتصدع التآلف العائلي، ويعاني الأب والأم من خيبة الأمل في وحيدهم وفي أملهم في مستقبل ابنهم، ويتأثر كل الإخوة، ثم تسبقه أخته التي تصغره في السن، ويتناول عليه أخوه الصغير، وتصبح الحياة أمام الطالب يأسًا وجزعًا وفزعًا، وتلجأ الأسرة لكل أنواع المعاملة، من حنان إلى قسوة، ومن حب زائد إلى إهمال شديد، ومن عقاب وجزاء إلى إعطاء وتدليل، وهي لا تعلم ما ألمَّ بابنها وابتتها.

إن طالب (أو طالبة) الثانوية العامة - في دور المراهقة - تتنابه عدة صراعات وعوامل مختلفة: يرغب في الاستقلال عن والديه، يريد إثبات فرديته وذاته، يحاول تعزيز رجولته، يتمنى أن يشبع عاطفته وأفكاره، في تقلب وتذبذب انفعالي مستمر بين قدراته الخاصة والإمكانات المتاحة له، في حالة تأجيل مستمر لإرضاء نزواته وغرائزه. هذا الطالب محاط بكل هذه الانفعالات، ويجد نفسه فجأة أمام تحدٍّ شديد، إذ إنه يجب أن يكون من ضمن الآلاف الأوائل لكي يدخل الجامعة ويستمر في مستقبل يرضي والديه.

ولا يمكن بالطبع لأي دولة في العالم أن تتيح الفرصة لكل طلبة الثانوية العامة في دخول الجامعة، ولكن يجب إتاحة الفرصة لهم لمستقبل آخر له نفس الاحترام.

وهنا يجب على الآباء أن يقللوا من الضغط والنصيحة المستمرة بضرورة الحصول على الشهادة الجامعية، ولن أناقش هنا الحلول الاجتماعية والاقتصادية لمشكلة الثانوية العامة، ولكن سأقصر كلامي على الطالب (أو الطالبة) والمعاناة النفسية التي يمر بها أثناء هذه المرحلة، فهذا الطالب الذي بدأ السنة الدراسية ثم بدأ يشكو من صعوبة التركيز والنسيان السريع، وأصبح لا يستطيع المكث خلف مكتبه أكثر من مدة بسيطة، وبعدها يبدأ في المشي في الحجرة، ثم يحاول الاستذكار ثانيًا، فيبدأ في السرحان وأحلام اليقظة، وتمر الساعات والأيام ويبدأ في عمل جداول لتنفيذها، ولا يستطيع القيام بها، ثم يبدأ في الأرق وصعوبة النوم أثناء الليل، بل والأحلام المزعجة والكوابيس ومعظمها يدور حول الامتحان والمستقبل وقدراته، ثم يبدأ في فقد الثقة بنفسه، ويشعر باليأس والفشل، وأنه غير قادر على إتمام الثانوية العامة، ويبدأ أهله في الانزعاج، بل يقترح عليه أبوه أن يترك هذه السنة ويستريح، وأن صحته أهم من كل شيء، ويزيد هذا العطف والعناية من آلامه النفسية، وتمر الشهور وإذا به أمام الامتحان غير قادر على المسؤولية، ومنهار من الناحية النفسية، إن هذا الطالب يعاني من القلق النفسي، وسبب القلق هنا عدم توافق قدراته مع طموحه، أي أنه لم يستطع أن يكيف قدراته واستعداداته، فأحلام اليقظة تجعل من حصوله على المجموع الكبير ضرورة، وفي نفس الوقت يجد أن زملاء له أقوى علميًا، فهم يستوعبون قدرًا من المعلومات يعجز هو عن استيعابه، وهم قادرون على فهم أشياء عجز هو عن فهمها، بل إن بعضهم انتهى من مراجعة كل المقرر عدة مرات، في الوقت الذي يعجز هو فيه عن المراجعة الأولى، هنا يتسرب الإحساس بالعجز إلى نفسية الطالب، وهكذا يحدث الانهيار!

وحتى لا يحدث ذلك يجب أن يكتفي كل طالب ببذل أقصى جهد ممكن دون أن يلهب خياله وتفكيره بهذا الرعب المستمر: المجموع!

وعلى الأهل مساندة الابن، وعدم إرهابه والإلحاح عليه بضرورة الحصول على المجموع لدخول كلية معينة. وإذا لاحظ الأهل تفوق قريب أو جار دراسيًا، فلا يجوز لهم مهاجمة الابن في هذه النقطة، ما دام مواظبًا على دراسته، بل المفروض أن يعطي الأهل ابنهم مزيدًا من الطمأنينة بذكر محاسن أخرى تتوفر لديه، ويجب أن يسود البيت كله إحساس بأن المجموع أو دخول الجامعة ليس شرطًا أساسيًا للنجاح في الحياة، كما أن دخول الكليات ذات المجموع المرتفع ليس الباب الوحيد للمستقبل المشرق. بذلك فقط يمكن ألا يتحول القلق النفسي إلى وسيلة لهدم الطالب وهو على أبواب الثانوية العامة. وهكذا يمكن ألا يزيد الأهل من هذا القلق الذي يعذب الابن، فالمفروض أن يعمل الأهل بتصرفاتهم على إنهاء حالة القلق النفسي، بدلًا من أن يحيطوا الابن الشاب باللوم، فتكون النتيجة تعقيد الموقف، وزيادة حالة القلق، وبالتالي فشل الطالب في دراسته!

وأقول هنا، لا يجوز أن يصل الطالب إلى حالة القلق النفسي التي يمكن أن تحد من نجاحه، فإذا حدث ذلك فإنه في هذه الحالة يحتاج إلى العلاج الخاص بالقلق النفسي.

ومن أكثر أمراض الثانوية العامة شيوعًا: الأعراض العضوية المختلفة التي على الرغم من الفحوص الدائمة والتردد على الأطباء بكافة تخصصاتهم لا يجد الطبيب سببًا عضويًا لها، وهنا يقول للطالب لا يوجد عندك شيء! وهنا يعتقد الأهل أن ابنهم يدّعي المرض، وهذا غير صحيح، لأنه حقًا يعاني من آلام مختلفة، ولكن السبب نفسي، فعندما يزداد القلق عند الطالب (أو الطالبة) وتبدأ قدرته على مقاومة الإجهاد تقل، يتحول القلق إلى عرض عضوي، ثم ينسى الطالب السبب الرئيسي، وحتى عندما يذكر له أن السبب هو الثانوية، فهو ينكر ذلك بشدة ويغضب من اتهامه بذلك، لأن هذه الأعراض ما هي إلا تعبير لاشعوري خفي عن قلقه.

ومن أكثر هذه الأعراض العضوية انتشارًا: الصداع. فيشكو الطالب من صداع مستمر، وغالبًا له علاقة مباشرة بوقت الاستذكار، ولكن أحيانًا ما يكون غير مرتبط بالذاكرة، وهنا يصبح ارتباط العرض بالسبب الرئيسي. ويصف الطالب الصداع بأنه في أعلى الرأس، وكأن شيئًا يغلي داخل المخ، أو كأن ضغطًا أو حملًا ثقيلًا فوق الرأس، بل أحيانًا تكون الشكوى على هيئة غريبة بأن الرأس مملوء بفراغ، وأنه لا يحس بمخه، وأن الصداع يشله عن الخروج، ويمنعه من

الاستذكار، ويقعده عن الذهاب إلى المدرسة. ويبدأ بأطباء العيون الذين يؤكدون سلامة نظره، ثم أطباء الأنف والأذن والحنجرة ويطمئنونه على سلامة الجيوب الأنفية واللوز، ثم أطباء الأمراض الباطنية الذين يؤكدون سلامة أعضائه، ولا مانع من بعض الفيتامينات، وتمر الأيام والشهور والصداع مستمر والاستذكار مستحيل!

كذلك من الأعراض المهمة التحولية: القىء والغثيان والمغص والآلام البطنية. وتبدأ سلسلة من البحوث والفحوص العالية والتي عادة ما تنتهي بخلو الطالب من أي مرض عضوي، ويكون قد مر من الزمن ما يصعب على الطالب تعويضه والحصول على الدرجة التي يتمناها في الثانوية العامة. ونفس الحكاية مع آلام الظهر والذراعين والساقين، والتنميل، والخوف من الشلل، ثم يجب أن نتذكر الإغماءات النفسية أو ما يُسمى «النوبات الهستيرية»، وهنا يبدأ الطالب في نوبات من التشنج والإغماء، يصرخ أثناءها ويقاوم أي رغبة في تهدئته، وتعتقد العائلة أن ابنهم مصاب بالصرع وهو بعيد عن ذلك تمامًا.

هذه الأعراض العضوية المختلفة، والتي تُسمى «الأعراض التحولية أو الهستيرية»، والتي تصدر بطريقة لاشعورية، ولا يعي معناها الطالب أو الطالبة، يجب علاجها من بدء الأمر بتوضيح طبيعة الصراع النفسي للطالب، وتهيئته لتحمل المسؤولية، ومعرفة قدراته.

أحيانًا ما يلجأ الطالب أو الطالبة ذات الشخصية العاجزة غير السوية، والتي ينقصها الطموح والمثابرة والإرادة، والتي لا تستطيع تحمل المسؤولية، إلى الانحراف، عندما يجد التحدي المستمر من الاستذكار والامتحانات. وهنا يهرب الطالب بالانضمام إلى شلة السوء، ويبدأ في شرب الدخان، وتجربة الحشيش، وأخذ الأقراص المنبهة أو المنشطة والمنومة، وأحيانًا ما يلجأ للانضمام إلى جماعات شاذة من مذاهب سياسية أو فلسفية أو دينية مختلفة لكيلا يواجه الواقع، وينغمس في أنواع من القمار أو الرياضة أو اللهو. وكثير من هؤلاء الطلبة ينغمسون في ممارسة العادة السرية يوميًا لتقليل حدة التوتر، وحتى يشعروا بالنعاس والنوم، ثم إنهم يفسرون عدم قدرتهم على الاستذكار بسبب ممارسة العادة السرية التي لا يستطيعون التحكم فيها، وهم هنا يهربون بطريقة لاشعورية من مواجهة مسؤولية المذاكرة.

ويجب ألا ننسى هنا هؤلاء الطلبة ذوي الذكاء المتوسط والذين يسمح ذكاؤهم بالنجاح في الابتدائية أو الإعدادية، ولكن هذا الذكاء لا يؤهلهم لإتمام الثانوية، على الرغم من الدروس الخصوصية العديدة، والضغط الشديد، والمراقبة المستمرة، بل والدراسة الجادة المستميتة طوال النهار والليل. وعلى الرغم

من كل هذه الجهود يكون حظهم الرسوب والفضل آخر العام، وأحيانًا في كل المواد. إن الذكاء موهبة خلقية، ولا يستطيع الطب في الوقت الحاضر تحويل الشخص الغبي أو متوسط الذكاء إلى إنسان ذكي، وعادة لا يقتنع الأبوأن بحدود ذكاء ابنهم فيستمران في المحاولة والضغط حتى يصاب الطالب بانهييار نفسي تام. ويجب هنا بعد معرفة ذكائه بواسطة اختبارات خاصة توجيه الطالب إلى مستقبل مختلف عن الاتجاه الدراسي والأكاديمي.

وكذلك من الأمراض المنتشرة بين طلبة الثانوية العامة: مرض الفصام. وحقًا إن الاستعداد لهذا المرض موروث، ولكن إجهاد الثانوية يفجر هذا الاستعداد، ويبدأ الطالب في الانطواء والعزلة والتصرفات الغريبة غير المفهومة، ثم يهمل في ذاته ونظافته ويطلق شاربه وذقنه، ثم يلاحظ أبواه أنه يتكلم وحده في غرفته، وأنه يضحك أو يبتسم دون سبب محدد، ثم يلاحظ عليه أنه يتكلم في عدة موضوعات في نفس الوقت، وأن كلامه غير مترابط، ومن الصعوبة إقناعه بأي شيء، ويشكو الطالب من السرحان والنسيان. والحقيقة هنا أنه لا يستطيع فهم دروسه، ويعجز عن استيعاب المواد، نظرًا لأن هذا المرض يصيب التفكير ويشله عن العمل السليم. ويتهمه أهله بأنه لعبي أو غير جاد أو دلوعة. وإن زادت الحالة يبدأ في سماع أصوات وهمية تتهمه بالفشل والشذوذ، بل ويعتقد أنه تحت تأثير قوى خارجية أو سحر أو «عمل» أو مكتوب أو إشعاعات، أو تحت المراقبة والاختبار. وبالطبع لا يمكن الضغط على هذا الطالب الذي يتمادى في التردد وصعوبة اتخاذ أي قرار، وينتقل من مدرسة إلى أخرى أو من رغبة في الدراسة إلى الرغبة في العمل وهجر المذاكرة، فهذا الطالب يحتاج إلى العلاج المتخصص الكيميائي، وأحيانًا لجلسات تنظيم إيقاع المخ، ومهما ضغطنا عليه فلا يمكنه النجاح.

ونضيف على أمراض الثانوية العامة: الاكتئاب بنوعيه النفسي والعقلي. وهنا تنعزل الطالبة، وتهمل في لبسها وزينتها، وتشكو من الاستيقاظ مبكرًا، والخمول صباحًا، والانقباض الشديد خاصة في بدء النهار، مما يعوقها عن الذهاب إلى المدرسة، وتبكي وحدها، وتشكو أن الحياة ليس لها معنى أو طعم، وأنه ليس أمامها إلا ظلام قاتم وسحب من اليأس، وأنها تستحق الفشل، وأن أي واحدة مثلها تستحق العقاب، بل الموت، وتراودها الأفكار السوداوية والانتحار، وكلما حاولت الاستذكار لاحظت بقاء التفكير، وصعوبة التركيز، وعدم فهم المواد، مما يزيد من ألمها ويأسها واكتئابها. وهنا يعتقد الأبوأن أن خوفها من الامتحان والنتيجة هو السبب لكل هذه الأعراض، على الرغم من أن ذلك مرض له أسبابه الكيميائية، ويحتاج إلى العلاج الخاص بالعقاقير المضادة للاكتئاب.

وإذا كنا قد تكلمنا عن أمراض الثانوية العامة النفسية، فلا ننسى احتمالات الأعراض النفسية من قلق، وتوتر، ونسيان، وصعوبة تركيز، والتي يكون سببها أمراضًا عضوية مثل: الأنيميا، واضطرابات الهرمونات، ونقص الفيتامينات، وعدة أمراض أخرى.

إذن علينا أن نتذكر أن امتحان الثانوية العامة يشكل نوعًا جديدًا من الإجهاد والتحدي لشبابنا، مما يسبب عديدًا من الأمراض النفسية، والتي عادة ما تختفي تحت ستار من الأعراض العضوية، والتي أحيانًا ما تجعل الصورة تتجه ناحية الأطباء بكافة تخصصاتهم، والبحوث المختلفة، والفحوص المعملية، مما يجعل الوقت أمام الطالب محدودًا، والأمل في النجاح ضئيلًا.

يجب أن نعلم أن هذا الطالب يعاني من آلام شديدة، وضغط مستمر، ورغبة في النجاح والتقدم، وأن وسائلنا في شد أزره ومساعدته غير صحيحة، لأننا دائمًا ما نبدأ نصيحة الطالب (أو الطالبة) في الثانوية العامة بأن يشد «حيله»، وأن هذه أهم سنة في حياته، وأن كل آماله متوقفة على هذا العام، وأنه، وأنه، إلخ، حتى تزداد نسبة التوتر ودرجة القلق ويصاب بما شرحناه في أول المقال.

يجب أن نخفف من وطأة هذا الضغط المستمر، وأن نتيح الفرصة للطالب بأن يعبر عن جميع انفعالاته ومخاوفه، وألا نحاول دفعه إلى أكثر من طاقته أو قدراته، وأن نكون أصدقاء مستمعين وليس مرشدين أو ناصحين، حتى يستعيد ثقته بنفسه ويستمر قدمًا للكفاح والنجاح!

أقول هذا الكلام لكل أب أو أم:

• ليس من المعقول أن تقارن بين ما يفعله ابنك وهو يذاكر، وما يفعله أبناء الجيران، ليس من الحكمة أن تطالبه بساعات مذاكرة أطول لأن ابن الجيران يفعل ذلك، فلكل طالب شخصيته وقدراته، حتى المقارنة بين الإخوة في البيت الواحد تكون غير عادلة، ولنترك الطالب في عمله قدر طاقته وقدرته.

• لا يجوز الضغط المستمر على الطالب، ووضعه تحت الإرهاق الدائم، بحجة أن الثانوية العامة هي سنة حرجة وعلى أساسها يتشكل المستقبل، فهذا الضغط المستمر يعطل الطالب أكثر مما يدفعه في دراسته.

• لا تحرم ابنك من الراحة، فهذا لن يفيد، وليست العبرة بعدد الساعات التي يقضيها أمام كتابه، لأنه بدون الراحة لن يستطيع أن يستمر في المذاكرة والتحصيل.

- كثرة الدروس الخصوصية ترهق الطالب في أغلب الأحيان، وهي تضيع وقته.
 - يجب التصرف مع الابن الطالب في الثانوية العامة، وكأنه في أي سنة دراسية عادية أخرى، فهذا يحد من القلق الذي يتولد عنده.
 - يجب الاستماع إلى شكوى الطالب، ومساعدته نفسيًا، وعاطفيًا، واجتماعيًا.
- أما أنت يا صديقي طالب الثانوية العامة فإني أقول لك:
- الفرصة ما زالت أمامك لتنظم وقتك وتحصّل وتستوعب أكبر قدر من المعلومات.
 - حاول أن تستذكر وحدك، فالجلوس مع مجموعة من الزملاء قد يضيع وقتك، ويستحسن أن تذاكر في نفس المكان يوميًا.
 - عند إعداد جداول المذاكرة حاول أن ترتب الجداول المعقولة، القابلة للتنفيذ، فلا يجوز أن تحشد قدرًا كبيرًا من المقرر في وقت قصير، فهذا لا يفيد، وتفشل أنت في تنفيذه، ومن هنا تبدأ المتاعب.
 - إذا كنت تشكو من أحلام اليقظة، والسرхан أثناء المذاكرة، فتغلب على ذلك بأن تعيد تسميع ما قرأته أو كتبتة، وهكذا تحد من هذه الأحلام.
 - استرح خمس دقائق في كل ساعة، بدلًا من أن تستريح نصف ساعة كل ثلاث ساعات.
 - احتجز وقتًا من يومك للترفيه والرياضة.
 - ضع في ذهنك أن الدراسة نوع من الصلاة، بحيث تبعد في أثنائها عن مشاكلك الاجتماعية والعاطفية.
 - إذا كانت هناك مشكلة في حياتك، فابحثها مع من هم أكثر خبرة منك، ولا تكبتها في نفسك.
 - لا تصدق أن الثانوية العامة سنة صعبة، وتذكر دائمًا أن هناك كثيرين جدًّا قد نجحوا فيها وبتفوق!
 - لا تحاول أن تقارن بين ما يفعله غيرك، وبين ما أنت قادر على فعله، فلكل إنسان قدراته، فقط حاول أن تستغل هذه القدرات إلى أقصى درجة دون أن

ترهق نفسك.

- لا تستسلم للأعراض الوهمية كوسيلة للهروب من المذاكرة، فلكل إنسان همومه، ولا يجوز أن تكون سببًا في الهدم، وفي نفس الوقت لكل إنسان طاقته للبناء، وهذه يجب استغلالها جيدًا.

النسيان في الشباب

هل هو خرف الشباب؟

«الخرف» كلمة تطلق على ضعف الذاكرة في كبار السن، وعادةً ما يبدأ بتدهور الذاكرة للأحداث القريبة وسلامة الأحداث البعيدة، ثم يبدأ الزحف إلى الأحداث البعيدة، حتى إنه في آخر المراحل لا يتذكر أولاده، وهو ما يحدث في خرف الزهايمر أو خرف تصلب شرايين المخ أو أنواع عديدة من الخرف.

بالطبع لا نستطيع أن نطلق كلمة «خرف الشباب» إلا إذا استعملنا الكلمة مجازيًا، بمعنى أن الشاب أو الشابة تبدأ في المعاناة من فقد الذاكرة أو سرعة النسيان، وتتعدد الأسباب، مثلًا: • القلق النفسي: ويتميز بأعراض الخوف الشديد من الأمراض، أو الموت، أو الجنون، أو الإيدز، أو الامتحانات، مع ظهور أعراض في الجهاز العصبي اللاإرادي، مثل زيادة ضربات القلب، وارتجاف الأطراف، وغصة في الحلق، والعرق، والسحبة في المعدة، إلخ. والخوف من الامتحانات والاستذكار يجعل القدرة على التركيز تقل، مما يسبب النسيان، ويسبب ذلك قلقًا أكثر، ويعتقد الطالب أو الطالبة أنه نسي كل العلوم التي استذكرها، وأنه لن ينجز في الامتحان، ويجب تأجيل الامتحان، ويبدأ الانهيار ويشعر أنه فقد الذاكرة.

• الاكتئاب: وهو يصيب الإنسان بالعجز واليأس والشكاوى والآلام الجسمية مع أرق وفقد الشهية، ولكن أهم الأعراض هي: عدم التركيز، والنسيان، واضطراب الذاكرة سواء في الأحداث القريبة أو البعيدة، ويطلق على الاكتئاب المصاحب باضطراب الذاكرة «شبه الخرف الاكتئابي».

• استعمال وإدمان المواد المهدئة، المطمئنة أو المنشطة، الحشيش والبانجو والكحول: قد يؤدي إلى اضطراب في الذاكرة خاصة في الأحداث القريبة.

• الفصام: هو من أكثر الأسباب شيوعًا في التأخر الدراسي وعدم تكملة التعليم، ويتميز بالانعزال والانطواء واضطراب التفكير والسلوك، مع ظهور ضلالات وهلاوس، ولكن أهم الأعراض هي: السرحان، وصعوبة التركيز، والنسيان، وعادة ما يبدأ هذا في سن المراهقة والشباب.

• الاضطرابات الانشقاقية: عندما يزداد القلق ويصبح غير محتمل ومحطمًا لكيان الفرد، هنا تبدأ بعض وظائف الشخصية في الانفصال عن الأصل، لحماية الإنسان، بالأعراض الآتية: ١- فقدان الذاكرة (النساوة): وهي من أهم الحيل

التي يلجأ إليها الإنسان عند مواجهة الشدائد، وفقدان الذاكرة عملية نشيطة لا يعني بها مجرد النسيان، وعادة ما يفقد المريض ذاكرته فجأة، وأحيانًا يستمر ذلك لمدة ساعات أو أيام أو شهور، ولا مانع من أن يتصرف أثناء هذه الفترة كأى إنسان سوى، إلا أنه فاقد الذاكرة بالنسبة لبعض الأحداث. وأذكر المريض الذي كان يعمل في تهريب بعض البضائع من ليبيا إلى مصر، وبعد تسليمه كل المواد التي وضع فيها كل ثروته إلى أحد زملائه في العمل، اختفى هذا الزميل، ولم يستطع المريض تحمل هذه الصدمة، ففقد الذاكرة لكل الأحداث السابقة وكذلك اسمه. وكثيرًا ما يقبض رجال الشرطة على بعض الأفراد في الطريق للتشرد، وبسؤالهم عن أحوالهم لا يتذكرون أي شيء، بل ويعلنون أنهم لا يتذكرون حتى أسماءهم، وهنا يعتقد البعض أنهم يدعون المرض، ولا يُعقل أن ينسى فرد اسمه، فتبدأ معاملتهم بالقسوة والغلظة دون جدوى. وبخلاف فقدان الذاكرة الهستيرى عن الأمراض العضوية في أن المريض بالهستيريا يتذكر كل ما يحدث، ما عدا فترة معينة من حياته. أما المريض مثلًا بخرف الشيخوخة، فيتذكر الماضي، ولكنه لا يستطيع أن يخزن المعلومات الحديثة، وما فعله أمس أو ما تناوله في الإفطار، ولهذا فهو يتكلم دائمًا عن أيام الماضي، لأنه لا يتذكر أيام الحاضر. أما فقدان الذاكرة الذي يصحب ارتجاج المخ أو النوبات الصرعية، فعادة ما يكون للفترة السابقة على الحادث فقط.

٢- الشرود الهستيرى: يبدأ الشرود بتغير واضح في الوعي، ويبدو المريض كأنه مدفوع بقوى داخلية للقيام بأعمال وحركات بعيدة عن طبيعته، ويتجول المريض في الأماكن المختلفة، ويقوم بمختلف أنواع النشاط مع فقدان الذاكرة لما أتى به من أعمال، فيبدأ صباحًا في الذهاب إلى المصنع، ثم يفيق فجأة ليجد نفسه في قريته، أو يستعد الطالب للذهاب للامتحان، ثم يكتشف نفسه بعد بدء الامتحان بساعتين في مكان آخر، ويهرول إلى الامتحان ولكن بعد فوات الوقت. وأحيانًا تستمر حالة الشرود لمدة أيام أو شهور. وفي إحدى القضايا الحديثة تزوج المريض أثناء فترة الشرود، ثم سلم نفسه للشرطة بعد شفائه التلقائي من المرض. وأحيانًا يقوم البعض بالاعتداء أو القتل أثناء الشرود، ولل قانون أحكامه الخاصة بالنسبة لهذه الحالات إذا أمكن إثباتها.

٣- الغشبية (التجلي) والتلبس (المس): تتميز بفقدان عابر للإحساس بالهوية الشخصية والإدراك الكامل للعالم المحيط. وفي بعض الأحوال يتصرف الفرد وكأنه قد تملكته شخصية أخرى أو روح أو إله (قوة). وقد يقتصر الانتباه والإدراك، أو يتركزان، على واحد أو اثنين من أوجه المحيط المباشر، وبعدها يفقد الذاكرة لكل ما حدث. وكثيرًا ما توجد مجموعة محدودة، ولكن متكررة من الحركات والأوضاع والتمتعات. وتدرج هنا فقط حالات التجلي غير الإرادية وغير المرغوب فيها، والتي تتداخل مع النشاطات العادية، ذلك لأنها تتجاوز (أو تزيد على) المواقف المقبولة دينيًا أو حضاريًا.

٤- شبه العته الهستيرى (زملة جانسر): يظهر هذا المرض بين المسجونين، والمعتقلين، والمنتظرين للمحاكمات، أو تحت تأثير أي إجهاد بيئي، ويعاني المريض من أعراض شبه عقلية، وأهمها: تصرفات صيانية، واستجابات خاطئة لأسئلة بسيطة وواضحة، وحالة من التوهان وفقد الذاكرة. وتحمل الإجابة هنا ما يدل على فهم المريض لمعنى السؤال، ولكنها تكون ملتوية وبعيدة عن الصواب. فبسؤاله عن عدد أرجل القط، قد يجيب بأنها اثنتان أو خمس! كذلك يأخذ السلوك مظهرًا غامضًا، وتتناوب على المريض فترات من الهياج والغيوبة، مع النوم الكثير، ولكن يجب تمييز هذه الحالات عن الصرع النفسي الحركي والفصام وأمراض الجهاز العصبي العضوية، وعادة ما ينسى كل ما فعله. وقد كثر الجدل حديثًا حول عملية «غسيل المخ» التي تمارسها المعسكرات السياسية، بتغيير العقائد الأيدولوجية للفرد من خلال

عملية نفسية وفسبولوجية، وطرقها متنوعة، وأهمها: وضع الفرد في حالة حرمان حسي تام من كافة الحواس، من بصر أو سمع أو تذوق أو شم أو إحساس، كوضعه مثلًا في غرفة تحت الماء. وتختلف عتبة الإنسان في الانهيار تحت الحرمان الحسي، لأنه سيبدأ بعد فترة من الزمن في المعاناة من هلاوس وخداع بصري، ثم تشوش في الوعي، وعدم القدرة على التفكير السوي، ثم ينهار تمامًا ويصاب بشبه غيبوبة أو ذهول هستيري، أو ما شرحناه سابقًا من استجابة انشاقية في الشخصية، يصبح أثناءها قابلاً للإيحاء، ومن السهولة حينئذ تقبله للعقائد السياسية المختلفة عن اعتقاده الأصلي، وتتكون عنده ارتباطات شرطية جديدة في قشرة المخ، يحمل معها إيمانًا راسخًا بالعقيدة الجديدة.

لا توجد إحصائية عن مدى انتشار النسيان أو اضطراب الذاكرة في الشباب، حيث إنها عادة ما تكون ثانوية لأمراض أخرى، مثلًا نسبة القلق تتراوح بين 6-8٪ من مجموع أي شعب، والاكْتئاب يتراوح بين 3-5٪، أما الفصام فيصيب حوالي 1٪ من الشعب، وإدمان العقاقير والمهدئات والحشيش والأفيون فحوالي 6-8٪ من مجموع أي شعب.

والعلاج عادة ما يكون علاج الحالة الأولية، فمثلًا علاج القلق، أو الاكتئاب، أو الفصام، أو الإدمان، سواء بالعلاج النفسي أو السلوكي أو الدوائي أو كلها مجتمعة.

كلمات عن الحب

رأس المال الاجتماعي هو علاقة الثقة والمحبة بين المواطنين، وهذا هو الأساس في الأخلاق التي تؤدي إلى نهضة الأمم. أما التدهور فهو النتيجة لانعدام المحبة والثقة، أي أن الحب بين الناس هو أساس للرضا النفسي والسعادة.

يتساءل البعض عن الاختلاف بين الحب والزواج، وكلاهما مشاعر جميلة ودافئة، ولكن يتميز الحب باللهفة والبهجة، أي أنك تنسى كل مشاكلك وأنت بجوار من تحب، ودائمًا ما تتطلع لرؤيته، أو لسماع صوته، أو تشتاق للقاءه. وتعتمد هذه المشاعر على الموصل العصبي الدوباميني المسؤول عن اللذة والبهجة في المخ، وعن كل ملذات الحياة من طعام وشراب وجنس، بل إن عقاقير الإدمان يأتي تأثيرها من خلال الدوبامين، وله مسارات خاصة في المخ. وقد تتعجب أن الله قد خلق في مخنا مستقبلات عصبية للحشيش، والأفيون (المورفين، الهيروين، الكودايين المخلوق)، والمطمئنان (الجابا)، ومفرحات النفوس (مستقبلات السيروتونين)، وعندما يتعاطى الفرد هذه المواد الإدمانية يتوقف الإفراز الرباني لكل هذه المفرحات.

أما الزواج، فهو مودة ورحمة وتعلق والتصاق، وتأتي هذه المشاعر بهرمون الإكسيتوسين، وهو المسؤول عن التعلق والعشرة، وهو المسؤول في الأمهات والآباء عن حبهم الشديد لأطفالهم. وكثيرًا ما أرى الزوج أو الزوجة تشكو من

أنها تقدّر زوجها ومرتبطة به ارتباطاً وثيقاً، ولا تستطيع تصور الابتعاد عنه، ولكن المشاعر ليست كما كانت قبل الزواج، وهنا عرفنا السبب، وهو أن مشاعر الزواج تعتمد على هرمون الارتباط والتعلق الإكسيتوسين، أما مشاعر الحب فهي من الموصل العصبي الدوبامين.

بعض ما قيل في الحب

- الحب دمة وابتسامة - جبران خليل جبران.
- الحب لا يعرف أي قانون - بوريسوس.
- الحب هو الأكثر عذوبة والأكثر مرارة - أوروبيديس.
- الحب امرأة ورجل وحرمان - بلزاك.
- كلما ازداد حبنا، تضاعف خوفنا من الإساءة إلى من نحب - جورج صاند.
- الرجال يموتون من الحب، والنساء يحيين به - دوبريه.
- المرأة لغز، مفتاحه كلمة واحدة هي «الحب» - نيتشه.
- المرأة بلا محبة امرأة ميتة - أفلاطون.
- الحب سلطان، ولذلك فهو فوق القانون - بيرون.
- الرجل يحب ليسعد بالحياة، والمرأة تحيا لتسعد بالحب - جان جاك روسو.
- ما أقوى الحب، فهو يجعل من الوحش إنساناً، وحيناً يجعل الإنسان وحشاً - شكسبير.

مكونات مثلث الحب الثلاثة

- الحميمية - الألفة.
- الشغف - الرغبة.
- القرار - الالتزام.

أعلى درجات الحب بدون وجود شغف أو التزام هي الصداقة. أعز أصدقائك هو الشخص الذي تشعر معه بقرب وألفة شديدين دون وجود شغف تجاهه ولا التزام بعلاقة رومانسية. وهذا لا يعتبر حبًا بالمعنى العاطفي أو الرومانسي، لكن يمكن أن يكون بداية لعلاقة ويتطور.

أما الشغف (الرغبة)، فهو الجزء العاطفي البحت من العلاقة؛ الشعور بالرغبة والمشاعر الرومانسية، ويتضمن أيضًا الانجذاب الجنسي.

أما القرار (الالتزام)، فهو العنصر التالي للمشاعر، فالشعور بالانجذاب الجنسي أو المشاعر الرومانسية تجاه شخص ليست اختيارية، ولا تخلق التشابه أو القرب. لكن الالتزام بالعلاقة هو العنصر الوحيد الذي بمثابة اختيار منك.

أنواع الحب

● حب الرفقة: هو نوع الحب الذي يتكون من الحميمية والالتزام دون وجود للرغبة، وعادة ما يُلاحظ في علاقات الزواج الممتدة التي بمرور الوقت تكون فيها الألفة والاعتقاد أعمق لكن تنطفئ شعلة الحب والعاطفة والرغبة، ويوجد هذا النوع أيضًا بين الأصدقاء المقربين.

● الحب الرومانسي: يتكون بشكل كبير من الألفة والحميمية ممزوجتين بالعاطفة القوية والرغبة. المحبون الرومانسيون يجمع بينهم ارتباط قوي، عاطفيًا وجسديًا وجنسيًا أيضًا، بالإضافة إلى وجود روابط ألفة وحميمية شديدة، لكن بدون ارتباط دائم.

● الحب الساذج (الأبله): يتمثل في العلاقات التي يحدث فيها التزام سريع بناء على العاطفة فقط، مثل زواج متسرع بناء على عاطفة قوية، أو علاقة بعشيقه تقرر تكملتها. ويعتبر من أسوأ أنواع الارتباط، وعادة بعد فترة قليلة تقل الرغبة وينتهي.

● الحب الكامل (المتحقق - الفعّال): نستطيع أن نطلق عليه علاقة فعّالة ومكتملة. فهي العلاقة المثالية الممكنة. التفاعل والخليط المثالي من العاطفة والألفة والرغبة في الالتزام بالعلاقة.

مراحل الحب

اختلف العلماء في بيان مراحل الحب حتى وصل بعضهم إلى ذكر أربعين مرحلة للحب، لكن سوف نذكر هنا تصنيف ابن حزم لمراحل الحب، حيث يذكر للحب خمس مراحل هي: • الاستحسان: وهي المرحلة الأولى في اختيار الصديق.

• الإعجاب: وهي المرحلة التي يُعرض فيها الشخص عن الآخرين، ويهمه أمر الشخص المعجب به.

• الألفة: وهي مرحلة الاستئناس لبعض، والوحشة من عدم وجود الآخر.

• العشق: وهي مرحلة غلبة انشغال البال.

• الشغف: هي التي يفقد فيها الشخص القدرة على التفكير العقلاني والتدبر في عواقب الأمور، وربما ينقطع فيها عن الطعام، ويضطرب نومه. وهي المرحلة التي وصف فيها القرآن حال امرأة العزيز، حين شغفها حب النبي يوسف عليه السلام.

الخطر الذي يقع فيه المحبون هنا هو اختلاف مراحلهم، وتصورهم بأن الحب حالة واحدة ومرحلة واحدة، وكلمة «أحبك» التي تتردد في جميع هذه المراحل تعني أمرًا واحدًا، بينما هي في كل مرة تعني حالة مختلفة.

والأزمة تقع حين يكون أحدهم في المرحلة الأولى والطرف الآخر يكون في المرحلة الأخيرة، فلا يستطيعان تفهم حالة بعضهما، وتزداد التوقعات لدى من وصل إلى المرحلة الأخيرة، ويصف الآخر بأنه كاذب في مشاعره.

بعضنا يحب العمل، وبعضنا يحب النجاح، وبعضنا يحب المال، وبعضنا يحب السلطة، وبعضنا يحب المتعة الحسية، وبعضنا يحب المتعة الروحية، إذن، لا يوجد أحد منا «لا يحب»!

نظرية بروس للكاتبة الفرنسية مارسيل بروس، نظرية قاسية في الحب، لكن فيها الكثير من الحقيقة، فهو يرى الحب كجذوة النار التي تشتعل وتتوهج، ثم لا تلبث أن تخبو وتنطفئ بسبب ما يلقها من برودة الملل، ومن أجل الإبقاء عليها مشتعلة يسعى العشاق لتزويدها بالغيرة، التي لا تلبث هي الأخرى أن تخبو وتنطفئ. والخلاصة أن الأمر كله محكوم بالفشل، ولا جدوى من أي محاولة للإنقاذ!

أسماء الحب

لقد وضعوا للحب أسماء كثيرة، منها: المحبة، والهوى، والصبوة، والشغف، والوجد، والكلف، والعشق، والنجوى، والشوق، والوصب، والاستكانة، والود، والخلة، والغرام، والهيام، والتعبد. وهناك أسماء أخرى كثيرة التقطت من خلال ما ذكره المحبون في أشعارهم، وفلتات ألسنتهم، وأكثرها يعبر عن العلاقة العاطفية بين الرجل والمرأة.

• الهوى: يقال إنه ميل النفس، وفعله: هَوِيَ، هَوَى، هَوَى. وأما هَوَى يَهْوِي فهو للسقوط، ومصدره الهَوِيُّ. وأكثر ما يستعمل الهوى في الحب المذموم.

• الشغف: مأخوذ من الشُّغاف الذي هو غلاف القلب، ومنه ما جاء في القرآن العظيم واصفًا حال امرأة العزيز في تعلقها بيوسف.

• الوجد: هو الحب الذي يتبعه مشقة في النفس والتفكير في المحبوب والحزن دائمًا.

• الكلف: هو شدة التعلق والولع، وأصل اللفظ من المشقة.

• العشق: هو فرط الحب.

• النجوى: هي الحرقه وشدة الوجد من عشق أو حزن.

• الشوق: هو سفر القلب إلى المحبوب، وارتحال عواطفه ومشاعره.

• الودُّ: هو خالص الحب وألطفه وأرقه، وتتلازم فيه عاطفة الرأفة والرحمة.

• الغرام: هو الحب اللازم، ونقصد باللازم التحمل.

• الهيام: هو جنون العشق.

لا يسعني أخيرًا إلا اقتطاف بعض من أشعار وأقوال نزار قباني:

إني عشقتك واتخذت قراري

فلمن أقدم يا ثرى أعذاري

لا سلطة في الحب تعلقو سلطتي

فالرأي رأيي والخيار خيارى

هذي أحاسيسي فلا تتدخلي
أرجوك، بين البحر والبحار

وتسأليني ما الحب؟
الحب أن أكتفي بكِ
ولا أكتفي منك أبداً

الحب للشُّجْعان
الجناء تُزوجهم أمهاتهم

أروع ما في حينا أنه ليس له عقل ولا منطق
أجمل ما في حينا أنه يمشي على الماء ولا يغرق

الحب يا حبيبتني
قصيدةٌ جميلة مكتوبة على القمر
الحب مرسومٌ على جميع أوراق الشجر
الحب منقوشٌ على ريش العصافير
وحبات المطر
لكن أي امرأة في وطني
إذا أحبت رجلاً تُرمى بخمسين حجر

* * *

الحب ليس رواية شرقية
بختامها يتزوَّج الأبطال
لكنه الإبحار دون سفينةٍ
وشعورنا أن الوصول مُحال

* * *

الحب في الأرض بعضٌ من تخيُّلنا
لو لم نجده عليها لاخترعناه

* * *

إن الحب في نظري هو التعويض العادل
عن كل بشاعات هذا العالم
وحماقاته
وجرائمه

* * *

هل عندك شك أنك أحلى امرأة في الدنيا؟
وأهم امرأة في الدنيا؟
هل عندك شك أنني حين عثرت عليكِ
ملكْتُ مفاتيح الدنيا؟
هل عندك شك أنني حين لمست يديك
تغيَّر تكوين الدنيا؟

هل عندك شك أن دخولك في قلبي

هو أعظم يوم في التاريخ

وأجمل خبر في الدنيا؟

* * *

وأخيرًا، إن لم نغفِّ كل أعمالنا بالحب، فستصبح الحياة مغنمًا أجوف.

إن كتاب فضيلة الشيخ الدكتور علي جمعة «فقه حب الحياة»، يعلمنا أن الله محبة.

الإدراك المتكامل للتنوير الثقافي

عن الشقيق والأستاذ والمعلم
الدكتور ثروت عكاشه

«ما من شك في أن الفن كان من أولى الوسائل التي أفصح بها الإنسان عن نفسه، فالفن - كما يقال - يجعل لون الحقيقة يبدو كأطياف اللون السبعة لقوس قزح، بل إن حياة الإنسان لتكاد تكون متمثلة في شقها الفني أكثر منها في شقها العلمي، وذلك لما في الجانب الفني من احتفاظ بما له سحر وجمال وقدرة على إثارة شتى المشاعر والانفعالات مهما طال الزمن. فإنسان اليوم ما زال يسحره جمال قناع توت عنخ آمون ورأس نفرتيتي، وما زال يشجيه نشيد الفرحة في خاتمة سيمفونية بيتهوفن التاسعة، وما زالت تحركه التراجيديات اليونانية القديمة، وتستهويه منحوتات البارثينون وصور عصر النهضة الأوروبية. بينما هو ليس كذلك بالنسبة لنتاج العقل في مجال العلم الذي هو في تطور متصل، فما نأخذ به اليوم من نظريات، قد يتبين خطؤه غدًا، وتحل محله نظريات أخرى، وكم من أنظمة فلسفية وفروض علمية لم تعش طويلاً وانطوت.

كان الإغريق يربطون بين الجمال والفضيلة، ويؤمنون بالصلة التي تجمع بينهما، وكانوا يسمونها «كالوكا جاثوس»، أي اتحاد الجمال والخير، ويكشف لنا ترتيب شقي هذا اللفظ اليوناني عن صدارة الجمال ومكانته الرفيعة. وعلى هذا النحو شيّد الإغريق أخلاقياتهم على أسس جمالية، وبوأوا الفنون هذه المكانة السامية، مما حرك فيهم الولع بممارستها. كذلك يعترف الراشدون من فنانينا المعاصرين بأنه لا انفكاك بين الفن والأخلاق، فهما المعقل الأخير الذي تفرغ إليه القيم الإنسانية. فليس ثمة شيء له صدق العمل الفني في التعبير فكراً وإحساساً، وليس ثمة شيء له صدق العمل الفني من الدلالة على ما يكن الإنسان ويضمرة، لهذا كان تاريخ الفن خير ما يحفز الإنسان إلى «الأجود»، وكان قصاره في ذلك أن دعا هذه «الإجادة» التي عاش ينشدها بـ«الجمال»، نكاد نراها شيئاً واحداً وإن ظهرا شيئين، فلا «جمال» إلا عن «إجادة»، ولا «إجادة» إلا وغايتها إلى «جمال»، فلا فكاك لأحدهما عن الآخر.

هذه مقتطفات من المحاضرة الثقافية التي ألقاها الدكتور ثروت عكاشه في عام ١٩٩٦ على جمهور الحاضرين لمحاضرة عكاشه للطب النفسي التي تعقد سنويًا، ويلقي أثناءها أحد رواد الطب النفسي أو العلوم الإنسانية المتعلقة بهذا الفرع محاضرة ثقافية، تتمثل خلالها أقصى درجات الإدراك في موضوع علمي أو إنساني. وأعترف أنني عانيت كثيرًا في إقناع شقيقي الدكتور ثروت عكاشه

لإلقاء هذه المحاضرة لإثراء الوعي الثقافي والفني لجمهور المحاضرة الذي لا يمثله فقط الأطباء النفسيون، بل جمع من المثقفين والمتذوقين، فقد اعتذر بتواضع شديد لأن الموضوع خارج نطاق تخصصه، وأن وقته لا يسمح، حيث إنه مشغول بكتابه الأخير «فنون عصر النهضة» الذي يشغل كل وقته، وأنه يذهب للمطبعة يوميًا لتفقدته والتوقيع على كل صورة وصفحة في الكتاب قبل البدء في الطباعة. وعبثًا حاولت إقناعه بأنه يكلف نفسه أكثر من طاقتها، وأن سنه لا تسمح بذلك، فكان رده: «يجب أن يكون مؤلفي وإنتاجي خاليًا من الأخطاء حتى لا يشوبه أي عيب، إنني أنشد الكمال حتى وإن كان الطريق إليه صعبًا، وحتى إن كلفني الأمر صحة ومالًا». وأخذت أناشده بحق الأخوة وبحق الأطباء النفسيين تلبية هذه الدعوة، وأنني سأكون رهن إشارته في أي شيء يريد، حتى وافق أخيرًا، وكان ذلك قبل ستة أشهر من إلقاء المحاضرة، فلقد كان يشترط المدة الكافية والاطلاع المستمر والاستعداد الكامل والإتقان والتفاني في أي عمل يسند إليه.

كانت المحاضرة عن «التطهر النفسي من خلال الفن»، حيث اعتقد الإغريق أن وظيفة الفن هي تطهير النفس والتحليق في عالم الطهر والنقاء. وكانت المحاضرة مزيجًا من عدة فنون، فضلًا عن الإلقاء الرائع، مع عرض صور خاصة من عصر النهضة مصحوبة بالموسيقى الكلاسيكية الخافتة التي تتواكب مع محتوى المحاضرة ونوع الصور. وكانت المحاضرة مزيجًا من الرومانسية وعمق الثقافة، طهرت نفوس الحاضرين، فخرج الكل مشحون الروح والنفس، مليئًا بالحب والنقاء.

وكنت قد قدمت الدكتور ثروت عكاشه بقولي:

«على الرغم من أنني اخترت في عملي طبيعة العالم إلا أن ثروت كان قدوتي دائمًا، فأنا لا أعرف أي آلة موسيقية، ولكنه علمني كيف أتذوق الموسيقى، وأنا لا أقرض الشعر، ولكنه علمني كيف أنهل من الأدب والشعر، ولا أرسم صورة، ولكنه علمني كيف أفيد من زيارة المتاحف وكيف أتعاش مع الفن التشكيلي. إن هذا المزيج من الرومانسية والواقعية والفروسية لا يتوافر في الكثيرين. أقدم لكم الفنان المثقف الفارس الثوري ثروت عكاشه».

وتشير مقدمتي هذه إلى سمات في شخصية ثروت لا يعرفها الكثيرون عنه، فعادة ما يتجه إدراك الناس إلى أن الفنان يعيش حياة عشوائية، ولا يفكر في الغد، وأنه غير منظم، وبأتي إنتاجه خلال لحظة إلهام، وأنه كي يخلق فنًا ينبغي عليه الانتظار حتى يهبط عليه الوحي أو تنزل عليه «العصفورة»، وأنه يتميز برومانسية غير واقعية، ولكن إذا نظرنا إلى سمات ثروت: «المثابرة، الإصرار،

العمل الجاد، امتصاص الثقافة وهضمها بكل أنواعها»، لوجدنا أنه يعمل حتى الآن ما لا يقل عن ثماني إلى عشر ساعات يوميًا. إن التناقض الشديد في سماته بين الرومانسية، والخيال، والدوجماتية، والإبداع الفني، مع الالتزام الشديد بالدقة والتفاصيل والموضوعية، يشير إلى أننا أمام فنان في ثوب عالم. نقول في مجال العلوم العصبية والنفسية إن الفص السائد في مخ هؤلاء الذين يكتبون بأيديهم اليمنى هو الفص الأيسر، وهو الفص المسؤول عن المنطق والسببية، والتنفيذ، والواقعية. أما الفص الأيمن فهو المسؤول عن «الزمن، والمسافات، والتذوق الجمالي، وإدراك المشاعر». وكأنما الفص الأيسر هو فص العالم، والفص الأيمن هو فص الفنان. وعادة ما يتميز الإنسان بتغلب أحد الفصين على الآخر، ولكننا نكتشف عند ثروت سيادة الفصين. وإلا فكيف نفسر نشأته كضابط في سلاح الفرسان وخوضه حرب ١٩٤٨، مع الولع الشديد بالاستماع إلى الموسيقى الكلاسيكية؟ كيف نفسر انضمامه إلى الإخوان المسلمين في بدء حياته، وأن يكون أحد مؤسسي تنظيم الضباط الأحرار، واشتراكه الفعلي والتنفيذي في خطة سلاح الفرسان ليلة الثورة، في الوقت نفسه الذي يتذوق فيه الأدب والفن والقراءة؟ كيف يكتب كتابًا عن الحرب الميكانيكية، وفي الوقت نفسه يترجم رومانسيات جبران خليل جبران إلى العربية، ويترجم في علم النفس كتاب «العودة إلى الإيمان»، ليثبت أن الإيمان هو أساس السعادة؟ كيف يكتب عن جنكيز خان، ثم يصدر كتاب «مولع بفاجنر»؟ كيف يتذوق ألحان الموسيقىقار ماهر، ويستمتع إلى الموسيقى الخفيفة؟ كيف يستمتع للأوبرا الإسبانية الأندلسية، كما يستمتع للموشحات العربية القديمة؟ كيف يترجم «فن الهوى» لأوفيد، ويعقبه بكتاب عن منمنمات الفنان الواسطي من خلال مقامات الحريري؟

نحن نلمس التناقض والانسجام والهارمونية في شخصية ثروت عندما يكتب عن شخصية فاجنر التي تتميز بكل سمات التعصب، والخيانة الزوجية، والغدر، والكذب، وغواية زوجات أصدقائه. كيف يقنعنا بأن إبداعه الفني يفوق خيال أي بشر! ثم ينتقل بعدها لشخصية حالمة هادئة سابحة في عالم الرومانسية والخيال هي شخصية جبران خليل جبران، ليترجم كل أعماله، من «النبى» إلى «حديقة النبى» إلى «عيسى ابن الإنسان» و«أرباب الأرض» و«رمل وزبد»...؟ وأيضًا اختياره لعنوان موسوعته «العين تسمع والأذن ترى»، والذي يحمل في رأيي المعنى العميق للتذوق الفني، فالبعض يقول إن الحواس الخمس تعمل في وقت واحد عندما يهز إدراك الفن وتذوقه النفس البشرية، فالتذوق الفني يجعل براعم التذوق في الفم تحس بالشعر، ويجعل العين تبصر الموسيقى، ويجعل الأذن ترى الصورة، ويجعل حاسة الشم تشبع بالصورة واللحن، وأخيرًا حتى حساسية الجلد تصبح هدفًا للتذوق الفني، أي أن الإنسان الذي يستطيع أن يسمع ويبصر ويشم ويتذوق ويحس بالموسيقى هو الذي يحقق الإشباع

الفني و يبلغ مرحلة تحقيق الذات. ولعل هذا هو ما دفع ثروت إلى إطلاق اسم «العين تسمع والأذن ترى» على موسوعته بدءًا من الفن الإغريقي والروماني والمصري القديم والقبطي والإسلامي حتى عصر النهضة وفن الباروك والروكوكو، بل تجاوز ذلك إلى ما يفيد بأن الإسلام لم يحرم التصوير، وأصدر كتبه الخمسة عن «التصوير الإسلامي»، ثم أردفها بسادس باللغة الإنجليزية عن الموضوع ذاته لأن الأزهر صادر كتابه عن التصوير العربي والديني. لكن رسالة ثروت للتنوير والإفاقة من التخلف الفكري جعلته يصمم على المضي في إصدار كتابه مع نشر نص مصادرة الأزهر في نهاية الكتاب ورده عليه.

يعتقد أحد علماء النفس العصريين، ويدعى «ماسلو»، أن تطور الإنسان وشخصيته يمران بعدة مراحل على شكل هرم، قاعدته هي الحاجات البيولوجية من طعام وشراب ومسكن ودفء، وأنه بدون هذه الحاجات لن يوجد انتماء أو دين أو وطنية أو تعليم أو ثقافة، وإذا أشبع الإنسان هذه الحاجات البيولوجية انتقل إلى الانتماء، ثم إلى القدرة على العطاء والحب، ثم التعليم، ثم الثقافة، ثم التذوق الفني والتنعم بمباهج الحياة. وهذه هي مرحلة تحقيق الذات، أي أن تحقيق الذات لا يكون من خلال القوة أو السلطة أو الجاه أو المال أو الجمال، بل من خلال القدرة على تذوق الحياة والفن. وأسرد هذه الحقائق لأدلل على أن شاغل ثروت خلال فترة توليه مسؤولية وزارة الثقافة كان أن يوفر للإنسان المصري تحقيق ذاته، فهو قد لا يستطيع أن يشبع الحاجات البيولوجية أو تنمية روح الانتماء أو العطاء للإنسان المصري لأن هذا دور السياسة، لكن من خلال التحرك الموسوعي في خطابه حاول أن يجعل المثقف المصري قادرًا على التحرك للوصول إلى تحقيق الذات.

إن الفروسية والشهامة وصون الكرامة التي يتميز بها ثروت، جعلته في عراق مستمر وخلاف مع بعض القيادات السياسية، فبعد ثورة يوليو عرض عليه عبد الناصر أن يكون أحد أعضاء مجلس الثورة، فأصر بـرجولة أن يتولى من هو أقدم منه رتبة، حسين الشافعي، هذا المنصب، قائلاً إنه سيستمر في سلاح الفرسان للدفاع عن الثورة، ثم أصبح رئيسًا لتحرير مجلة «التحرير»، أول مجلة للثورة. ولأنه حاول أن يقول الحقيقة فقد اختلف مع بعض أعضاء مجلس الثورة، وتم تعيينه ملحقًا عسكريًا في باريس. وأثناء عمله في هذه الوظيفة الحساسة حصل على معلومات تؤكد اتفاق فرنسا وإسرائيل وبريطانيا على الهجوم على مصر عام ١٩٥٦، وأرسل هذه المعلومات إلى الرئيس جمال عبد الناصر كما هو موثق في مذكرات ثروت وغيره. وأثناء قيامه بهذه الوظيفة كان يتقدم لرسالة الدكتوراه في الأدب العربي من جامعة السوربون عن «ابن قتيبة».

هذا هو المقصود من سردي المطول كي أصل إلى تحليل شخصية ثروت: التناقض والتفاني مع قطبي الواقعية والوطنية والرومانسية والإنسانية. وقد ترك ثروت منصبه كوزير للثقافة مرتين، كان بينهما رئيسًا لمجلس إدارة البنك الأهلي، حيث جعل البنك يقتني أجمل اللوحات المصورة والمنحوتات المصرية، وتبنى عدة مواقف ثقافية كمعظم البنوك العالمية، ودعا رينيه ويج عضو الأكاديمية الفرنسية لإعطاء محاضرات عن الثقافة والفن في مصر، ومضى بكل حماسه في مشوار تحصيل المعرفة، يزور المتاحف، ويزود نفسه بالزاد الفني والثقافي لموسوعاته الفنية، في الوقت نفسه الذي يؤدي فيه دوره السياسي.

إن هذه الأمثلة تعزز سيادة فصي مخ ثروت: الفص الأيسر؛ العالم الدقيق الموضوعي المنظم المثابر الجاد، مع الفص الأيمن؛ الفنان الرومانسي الشاعر المتذوق للفن بفروعه كافة، من موسيقى إلى أدب إلى شعر إلى تصوير إلى نحت، إلى الفروسية والشهامة والحفاظ على الكرامة، وهو التباين أو التناقض الذي لم أجده خلال احترافي للسلوك الإنساني لمدة أربعين عامًا، لم أجد هذا التزاوج بين الواقعية والرومانسية، أو هذا التناغم بين الرقة والشهامة، والعنف والإصرار.

لقد ضحى ثروت بصورته الاجتماعية والإعلامية في سبيل التحقق من الجدية والكيف، حيث كانت علاقته بالإعلام خلال فترة توليه مسؤولية وزارة الثقافة لا تتمتع بما يقال عنه اليوم «التلميع الإعلامي»! لأنه لم يهتم إلا بإرضاء فكره وضميره بما يحقق الارتفاع بالمستوى الثقافي والفني للمواطن المصري دون تلميع أو بهرجة.

تفرد ثروت بسيادة الفصين، الأيسر العالم، والأيمن الفنان، ولكني أود أيضًا إضافة المزج بين الشرق والغرب، أي أن اللاشعور الجمعي لثروت يدفعه إلى احتواء فن الإنسانية جمعاء بغض النظر عن الموطن. وكلنا نعلم نظرية العالم النفسي المتميز كارل جوستاف يونج، وكيف أنه اختلف مع فرويد في كثير من فلسفته، إذ يقول إن الإنسان عنده نوعان من اللاشعور (اللاشعور الجماعي، والخاص)، فعلى حين يشترك البشر كافة في مخاوفهم وأحلامهم والميل إلى المجهول والخوف من الغيبات، إلا أن لكل لاشعوره الخاص الذي يتشكل من تفاعل البيئة والوراثة. ولقد استطاع ثروت ترويض لاشعوره الجماعي حتى أصبح لاشعوره الخاص والجماعي وحدة متناسقة متجانسة تنهل في تآلف وتناغم من الشرق والغرب. فأثناء وجوده في باريس أخذ ينهل من الثقافة الفرنسية أدبًا وتصويرًا، وزياراته المتكررة للمتاحف، وتردده على المسارح وقاعات الموسيقى، في نفس الوقت الذي يعد فيه رسالة الدكتوراه عن «ابن

قتيبة». وهنا نستطيع القول إن تذوق ثروت للفن والموسيقى الغربية ينبع من خلال إحساسه الغريزي وتذوقه الخاص للفن العالمي، ولم يكتسبه من بيئته، ولو أن اختلاطه لسنوات مع الجاليات الأجنبية في الإسكندرية خلال صباه كان له بعض الأثر، حيث كان الوالدان لا يتذوقان إلا الفن والأدب الشرقي.

إذن، فقد رَوَّض ثروت نفسه لهذا التذوق الفني، كما كان راعبًا في تنوير كل من حوله. وأذكر في طفولتي أنني كنت أجلس بجانبه وهو يقرأ أو يكتب، ويطلب مني الاستماع معه إلى الموسيقى الكلاسيكية، وكان لا يبخل عليّ بشرح وتفسير غموضها، وبالطبع كان عليّ نظير ذلك أن أقوم بمهمة تغيير الأسطوانات لأن السيمفونية الواحدة في ذلك الوقت كانت تسجل على عدة أسطوانات، ولم يكن معروفًا بعد هذا التقدم العلمي الحالي في الاستماع الموسيقي.

ونستطيع تتبع سمات شخصية ثروت من طبيعة إنجازاته في وزارة الثقافة، حيث أثر الكيف على الكم، والعمق على السطحية، والجدية على الفهولة، والعمل في صمت على الدعاية الإعلامية. واستطاع وضع البنيات التحتية الأساسية للثقافة في الوطن، حيث كان أول من أنشأ أكاديمية الفنون من معاهد للمسرح والسينما والموسيقى والباليه والتذوق الفني، بل وجعل القبول لأول مرة في التاريخ بناء على المواهب وليس على أرقام الثانوية العامة، واختار رائد علم النفس الحديث الأستاذ الدكتور مصطفى سويف رئيسًا لهذه الأكاديمية حتى يضمن تخريج جيل من المؤهلين للقيام بالثورة الثقافية والفنية. كما أنشأ أوركسترا القاهرة السيمفوني، وفرقتي الباليه والأوبرا. لكن ذروة الإنجاز الثقافي الوطني هو مشروعه العظيم لإنقاذ معابد النوبة السبعة عشر، وفي مقدمتها معابد أبو سمبل وفيلة، بعد أن كان غرقها مؤكدًا بعد تشييد السد العالي، وذلك بإقناعه منظمة اليونسكو بالاشتراك في هذا المشروع الذي جند فيه مخزون النبل الكامن في الإنسان إذا ما واجه هدفًا ساميًا يقتضي الإسهام فيه. وكانت أول مرة في تاريخ الإنسانية تتضافر فيها الجهود الدولية لإنقاذ آثار فنية قديمة تعد تراثًا إنسانيًا عالميًا.

وقد احتفى ثروت أثناء توليه وزارة الثقافة بالتقاليد والتراث في كل أنواع الفنون الشرقية، ولكن هذا لم يمنعه من تزويد الساحة الثقافية بمكتسبات الغرب الفنية، وأنا لا أدعو ذلك «فرنجة»، لأن النهضة الحقيقية في الحضارة الإسلامية نبعت من تراجم أمهات المؤلفات اليونانية واللاتينية إلى اللغة العربية، ثم بعد دراسة وتأنٍ وعمل جاد أضاف إليها الفلاسفة والأدباء الجديد من عندهم، ثم ترجمت إلى اللاتينية، فكان المزج بين الشرق والغرب هو أساس عصر التنوير الإسلامي. كان الكثيرون ينتقدون ثروت على موقفه من

الإبقاء على تراث الفن الشرقي والعربي والإسلامي، في نفس الوقت الذي يستقبل فيه الفن الغربي، فلا مانع في رأيه من التمتع بصوت أم كلثوم وموسيقى عبد الوهاب، ولكن هذا لا يحول دون الغوص في تذوق فن الباليه وفن الأوبرا. كما أن رؤية مسرحيات عربية لرواد الأدب المسرحي المصري، لا تحول دون التمتع بمسرحيات عربية مترجمة عن الفن الغربي. ثم إن الاستماع للموسيقى الكلاسيكية لا يصادر تذوق الموسيقى الشرقية، ولذا كان تشجيعه لفرقة الموسيقى العربية متساوياً مع تشجيعه لفرقة القاهرة السيمفونية. ولقد كان إنشاؤه وتشجيعه لقصور الثقافة أو ما يُسمى بـ«الثقافة الجماهيرية»، يجري في نفس الوقت وبنفس الحماسة التي ينشئ بها ويشجع معاهد الباليه والكونسرفاتوار والسينما.

ويعتقد البعض أن ثروت تنقصه روح الفكاهة حيث ترسم على وجهه ملامح الحزم المقرون بالشجن، كما يبدو في معظم صوره جاداً صارماً. وهذا الانطباع يختلف كل الاختلاف عن شخصية ثروت المرحه، وحبه للفكاهة والدعابة، واستمتاعه بالجلسات المرحه التي تدوي فيها قهقهته العالية. وأكرر ثانياً مسألة هذا التناقض، فعند استغراقه في العمل ينسى المرح ويتسم بروح الجدية والصمت، وكم نجحت بين الحين والحين في اختراق صومعته وصمته بمكالمته على الهاتف لأحكي له طرفه تجعله يستغرق في الضحك، بل أحياناً ما يحدثني هاتفياً ليسألني عن آخر نكتة! وأعترف أنني كنت أوفق دائماً في أن أجعل ثروت الغاضب الجامح الثائر في حالة من الاسترخاء والمرونة والرحمة لأنني أعرف باطنه: الإنسان الطيب المحب للخير، الذي يثور في سبيل الحق والإتقان، لكنه سرعان ما يهدأ ويغفر أخطاء الآخرين. ننتقل إلى تناقض آخر، فلا شك أن سمات ثروت تكشف عن أنه يميل إلى الانطوائية، غير أن رأيي الخاص هو أن هذه الانطوائية هي بمثابة دفاع وحماية له من الانبساطية التي قد تحرمه من العمل الجاد والقراءة والكتابة لفترة طويلة ممتدة يومياً، فأثر أن يلتحف بعكس شخصيته، أما إذا رأيناه في جلسة يتوافق أثناءها مع الحاضرين ويكون في حالة استرخاء، فتتجلى على الفور ميوله الانبساطية.

إن عزوف ثروت عن الاختلاط، وتفضيله الانفراد بذاته، وسعادته وامتعته بالعزلة في صومعته بين الموسيقى والقراءة والكتابة، تنبع من اختياره الذاتي لأداء رسالته في التنوير الثقافي. وعلى الرغم من أنه أساساً الإنسان المرح الشغوف بكل متع الحياة، فإن انبساطيته انتقائية، أي أنه لا يشارك أي مجلس كان، ولكن إذا شارك فلا شك أنه يتألق نجمًا للحفل، بسخريته، وبروح الفكاهة، وثقافته الواسعة المتنوعة. وأكرر مرة أخرى أن التجهم الذي أحياناً ما يلاحظه البعض على ثروت ما هو إلا إحدى الحيل الدفاعية اللاشعورية التي تخفي طيبة متناهية، أما الغضب والعصبية اللذان يراودانه، إن حاد المسار عن الكمال

الذي ينشده، فهما يعكسان عجزه عن المرونة والتكيف في مجتمع يغلب عليه التسبب في كل شؤونه.

العاطفة عند ثروت جزء مكمل للفن، فهو ينظر للمرأة وكأنها أحد أجزاء الفن الموسوعي، ينشد فيها أنوثتها لا جسدها. وعاطفته ثابتة متقلبة في آن معًا: «ثابتة» طالما استطاعت المرأة الإيحاء إليه بما تنطوي عليه الحياة من جمال، وطالما هي قادرة على مسايرته في تذوق الجمال والتحليق في عالم النغم. و«متقلبة» حين يكتشف أن الطرف الآخر عاجز عن العروج معه إلى مراقبي المتعة الفنية. والراجح أنه ورث ذلك عن جدنا لأبي، الذي أقدم ذات مرة على الزواج من إحدى السيدات بعد أن سمعها تعزف على العود بإجادة، غير أنه لم يلبث أن اكتشف بعد زواجه منها أنها لا تعرف غير المقطوعة التي سمعها منها. ولما كان الدافع له إلى الزواج منها هو تقديره لها كفنانة، وإعجابه بأدائها الموسيقي، فقد طلقها على الفور، وكان ذا ميسرة، فعوضها ماديًا.

إن شخصية ثروت عسيرة الدراسة نظرًا لما تنطوي عليه من تنوع المجالات، فهي شخصية موسوعية، فعندما يكتب عن الفن الفرعوني أو الإسلامي أو الإغريقي أو في عصر النهضة، فهو يدرس الفن كوحدة متكاملة لا يفصل بين التصوير والنحت والموسيقى والمعمار والشعر والأدب، بل يحاول أن يجعل القارئ والمتذوق يدركها بطريقة «الجشطلت»⁽¹⁾، أي إدراك الكل وليس الجزء، بمعنى أن دراسات ثروت تعزز مقولة إن متعة الإبصار أو السمع أو الإحساس يمكن النفاذ إليها عن طريقة حاسة واحدة أو كل الحواس، فانت تدرك الموسيقى أو الصورة أو الشعر بالعين والأذن والأنف والفم والجلد. وإذا نظرنا إلى فسيولوجية الإدراك بالمخ لوجدناها تتوأكب مع فكر ثروت، فالعين آلة تنقل الإبصار للرؤية بالفص المؤخري للمخ، والأذن آلة، ولكننا نسمع بالفص الصدغي في المخ، وقد ينقل الأنف الإحساس بالشم، وكذلك ينقل الفم تذوق الطعام، وينقل الجلد حاسة اللمس، ولكن إدراك هذه المشاعر له مراكزه في المخ. وثمة منطقة في المخ بين الفص المؤخري والصدغي والجداري تُسمى «منطقة الترابط»، وهي التي تربط بين كل أحاسيس الإدراك، من إدراك الشعر إلى الموسيقى إلى الصورة. وقد استطاع ثروت من خلال تذوقه الجمعي (الجشطلتي) أن يجعل الفن وحدة متكاملة بحيث يستطيع الفرد أن يتذوق كل أنواع الفنون في جرعة واحدة، أي أنه بالاستماع إلى اللحن يستطيع أن يرى فيه اللوحة المصورة وقصيدة الشعر، وبإدراكه لجوهر الصورة يستطيع أن يسمع أنغام الألوان ولحن الحركة، وبمشاهدة النحت يستمع إلى هارمونية التجانس، وهكذا.

إنني أوؤمن بأن الخلود يكمن في كل ما له صلة بالجمال، نغمًا كان أو صورة أو كلمة، لا في المال أو القوة أو السلطان. وفي ظني أن ما قدمه شقيقي الأكبر من إسهامات جليلة صادقة في محراب الفن والجمال يجعله جديرًا بالمكانة المرموقة التي يحتلها في دنيا الثقافة والفنون.

أهدي هذا المقال تكريمًا للرجل الذي نجح في وضع حجر الأساس لثقافة التنوير في القرن العشرين، والذي سيمتد بإذن الله تعالى في عطائه للقرون القادمة.



المؤلف مع أخيه الدكتور ثروت عكاشه

المساندة الاجتماعية والتمركز حول الآخر والصحة النفسية

ظهرت في بعض الصحف بعض الإحصائيات تفيد بأنه يوجد في مصر ما لا يقل عن تسعة ملايين نسمة فوق سن الخامسة والثلاثين لم يتزوجوا بعد. ولا أعتقد بصحة هذا الخبر، نظرًا لأن ٤٠٪ من سكان مصر تحت سن الخامسة عشرة، أي حوالي ٢٨ مليونًا، ويوجد ما لا يقل عن ١٥ مليونًا بين سني الخامسة عشرة والثلاثين، ولذا فهذه النسبة مبالغ فيها، والمهم ليس في صحة أو خطأ هذه النسبة، ولكن لا شك أنه يوجد عدد كبير من الذكور والإناث محرومون من الزواج لأسباب اقتصادية واجتماعية، أو عدم وجود المسكن، أو للبطالة، إلخ، وهنا سأحاول أن أعطي تفسيرًا علميًا بأن السند الاجتماعي، ومنه الزواج، عامل قوي في الاحتفاظ بالصحة النفسية.

لقد ثبت من خلال تجارب عملية ومعملية أن الاغتراب والوحدة والانعزالية لها تأثير مدمر على الصحة النفسية، فكثير من المهاجرين، أو هؤلاء الذين يطلبون الرزق في الخارج، أو هؤلاء الذين يكملون دراستهم الأكاديمية في الخارج، مع تعرضهم لحضارة وثقافة مختلفتين، ولغة غريبة، وصعوبة في التواصل الاجتماعي، يعانون من أمراض نفسية مختلفة، بل بعضهم ينهون أعمالهم أو دراستهم في الخارج لما أصابهم من خلل في الصحة النفسية مما أثر على عملهم أو دراستهم بل وجودة الحياة.

سأورد هنا دراسة مهمة سواء على الفئران أو الشمبانزي، وسأعقبها بالتشابه مع السلوك الإنساني، وقبل سرد التجربة، يجب أن نعلم أنه يوجد في المخ جهاز ومسار يُسمى «نظام المكافأة واللذة»، وله مركز واتصالات عصبية تبدأ من قاع المخ إلى المخ الأمامي، والفص الحدي المسؤول عن العواطف والانفعالات، وكذلك يوجد أحد فصوص المخ المُسمى «فرس البحر»، نظرًا لتشابه الشكل الخارجي بفرس البحر، وهذا الفص مسؤول عن التنسيق في عملية التعليم، والتركيز، والعواطف، والحوافز، وكذلك التكيف مع الظروف الخارجية وكروب الحياة، ولذا نستطيع القول إن طمأنينة الإنسان، وإحساسه بالإنجاز وتحقيق الذات، وخلق المزاج من الهم والكرب، يعتمد على عمل هذين المركزين: جهاز المكافأة واللذة، وفص فرس البحر. وبالطبع يمكن قياس نشاط هذين المركزين بوضع مقياس على مخ الفئران أو القردة لقياس النشاط الكهربائي، بل وأخذ عينات من هذه المناطق لقياس نسبة الموصلات العصبية المسؤولة عن الحالة النفسية، وكذلك بفحص النمو وزيادة الخلايا

العصية في هذه المنطقة بتأثير التنبيه الاجتماعي. وقامت التجربة بوضع الفئران أو القردة وسط الكثير من أبناء وبنات جنسها وكأنها عائلة ممتدة، ووضع البعض الآخر في غرف منفصلة، وتتشابه كل الظروف الأخرى من طعام وشراب ودرجة حرارة، إلخ، وبعد عدة أسابيع بدأ قياس الموصلات العصبية والنشاط الكهربائي في المراكز التي تبعث البهجة والطمأنينة، فوجد اختلاف شديد. فهؤلاء الذين أقاموا في نسيج اجتماعي وتبادلوا الانفعالات كانت حالتهم النفسية طبيعية، ونشاط المراكز المسؤولة في حالة من اليقظة والانتباه. أما هؤلاء المنعزلون في وحدة، فقد أصابهم اليأس والعجز، والتوقف التام عن النشاط النفسي، مما يدل على أن النسيج الاجتماعي يؤثر كيميائياً على مراكز المخ المسؤولة عن البهجة واللذة، بل إن أحد البحوث الأخيرة أثبت أن وجود الإنسان في نسيج اجتماعي دافئ به الحنان والحب يزيد من تكوين الخلايا العصبية والنسيج الدماغي في هذه المراكز، أي أن السند الاجتماعي يغير ليس فقط في وظائف المخ بل حتى في النمو التشريحي الدماغي. وتدلل هذه الدراسة أن السند الاجتماعي عامل أساسي في الهارمونية النفسية، وذلك من خلال تأثيره على الموصلات العصبية المسؤولة عن المزاج والعواطف في فصوص المخ المختلفة، وكذلك تأثيره في نمو الخلايا العصبية في هذه المنطقة في المخ وتأثيرها الإيجابي على الحالة النفسية.

أظهرت الدراسات الانتشارية المتعددة في منظمة الصحة العالمية في بلاد العالم المختلفة أن مآل مرضى الفصام (السكيزوفرنيا)، وهو أخطر الأمراض العقلية، أفضل بكثير في البلاد النامية عنه في البلاد المتقدمة، على الرغم من قلة الخدمات النفسية المختلفة، كالأطباء وكافة العاملين في حقل الصحة النفسية، وندرة العلاج الكيميائي والنفسي المتاح لمرضى البلاد النامية، ونقص خدمة علاج المتابعة. ولن نستطيع تفسير هذه الظاهرة إلا أنه في الدول النامية ما زالت الأسرة تعيش فيما يُسمى «العائلة الممتدة»، أي أن صلة القرابة، والاتصال بالأقرباء، والبيت الكبير، والسند الاجتماعي الأسري، يعطي مناعة وحماية ضد كل المسببات الكيميائية والفسولوجية لمرضى الفصام. أي أن ما سبق ذكره، في مراكز المكافأة وفرس البحر والنمو في نسيج المخ وثروة الاتصال الكيميائي، يتأثر بالعائلة الكبيرة. فالسند الاجتماعي له أثره في شفاء مرضى الفصام مثل العلاج الكيميائي إن لم يتفوق عليه.

كذلك تثير الدهشة زيادة نسبة مرض الفصام في البلاد الاسكندنافية عنها في البلاد الأوروبية المختلفة، ولا يوجد تفسير علمي واضح لهذا الاختلاف، إلا أنه في هذه البلاد يعيشون في مجتمعات متفرقة، بل قد يبعد المنزل عن الآخر بحوالي خمسمائة متر، وهنا تكون العزلة وعدم وجود السند الاجتماعي من

بين أسباب زيادة انتشار مرض الفصام. وهنا نستطيع القول إن الوحدة والعزلة أثرتا على نمو النسيج العصبي في المخ، وكذلك في الموصلات العصبية، مما سبب تفجير المرض. كذلك تدل الأبحاث المختلفة على أن الزواج لمرضى الفصام الذكور والسند الاجتماعي من الزوجة يحد من استمرار وتدهور المرض، وللأسف لا ينطبق ذلك على الأنثى حيث إن مسؤولية الزواج تتضاعف مقارنة بالرجل.

وإذا أفردنا بعض المعلومات عن اضطراب الاكتئاب، نجده يعتبر ثاني الأمراض بعد أمراض القلب سببًا في العجز والعبء، وبين النساء يعتبر المرض الأول المسبب للعجز وعدم القدرة على العمل، ومن أكثر الأمراض انتشارًا، فهو يصيب ما لا يقل عن 5-7٪ من مجموع أي شعب. وأحب أن أנוه هنا إلى أن الاكتئاب اضطراب كيميائي في الدماغ، وهو يختلف عن الحزن والأسى والنكد والغضب، وهي تغيرات مزاجية حياتية طبيعية.

يسألني الكثير من الطلبة والأصدقاء ورجال الإعلام: ما هي أحسن وقاية ضد الاكتئاب؟ وعلى الرغم من التقدم المذهل في التكنولوجيا وعلاج الاكتئاب فما زالت المساندة الاجتماعية، والصداقة الحميمة، والتواصل الإنساني، هي الوقاية المثلى ضد مرض الاكتئاب.

يتوقع الباحثون زيادة معدل الاكتئاب في السنوات القادمة، ومن بين الأسباب: زيادة عمر الإنسان، وتفكك الأسرة، وهجرة الأولاد، وبقاء المسنين في حالة من العزلة الاجتماعية وفي حالة من الحرمان من المساندة الاجتماعية. يعتقد البعض أن الكثرة السكانية والازدحام تزيد من المساندة الاجتماعية، وعلميًا هذه فكرة خاطئة، فكلما ازداد الزحام والتكدس السكاني تفرد الإنسان بالأنانية، وعدم الاكتراث بالغير، وتمركز حول ذاته وأسرته، فلا يسأل عن الأصدقاء أو الجيران، ويصبح محاصرًا بالازدحام، مما يجعله في حالة من الاغتراب والاستغراق الذاتي. والصحة النفسية هي التمركز ومساندة الغير، أما المرض النفسي فهو التمركز حول الذات. وإذا نظرنا إلى القاهرة نجدها أكثر بلاد العالم ازدحامًا، إذ يعيش ٥٢ ألفًا في كل كيلومتر مربع، مما يجعل المساحة الجغرافية المتاحة للفرد محدودة، مما يسبب العزلة الاجتماعية، والكفاح للبقاء وليس للإبداع أو الخلق أو العمل.

مما سبق نستطيع استنباط بعض الحقائق، وهي أن المساندة الاجتماعية ليست فقط حماية ضد الأمراض النفسية المختلفة من فصام واكتئاب وغيرها، ولكنها كفيلة بتغيير مطاوعة ولدونة المخ، وقدرته على زيادة النسيج الدماغي وخلايا المخ في مراكز المزاج والانفعال. المساندة الاجتماعية قادرة على

إعطاء الفرد القدرة على الإبداع والخلق، بل إنها تواكب الحالة المزاجية المبهجة، والانتباه واليقظة اللازمين لأي عمل ناجح، وأحد تعريفات الصحة النفسية هو أن تعمل وتحب بكفاءة، والمرض النفسي يؤثر على العمل والحب والعطاء.

يذكرني ذلك بإحدى مسرحيات الفيلسوف جان بول سارتر، حين يموت أحد الأفراد، وكانت حياته مملوءة بالرديلة والفسق والاستهتار، ويقابل في العالم الآخر الملاك المسؤول، وسرعان ما يتضح له أن مصيره جهنم، ثم يُقاد إلى شقة مفروشة بأثاث أنيق، مكيفة الهواء، بها كل المباح، ويأتي بعد فترة وجيزة الساقى ليعطيه قائمة بالمأكولات والمشروبات، ويتعجب صاحبنا من هذه المعاملة الفائقة في جهنم، ويسأل الساقى عن الجنة، فيجيبه بأنها نفس المساكن ونفس الطعام ونفس الشراب، فيتساءل أين النار والتعذيب، إلخ؟ فلا يرد الساقى، وبعد فترة وجيزة يأتي الآخر في نفس الشقة، ثم يأتي الآخر، وتزدحم الشقة بأناس لا يستطيع أي إنسان معاشرتهم من طباعهم السيئة وغلاسة سلوكهم ونمطية كلامهم وثقل ظلهم، وتمر الأيام ولا يستطيع تحمل العذاب، ويذهب للملاك ويقول له أفصل النار والنهية على أن أستمّر في هذا المناخ. الجنة هي أناس تسعد بلقائهم ومحادثتهم، أي أن جان بول سارتر يريد أن يبعث برسالة أنه في الحياة والآخرة السعادة هي في الصحة والإنسان الآخر، وينطبق ذلك على المثل الشعبي: «الجنة من غير ناس ما تنداس».

تدل الإحصائيات في مصر وكل البلاد العربية على تأخر سن الزواج، وأحيانًا عدم القدرة على الزواج نظرًا لتكاليفه الباهظة سواء من ناحية الزوج أو الزوجة، والاهتمام بالمظاهر الخارجية، والمنافسات بين الأسر، وعدم اقتناع الوالدين بقدرة الزوج أو الزوجة المحدودة، مما يؤجل الزواج. كما يزيد على ذلك البطالة بين خريجي الجامعات والمعاهد، سواء بين الذكور أو الإناث، وعدم وجود السكن المناسب أو إصرار الأسر على السكن في المستوى الذي وصل إليه الوالدان بعد عمر ومشوار طويل!

إن تأجيل الزواج وانتشار العنوسة أو العزوبة مشكلة اجتماعية عامة، يجب تداركها من صانعي القرار السياسي، والمساندة الاجتماعية في الزواج تلعب دورًا رئيسيًا في إحساس المرء بالانتماء، ومن ثمّ العمل والإنتاج وتقدم الأمة اقتصاديًا. إن الارتباط الأسري والنسيج الاجتماعي والزواج عوامل مهمة للحماية من الاكتئاب، ومن عدة أمراض نفسية مختلفة، وهي عوامل مهمة لإنماء النسيج الدماغي والخلايا العصبية في المخ، وهذه تؤثر في التفكير والوجدان والإرادة والذاكرة والطموح، وتجعل الفرد قادرًا على الإبداع والخلق.

دعنا نأمل في أن تعود الطمأنينة إلى نفوسنا، وأن نحب ونعطي للآخر، وأن نجد الوقت للمشاركة الإنسانية مع الآخرين في السعادة، والإنجاز في المساندة الاجتماعية، ونلفظ الحقد والكراهية اللذين يترعرعان في مناخ الاغتراب، والتمركز حول النفس وإيثار الذات.

الحملة الوطنية لإزالة وصمة المرض النفسي

المعاناة النفسية مثل أي مرض له علاج

بدأت وصمة المرض النفسي عندما تم فصل الجسد عن النفس، فقدماء المصريين كان عندهم المرض النفسي مكانه في القلب أو الرحم (الهستيريا). وقد ذُكرت كل الأمراض النفسية في بردية «إبر» المخصصة لأمراض القلب أو بردية «كاهون» عن أمراض الرحم، وكان المرضى يعالجون على أنهم مرضى بالقلب، وبالطبع لا توجد وصمة. وكلمة «Psychiatry»، أي الطب النفسي، بدأت في عام ١٨٠٨، ومعناها الحرفي «العلاج الطبي للروح»، وأصبحت الآن «العلوم العصبية» (سواء السلوكية أو العضوية).

في القرون الوسطى كان المرض النفسي يؤول على أنه مس من الجن أو الشياطين أو أرواح شريرة، وكانوا يعذبون ويحرقون في أوروبا.

كان الغرض من المستشفى العقلي هو إيداع المريض فيه لحماية المجتمع من خطورته، ولا يوجد علاج، حيث إن المرض النفسي سواء في التفكير، أو الإرادة، أو العواطف، أو الإدراك، مركزه هو المخ.

واكتُشف العلاج لمعظم الأمراض النفسية، وأصبحت كل المستشفيات العامة والمستشفيات الجامعية بها أقسام للطب النفسي مع مستشفيات وزارة الصحة (١٧ مستشفى). والآن تتجه معظم بلاد العالم إلى بناء مستشفيات أو أقسام للطب النفسي مثل باقي التخصصات داخل المدينة، وليس على أطرافها، وأصبح المريض النفسي يعامل مثل مريض القلب أو السكر أو السرطان، وله كل حقوق المريض.

ومع ازدياد الاضطرابات النفسية الشائعة في جميع أنحاء العالم، زاد عدد الأشخاص الذين يعانون من الاكتئاب و/أو القلق من ٤١٦ مليونًا إلى ٦١٥ مليونًا، أي بنسبة ٥٠٪ تقريبًا، وتمثل الاضطرابات النفسية ٣٨٪ من العبء العالمي للأمراض.

أجرت منظمة الصحة العالمية دراسة جديدة لحساب تكاليف العلاج والحصائل الصحية في ٣٦ بلدًا من البلدان المنخفضة والمتوسطة والمرتفعة الدخل على مدى خمسة عشر عامًا (من عام ٢٠١٦ إلى عام ٢٠٣٠)، ووجدت أن الاستثمار الحالي في خدمات الصحة النفسية يقل بكثير عن اللازم. فوفقًا لمسح عام ٢٠١٤ لأطلس الصحة النفسية التابع لمنظمة الصحة العالمية، تنفق الحكومات

٣٪ في المتوسط من ميزانيات الصحة الخاصة بها على الصحة النفسية، وتتراوح النسبة من ١٪ في البلدان المنخفضة الدخل، إلى ٥٪ في البلدان المرتفعة الدخل. وأوضحت هذه الدراسة أن الاستثمار في مجال الصحة النفسية معقول على ما يبدو من الناحية الاقتصادية، لأن استثمار كل دولار أمريكي في تحسين علاج الاكتئاب والقلق يحقق عائداً قدره ٥ دولارات أمريكية في ميدان تحسين صحة الفرد وزيادة قدرته على العمل، حيث إن الاكتئاب والقلق يسببان نقصاً في الإنتاج مما يكلف ١٢ مليار إسترليني، أي ١٪ من الدخل القومي، بينما العلاج يكلف ٠.٦ مليار.

إن الصحة النفسية يجب أن تُعد أولوية إنسانية وإنمائية عالمية، وأولوية في كل بلد من البلدان. ويلزم علينا أن نوفر العلاج الآن لمن هم في أمس الحاجة إليه، وفي المجتمعات المحلية التي يعيشون فيها. وإلى أن نقوم بذلك، سيظل المرض النفسي يقوض إمكانيات الناس والاقتصاد.

إن الاستثمار في مجال الصحة النفسية معقول على ما يبدو من الناحية الاقتصادية، لأن استثمار كل دولار أمريكي واحد في تحسين علاج الاكتئاب والقلق يحقق عائداً قدره أربعة دولارات أمريكية في ميدان تحسين صحة الفرد وزيادة قدرته على العمل.

يزيد الاكتئاب من خطورة الإصابة باضطرابات وأمراض ناجمة عن استعمال المواد، مثل داء السكري وأمراض القلب والسرطان. ويوجد في العالم الآن ما يزيد على خمسمائة مليون نسمة يعانون من الاضطرابات النفسية، ويشكل المرض النفسي واحداً من كل أربعة.

لقد بلغ مرضى الاكتئاب في العالم حوالي مائة وأربعين مليون نسمة، وفي مصر حوالي مليون وأربعمائة ألف. أما حالات الفصام في العالم فيقدر عددها الآن بحوالي خمسين مليون نسمة، والفصام يمثل حوالي ثمانمائة ألف في مصر.

تقيس منظمة الصحة العالمية للأمراض المختلفة بما تم تسميته عبء المرض، أي عدد السنوات في الغياب عن العمل أو الدراسة والوفاة المبكرة، وحالياً يعتبر الاكتئاب أكثر الأمراض عبثاً في النساء، أما في الرجال فهو الثالث، ومن المنتظر أنه في عام ٢٠٣٠ سيكون العبء الأول للرجال والنساء. إن مريض السرطان أو القلب لا يقدم على الانتحار إلا إذا صاحبه الاكتئاب.

إن عدد المنتحرين في العالم حوالي مليون نسمة، ٧٠٪ منهم يعانون من الاكتئاب، لذا فإن علاج الاكتئاب والمرض النفسي هو استثمار لاقتصاد الأمة.

وفي دراسة حديثة في لندن من كلية الاقتصاد البريطانية، ثبت أن علاج الاكتئاب وعودة المرضى للعمل والمشاركة تزيد من الناتج القومي ٣٪.

إن التعريف الجديد للإدمان هو أنه مرض مزمن عصبي في المخ قابل للانتكاس، ويؤثر في مراكز التحفيز والعاطفة والذاكرة مثل مرض السكر والقلب، إلخ.

لقد بدأ علاج الفصام (عدم التكامل العصبي، أو خلل في توصيلات الدوائر العصبية) عام ١٩٥٢ في باريس، وكان عقار الكلوربرومازين بمثابة أول عقار لهذا المرض، ثم تتابع علاج مرضى الفصام بعقاقير مختلفة حتى الآن، سواء عن طريق الحبوب، أو النقط، أو حبوب تذوب في الفم، أو حقن قصيرة المدى وطويلة المدى، ثم حقن كل أسبوعين، ثم كل ثلاثة أسابيع، ثم كل شهر، والآن كل ثلاثة أشهر. إن هذه العلاجات جعلت ما لا يقل عن ٩٩٪ من مرضى النفس يعالجون في العيادة ويمكنون مع أسرهم، و١٪ فقط الذين يحتاجون إلى الدخول إلى المستشفيات. لذا فإن علاج المرض النفسي الآن بالدواء والعلاج النفسي يقلل من العلاج بالمستشفى أو النكسات، مما يجعل المريض يعيش ويعمل ويتزوج بطريقة مجتمعية، ويغير مفهوم الأمراض النفسية والفصام، ويجعل المريض النفسي يعامل كمريض السكر أو الضغط أو القلب أو السرطان.

إن وصمة المرض النفسي، وتهميش المريض النفسي والابتعاد عنه ونبذه من الجيران، ونظرة الأطفال له على أنه مجنون ويجب الحذر منه والابتعاد عنه، والخوف من التقرب إليه، تؤثر في المريض بطريقة سلبية، وتجعله يفقد ثقته بنفسه، ويصاب بانخفاض في الروح المعنوية وعدم قدرة على الاختلاط والعمل، مما يشكل العجز في التكافل الأسري، وزيادة حالات الطلاق، والامتناع عن العمل، بل إن اللجوء للمخدرات منتشر بينهم للهروب من الوصمة (حوالي ٣٠-٤٠٪)، وكذلك قد ينتشر الانتحار بنسبة تتراوح من ١٢-١٥٪.

إن المريض النفسي لا يحظى بالعناية إذا أصيب بأمراض في القلب، أو الضغط، أو السكر، أو السرطان، لأنه مريض نفسي. مما جعل المرض النفسي يقلل من عمر الإنسان حوالي ١٥ عامًا.

تشير منظمة الصحة العالمية إلى أنه حتى الآن فإن نسبة عدم علاج المرضى النفسيين في العالم كالآتي: الفصام ٤٠٪، الاكتئاب الجسيم ٥٠٪، اضطراب تناول الكحوليات والمخدرات ٩٠٪، الاضطرابات النفسية في سن الطفولة والمراهقة ٩٠٪.

ومن هنا، وجب على الإعلام الحذر، وعدم الإساءة للمريض النفسي، سواء عن طريق السخرية أو حتى بواسطة عرض أي محتوى أو مناقشة أي أمر يخص المرض النفسي خارج نطاق الأطباء النفسيين ودون دراسة أو دراية بفحوى المرض النفسي، وذلك للحد من انتشار وصمة المرض النفسي، حيث إنه، على سبيل المثال، لا يوجد في الطب النفسي اضطراب أو مرض يُسمى بـ«الجنون»، وقد ذُكرت كلمة «الجنون» في القرآن الكريم وصفًا للأنبياء بواسطة الشعوب، حيث إن تعاليمهم كانت مختلفة عن فكر المجتمع. وأساء الإعلام المرئي والمقروء إلى صورة المريض النفسي في الإعلام، وما كان الناس يرونه في السينما والمسلسلات لا يعبر عن حقيقة المريض النفسي، بل معظمها تصورات خاطئة. وتدرجيًا أصبحت معظم الأفلام التي تحصل على الأوسكار هي ما تصف المريض النفسي وعلاجه. وأصبح الكثير من المشهورين والمشهورات لا يخلون من البوح في الإعلام بأنهم مروا بفترة من الاكتئاب، أو ثنائي القطب، أو حتى الفصام، وأنهم الآن في حالة توافق مع أنفسهم ويقومون بدورهم في المجتمع. وتذكر فيلم «العقل الجميل» الذي تكلم عن حياة جون ناش، والذي كان مصابًا بالفصام، وقد حاز جائزة نوبل في الفيزياء. فالمرض النفسي ليس وصمة، بل هو مرادف للإبداع والاختلاف.

وهناك بعض الاعتقادات الخاطئة التي سنوضح حقيقتها العلمية هنا:

● الاعتقاد الخاطئ: «إن الفصام هو ازدواج في الشخصية». والحقيقة: الفصام مرض نفسي وليس ازدواجًا في الشخصية (الازدواج حالة هستيرية انشقاقية مؤقتة)، ومن ثمَّ فإنَّ الفصام (كنموذج) هو اضطراب في التفكير (محتواه وشكله)، والإحساس، والوجدان، والعواطف، والتصرفات، والانفعالات.

● الاعتقاد الخاطئ: «إن الفصام يتسبب من الأرواح الشريرة أو السحر أو العمل». والحقيقة: على الرغم من أن الفصام مرض عضوي بالمخ (اضطراب كيميائي في توصيلات الدوائر العصبية في المخ) يمكن علاجه، فإن جزءًا كبيرًا من العالم يعتقد أن الفصام يحدث نتيجة لتقمص الأرواح الشريرة والجان والسحر واللبس، ويشيع هذا الاعتقاد في كثير من المجتمعات، ويؤدي إلى تأخر العرض على الطبيب المتخصص، وعدم الالتزام بما يصفه من العلاج الدوائي، وبالتالي التعرض للانتكاس وتأخر الشفاء.

● الاعتقاد الخاطئ: «إن المريض بالمرض النفسي أو الفصام لا يُشفى منه». والحقيقة: الفصام ليس مرضًا يتدهور بصفة مستمرة لأن هناك نسبة كبيرة تُشفى منه مع العلاج، فالتصور الخاطئ بأن الفصام لا شفاء منه أبدًا يؤدي إلى اليأس والإهمال وفقدان الأمل والابتعاد وتخلي الأسرة عن المريض وما

يصاحب ذلك من الإحباط. ولنتذكر في هذا الصدد أن المرضى الذين يشكون من الأمراض العضوية (كالضغط أو السكر أو أمراض القلب) لا يخلون من ذكرها والتحدث عنها (وخاصة من تم شفاؤهم أو علاجهم)، ولكنهم لا يفعلون نفس الشيء فيما يخص الفصام (مع أنه مرض عضوي بالمخ) تفادياً للنظرة الدونية أو الخزي والامتعاض أو السمعة السيئة، نظرًا لأن جزءًا كبيرًا من المجتمع يجهل معنى هذا المرض ولا يعرف شيئًا عن كيفية حدوثه أو علاجه.

● الاعتقاد الخاطئ: «إن فشل الأهل في التربية والتنشئة يسبب المرض النفسي». والحقيقة: الأطباء النفسيون منذ زمن فرويد والتحليل النفسي، وكذلك علماء النفس والاجتماع، قد اعتبروا الأسرة الركيزة الأساسية في تكوين شخصية الإنسان الفرد وما قد تعانیه من المرض النفسي - واهتم الكثيرون بالأسرة لتوضيح القوى المحركة لإحداث المرض. وعلى الرغم مما بذل من الجهود في هذا الصدد، فلا يوجد دليل على أن الجو الأسري أو سوء أو فشل الأهل في التربية يسبب المرض النفسي. الفصام ليس انحرافًا أخلاقيًا أو سوء تربية، بل هو مرض في الجهاز العصبي المركزي (العقل) يسبب اضطرابات في التفكير والأحاسيس والمشاعر تنعكس في التصرفات. ومثلما تؤدي جلطات المخ إلى شلل حركي، فالفصام يسبب اضطرابًا وارتباكًا في وظائف التفكير والمنطق والإنجاز الوظيفي.

● الاعتقاد الخاطئ: «إن الاضطراب النفسي مرض معدٍ». والحقيقة: الاضطرابات النفسية ليست مرضًا معديًا، وعلى الرغم من ذلك فإن الاعتقاد الخاطئ السائد بأن أعراض الاضطراب النفسي أعراض معدية اعتقاد شائع ومنتشر في جميع أنحاء العالم، سواء في الدول المتقدمة أو النامية، حيث يشكل أرضية للتعصب والتفرقة وأحيانًا السخرية ضد المرضى النفسيين، وضد من يعانون من المرض النفسي، ولعل هذا التبرير الخبيث من جانب أفراد المجتمع وحملة المعاداة للمرضى النفسيين يقلل من شعور الناس بالذنب وحكمهم الجائر إزاء هؤلاء المرضى.

● الاعتقاد الخاطئ: «إن معظم من يعانون من الاضطراب النفسي غير قادرين على العمل أو الزواج أو الحصول على بطولات». والحقيقة: من يعانون من الاضطراب النفسي يستطيعون العمل حتى لو ظهرت عليهم أعراض المرض، فالعمل يساعد على الشفاء من الاضطراب النفسي، ويساعد في التخفيف على المريض من إحساسه بقلّة الكفاءة وعدم الأهمية، ويشعره بدوره في الحياة.

● الاعتقاد الخاطئ: «إن المضطرب نفسيًا يعاني عادة من العجز الذهني».
والحقيقة: على الرغم من أن هناك الكثير من الخلط بين من يعاني من الفصام ومن لديه عجز ذهني، فإن الفصام والعجز الذهني حالتان مختلفتان أشد الاختلاف، حيث إن التخلف أو التأخر العقلي هو توقف أو بطء النمو العقلي بما لا يتماشى مع النمو أو العمر الزمني (السن)، أما الفصام فهو اضطراب في التفكير والعواطف والتصرفات والإحساس، وغالبًا ما يظهر في فترة المراهقة المتأخرة أو بعدها.

● الاعتقاد الخاطئ: «إن الناس الذين يعانون من أمراض عصابية أو ذهانية يجب حجزهم بالمستشفيات».
والحقيقة: الدراسات الحديثة أظهرت أن كثيرًا من الحلول الأخرى المتنوعة البديلة عن المستشفيات، والتي تشمل إلحاق المريض ببرامج شاملة داخل المجتمع، يمكن أن تكون فعّالة في إنجاز العلاج. ويمكن علاجهم داخل أسرهم لو التزم المريض بالعلاج، مع تعضيد أسرته ومساندتها له. وحاليًا يعالج حوالي ٩٠٪ من مرضى الفصام خارج المستشفى.

● الاعتقاد الخاطئ: «إن السجن (أو الحجز أو الحجر على المرضى النفسيين) هو أفضل وأنسب مكان لمن يعانون من الفصام».
والحقيقة: الناس الذين يعانون من الفصام يجب ألا يحجزوا في السجن أو يحجز عليهم، حيث إن هؤلاء تتدهور حالتهم إلى الأسوأ لو جرى علاجهم بالعقاب أو الحجز غير الضروري، حيث إن غالبية المرضى من سن ١٧-٢٣، فالبعض يعتقد أن العادة الشبابية هي سبب الفصام.

● الاعتقاد الخاطئ: «إن من يعاني من المرض النفسي يميل إلى العنف».
والحقيقة: من يعاني من المرض النفسي لا يميل إلى العنف، بل إن الدراسات تظهر أن نسبة تواتر ظهور العنف بين هؤلاء أقل من ظهور العنف لدى الأشخاص الطبيعيين. والمؤسف في هذا الصدد أن وسائل الإعلام والصحف كثيرًا ما تهتم بهذه الحوادث وتبرز دور المرض النفسي كمسبب لها دون أن تدري العواقب الوخيمة التي تلحق هؤلاء المرضى، وما تخلقه من الجو المعادي لمن يعانون من المرض النفسي ومشاعر السلبية والنفور تجاههم وتجاه أسرهم. إن نسبة ٨٥٪ من العنف والقتل تكون في هؤلاء الذين يوصفون بأنهم طبيعيون.

● الاعتقاد الخاطئ: «إن الصالحين والأتقياء لا يمكن أن يصيبهم المرض النفسي نظرًا لما يعتقدونه الكثيرون من أن الفصام إنما يُعزى فقط لتسلط الشيطان على ضعاف الإيمان».
والحقيقة: الفصام مرض عضوي في المخ مثله مثل بقية الأمراض التي تصيب أعضاء الجسم، كأمراض القلب أو

الشرابين أو المعدة أو الكلى أو العضلات أو العيون أو السكر، وإنه يعالج كما تعالج هذه الأمراض بالأدوية المناسبة، وإنه يحتاج مع الأدوية إلى علاجات نفسية ومساندة اجتماعية من الأسرة، فالفصام بالقطع ليس خروجًا عن الدين أو الإيمان أو الأخلاق، وليس ضعفًا في الإيمان أبدًا.

● الاعتقاد الخاطئ: «إن الأدوية النفسية ما هي إلا مهدئات ومسكنات ونوع من المخدرات، وإنها تؤدي إلى الإدمان». والحقيقة: الأدوية النفسية لا تؤدي إلى الإدمان مطلقًا وذلك إذا استخدمت لفترات طويلة وتحت الإشراف الطبي المباشر، بل إن الأدوية النفسية ذات فعالية في علاج بعض الحالات العضوية غير النفسية الأخرى، كالصداع النصفي أو بعض اضطرابات الجهاز الحركي، بل إن العلاجات المضادة لأمراض الطب النفسي لا قيود على شرائها من الصيدليات أو الحصول عليها، وكثير منها رخيص الثمن.

● الاعتقاد الخاطئ: «يرى بعض الناس أنه لا فائدة من الأدوية النفسية لما يلاحظونه من عدم شفاء بعض المرضى على الرغم من استخدامهم لتلك الأدوية النفسية لفترة طويلة، ولذلك فإن تلك الأدوية - في نظرهم - هي مجرد مسكنات ومهدئات أو منومات». والحقيقة: الأثر الفعّال لبعض الأدوية النفسية يستغرق بعض الوقت في الظهور، وإنه يلزم في بعض الأحيان تعديل الجرعة أو اختيار العلاج المناسب بواسطة الطبيب النفسي المختص، إلا أن تحسن المريض وزوال الأعراض لا يعني الشفاء التام وليس معناه إيقاف الدواء، بل يجب الاستمرار فيه حسب التوصية الطبية. والفصام كغيره من الأمراض العضوية، فمن المرضى من يستجيب للعلاج استجابة كاملة، ومنهم من يستجيب جزئيًا، ومنهم من لا يستجيب إلا بدرجة ضئيلة، ولكنه مثل أمراض السكر والقلب والضغط يلزم استمرار العلاج مع اتباع نظام حياتي مناسب. وليس بالدواء فقط يُشفى المريض، فالأدوية النفسية المضادة للفصام ضرورية ومهمة وفعّالة لمعالجة الفصام وليست علاجًا مسكنًا وقتيًا.

● الاعتقاد الخاطئ: «يرى بعض الناس أن الطب النفسي والعلاج مجرد جلسات كلامية». والحقيقة: العلاج الطبي النفسي ليس مجرد حوار بين الطبيب والمريض، بل يشمل الأدوية النفسية والجلسات النفسية والعلاج الجمعي والعلاج السلوكي والعلاج المعرفي والعلاج بالمنظمات الفيزيائية لضبط الإيقاع الحيوي للمخ والعلاج الاجتماعي والمساندة الأسرية. ومع أن الدواء يمثل العنصر الأساسي والضروري لعلاج الفصام، فإنه يلزم تكامله مع العلاجات الأخرى المدعمة.

● الاعتقاد الخاطئ: «بنى كثير من الناس مفهومهم للفصام وتصورهم له بناء على ما تقدمه وسائل الإعلام وتصويرها للمرضى بصورة سلبية تثير الرعب والاشمئزاز والألم». والحقيقة: الكثير من وسائل الإعلام اتخذت مرضى الفصام ذوي الحالات المزمنة غير القابلة للشفاء للتأثير الدرامي الكوميدي الإنساني، ولعل زيادة الوعي بطبيعة الفصام وخاصة تقديم من تم شفاؤهم منه يساهم في تحسين نظرة المجتمع، ولعل اشتراك مرضى سابقين بالفصام (أو أسرهم) في مجهودات التوعية يساعد على تقبل المجتمع وتفهمه وتحسين نظرتهم للمرض.

● الاعتقاد الخاطئ: «يرى بعض الناس أن زيارة الطبيب النفسي مقصورة فقط على من يعانون من الجنون أو الاضطراب العقلي الشديد، وأن مجرد ذكر الطبيب النفسي للمريض دلالة على أن حالته متدهورة وميؤوس منها». والحقيقة: الخوف والرغبة والرعب من المرض النفسي عامة، والمرض العقلي خاصة، قديم، منذ كان الناس يفسرون أسباب الأمراض ويرجعونها إلى الأرواح الشريرة وغضب الآلهة. والحقيقة الأخرى: الخوف والوصمة من المرض النفسي والمريض النفسي موجودان في كافة المجتمعات في العالم بدرجات متفاوتة، وهذا يرجع إلى سببين أساسيين: أولهما قلة الوعي والمعرفة والعلم بأسباب وأعراض المرض النفسي وأن مثله مثل أي مرض عضوي آخر، وينطبق عليه القول المأثور «الوقاية خير من العلاج»، وأن الإهمال في علاجه يؤدي إلى تطور المرض واستفحاله وتأخر الشفاء مثلما يحدث مع أمراض القلب أو السكر أو الضغط. ولما كان الطب النفسي يتعامل مع نسبة كبيرة من اضطرابات القلق والاكتئاب والاضطرابات النفسجسمية (أي النفسية ذات الأعراض شبه العضوية) ومشاكل صعوبات الحياة المختلفة ومشاكل الأطفال والمراهقين، فإن الفصام أو الاضطراب النفسي الشديد لا يمثل إلا نسبة بسيطة من المترددين. أما الصورة الرهيبة عن هذا المرض في أذهان الناس، فإنها غالبًا ما ترجع أيضًا إلى الأجهزة الإعلامية التي تجعل من صورة المريض النفسي مسخًا مشوهًا أو صورة الطبيب النفسي شاذًا غريبًا ومختلًا.

● الاعتقاد الخاطئ: «يرى بعض الناس أن الطبيب النفسي غير مستقر نفسيًا وغريب الأطوار وأنه يتأثر بمهنته ومرضاه». والحقيقة: هذا الاعتقاد غير صحيح، فتشير الدراسات والإحصائيات الموثقة إلى أن الأطباء النفسيين أكثر استقرارًا نفسيًا من غيرهم من الأطباء، وأن نسبة تواتر الاضطرابات النفسية والمعاناة بينهم لا تزيد على مثيلاتها في التخصصات الفنية الأخرى. أما القول بأن التعامل مع المرضى النفسيين يجعل الطبيب النفسي معرضًا للإصابة بالمرض النفسي، فهذا غير صحيح مطلقًا، لأن المرض غير مُعدٍ أولًا، وثانيًا إذا

جاز لنا أن نصدق هذا القول فماذا يكون شأن طبيب أمراض النساء والولادة أو طبيب أمراض القلب أو طبيب الأطفال!

● الاعتقاد الخاطئ: «إن المريض النفسي أو المصاب بالفصام لا يدري بما يصيبه، ولا يعاني، لأنه لا يحس بالألم مثلما يحدث مع الأمراض العضوية الأخرى». والحقيقة: هذا الاعتقاد ترسخ في أذهان الناس نتيجة بعض الموروثات الشعبية مثل «المجانين في نعيم»، وهذا الاعتقاد خاطئ تمامًا وغير صحيح، لأن المعاناة النفسية والألم قد يكونان أكثر شدة وحدة إلى درجة قد تدفع المريض إلى التخلص من حياته بالانتحار، على عكس ما يحدث مع المريض بأمراض عضوية أخرى كالسرطان مثلًا الذي يبذل كل جهد ممكن مهما كان الأمل ضئيلًا لمواصلة الحياة.

● الاعتقاد الخاطئ: «إن الطب النفسي لا يؤمن بما جاء في القرآن (أو الكتب السماوية) من فعل الجن والسحر والحسد». والحقيقة: هذا الاعتقاد خاطئ تمامًا، وعلينا أن نتذكر أن الإيمان بالجن والسحر والحسد يمكن أن ننظر إليه على ثلاثة مستويات: الإيمان بوجود الجن وحقيقة السحر والحسد (وهي ظواهر غير مرئية). الإيمان بتأثير الجن والسحر والحسد (كما ذكر في الكتب السماوية). الإيمان بالأعراض والعلامات التي يصفها ويرجعها بعض المعالجين لأثر الجن والسحر والحسد. فالمستوى الأول والثاني يجب الإيمان بهما دون شك (كما جاء في الكتب السماوية)، فالأطباء النفسيون لا يختلفون في ذلك عن غيرهم من الناس، حيث يوجد العديد من الناس من غير الأطباء ينكرون تلك الأمور الغيبية جملة وتفصيلاً، أما الطب النفسي فإنه يؤمن بقوة الدين والإيمان والجانب الروحاني في المرض والعلاج، وحتى الجانب غير المرئي في الحياة والمشاعر، كما يجري العديد من الدراسات المنظمة عن الأمور الغيبية وخارج الحسية والتي لا نشعر بها ولا ندري عنها شيئًا، وهكذا نرى أنه لا يوجد تعارض بين الطب النفسي أو مفاهيمه، وما ورد في الكتب السماوية. ولكن الحقيقة تكمن في خطأ الاعتقاد بأن الأمراض والأعراض والاضطرابات النفسية (التي تظهر على بعض المرضى أو المعاناة من التقمصات المختلفة أو نوبات الاستحواذ أو الأصوات أو الخيالات) إنما هي نتيجة للسحر والجن والحسد، والحقيقة أنها اجتهادات بشكل خاص، تجد لها في البيئة الشعبية أرضًا خصبة وأساطير شائعة، ويستغلها كثير من المشعوذين والدجالين ولا علاقة لها بالطب البديل.

حوارات

المرأة ليست أكثر حبًا وخيال الرجل أكبر

أجرت هذا الحوار: سلمى قاسم جودة، ونُشر في مجلة «آخر ساعة»، فبراير ١٩٩٢

المرأة أقوى من الرجل في مواجهة الحياة وأزماتها. المرأة تخشى من كتابة سيرتها الذاتية خاصة في المجتمعات المغلقة. خيال الرجل أكبر وأوسع مدى في الإبداع من المرأة. الرجل فيه جانب من الأنوثة، وكل امرأة بها بعض الذكورة. ليس كل عبقرى مبدعًا، وليس كل موهوب عبقرىً. ليس صحيحًا أن المرأة تحب أكثر من الرجل، أو أنها أكثر حناؤًا من الرجل. وآراء أخرى صريحة تستند على رؤية علمية في حوار «آخر ساعة» مع الدكتور أحمد عكاشه أستاذ الطب النفسي، حوار داخل أعماق النفس الإنسانية والإبداع.

■ لماذا يدور في أغلب الأحيان أدب المرأة حول تجربة ذاتية مرت بها، فعالمتها الإبداعي مغلق على ذاتها، على سبيل المثال مارجريت ميتشل في روايتها «ذهب مع الريح»، وكذلك في أعمال الأختين برونتي، ولم تكن هناك تجربة متنوعة إلا عند جورج صاند المتشبهة بالرجال؟ فهل من الناحية النفسية، وعلى عكس ما تعتقد المرأة، أنها أقل خيالًا من الرجل، أم أنها أكثر اهتمامًا بنفسها، أم أنها أقل تجارب من الرجل؟

في رأيي أن الرجل والمرأة إذا كانت لديهما القدرة على الإبداع والخلق فجزء كبير جدًا من هذا الخلق والإبداع هو إسقاط عوامل ذاتية ونفسية على شخصيات إما كان يكرهها جدًا أو كان يتمنى أن يعيشها، ولذا فإن رأيي في هذا الموضوع أنه لا يوجد اختلاف كبير بين الرجل والمرأة، لأن هناك الكثير من الرجال يكتبون سيرهم الذاتية، وهناك أيضًا سيدات كثيرات كتبن السيرة الذاتية. وأقرب ما كتب في هذا المجال أن بعض الفنانات الكبيرات في أمريكا من ١٠-٧٠٪ منهن أسويء لهن في طفولتهن. فهناك علاقة واضحة بين الإبداع والفن والسير الذاتية، ولكن معظم الناس يتعدون عن ذكر هذه الأشياء نظرًا لعوامل الخجل والقيود الاجتماعية. وفي السيرة الذاتية التي تكتبها المرأة نجد جزءًا من الخيال لأن الإنسان لا يستطيع أن يتذكر تمامًا ما حدث في الطفولة، وعندما يتكلم عن الطفولة يوجد دائمًا جزء من الإسقاط على الطفولة، إما لأشياء كان يتمناها وإما لأشياء كان يخشاها ويسقطها على الطفولة. فعادةً ذاكرة الطفولة لا تكون بالقوة التي نستطيع أن نتذكر بها ونحن في الأربعين أو الخمسين من العمر. وكان لدينا عقار «LSD» الذي يأخذه بعض المدمنين في أوروبا، وعندما أدخل هذا العلاج في مجال الطب النفسي يقال إنه إذا أخذه أحد من الممكن أن يتذكر ولادته. ومن الطبيعي أن هذا لا يحدث، ولكن عندما يؤخذ العقار يعطي الشخص مزيدًا من الخيال، والعقار اسمه تجربة سيكيديلية، تجربة هلوسية. والآن هناك نوع من الفن السيكيديلي، فيؤخذ العقار ويبدأ الفرد في الرسم أو الكتابة. إذن السيرة الذاتية للرجل والمرأة غير صادقة في المائة، وهذا ليس معناه أنهم يكذبون، ولكن معناه أنهم يسقطون الخيال.

■ لم أقصد السيرة الذاتية بالتحديد، لكن أقصد أن إنتاج المرأة الأدبي كله يميل للانغلاق على ذاتها، بعكس إنتاج الرجل فهو شديد التنوع والاختلاف!

حتى التنوع في الرجل مبني على جزء من الإسقاط والتوحد مع بعض الشخصيات التي يمكن أن يحبها أو يكرهها، فنجيب محفوظ، على سبيل المثال، كل رواياته المتنوعة فيها علاقة لبيئة معينة في منطقة معينة كان يعيش فيها، وإحسان عبد القدوس نفس الشيء، فالتنوع هنا لأن حياة الرجل فيها تغيير وتنوع، والمجتمع يسمح له بذلك أكثر من المرأة، ولكن لا ينقص المرأة الخيال. وعندنا نساء كتبن في مصر أعمالًا لا علاقة لها بحياتهن الخاصة، ولكنها أيضًا إسقاط على حياتهن. فالدكتورة نوال السعداوي في كل

أعمالها لها رأي معين في المساواة بين الرجل والمرأة، فأخذت هذا المحور في كل كتاباتها، ولا تستطيع أن تقول إنها سيرة ذاتية، ولكنها تُسقط. فلا أعتقد أن خيال المرأة أقل من خيال الرجل، ولا أعتقد أن أدبيًا يكتب بتنوع لا تكون هناك ذاته الخاصة في كل بطل من أبطاله.

■ ما رأيك فيما يقال إن الفنان هو نصف رجل ونصف امرأة؟

من الناحية النفسية قد يتعجب البعض أن في كل رجل بعض الأنوثة، وفي كل امرأة بعض الذكورة. ويوجد عندنا بعض الاختبارات التي تقيس مقياس الأنوثة أو الذكورة في الرجل أو المرأة، وإذا أخذناها من الناحية التشريحية قد يتعجب البعض أن المرأة تفرز هرمونات ذكورية من الغدة الأدرينالية، وأن الرجل يفرز هرمونات أنوثة من هذه الغدة. إذن، المزج بين الذكورة والأنوثة موجود فينا من الناحية الفسيولوجية، ولكن لا أعتقد أن الفنان الذي يستطيع أن يتكلم باسم الرجل أو باسم المرأة أنه نصف رجل أو نصف امرأة، ولكن الفنان عنده من الموهبة أنه يستطيع أن يفهم نفسية الفرد ويحللها ويشرحها بطريقة تجعله قريبًا جدًا من المرأة والرجل. وهذه موهبة الحساسة، تجعله يستطيع أن يتقمص المرأة ويستطيع أيضًا أن يتقمص الرجل، فالفنان لديه الاستبصار والحساسية والذكاء ليفهم طبيعة الرجل والمرأة.

■ ما رأيك في القول إن العبقرية رجل، والموهبة امرأة، فموزارت رجل وأينشتاين وشيكسبير وشارلي شابلن وسيد درويش كلهم رجال، حتى مدام كوري كان زوجها يعمل معها، فأغلب المخترعين والمبدعين من الرجال؟

في الماضي إذا كنا نقول إن معظم المخترعين والفنانين ومعظم الشعراء والرسامين والموسيقيين كانوا من الرجال، لأنه في هذا المجتمع كانت المرأة مستأنسة وليس لها أي صفات ثقافية لكي تنتج، ولكن إذا قارنا الماضي بالعصر الحالي، فأستطيع أن أقول إن أوائل كلية الطب في خلال الخمس سنوات الأخيرة هم من الإناث.

■ ولكن هذه ليست عبقرية، فالعبقرية نوع من الخلق!

أختلف معك في كلمة «عبقرية». نحن نقول العبقرية هو الذي ذكاؤه أكثر من ١٤٠، فإذا أخذنا في التقسيم فنسبة العباقرة في أي شعب ١٪، أي إذا كان عددنا سبعة وخمسين مليونًا، فعلى الأقل لدينا نصف مليون عبقرية في مصر. والعبقرية ليست مرادفة للشهادات، لأنه من الممكن واحد في وكالة البليج بدير إمبراطورية مالية ولا يقرأ ولا يكتب ويكون عبقرية. ويوجد بعض الناس يكون ذكاؤهم متوسطًا أو أكثر من المتوسط، ويستطيعون الخلق. فهناك ما يُسمى بـ«القدرات الخاصة»، وهناك متأخرون عقليًا عندهم موهبة حسابية ونسبيهم «الفلتات الحسابية». إذن، العبقرية تحتاج لبعض المواهب والقدرات الخاصة للخلق. إذن، ليس كل عبقرية سيده، وليس كل مبدع عبقرية. إذن، العلاقة واضحة. في الماضي كانوا يقولون إن العبقرية قريب من الجنون، فليس هذا صحيحًا، فالعبقرية تصرفاته غير مفهومة من الناس متوسطي الذكاء، فيُنظر إليه على أنه بعيد عن القاعدة أو المألوف، فهو يفهم الناس، ولكن الناس لا يستطيع أن تفهمه. وممكن القول إن العبقرية ليست مرادفة للموهبة، ولكن لا شك أنه عندما توجد موهبة ومعها الذكاء الخارق نجد الإبداع والخلق، وليس كل عبقرية عنده موهبة وليس كل موهوب عبقرية.

■ لماذا لا نجد أبدًا الأدبية الساخرة، فالأدب الساخر هو أدب رجالي مائة في المائة في الشرق والغرب؟ فهل المرأة تفتقد روح الدعابة والسخرية أم ماذا؟

عملية السخرية تحتاج نوعًا من أنواع الانفلات، ومسموح للرجل اجتماعيًا أن يكون منفلتًا في بعض الكلمات، خاصة أن السخرية يكون فيها نقد لاذع ليس فقط للمجتمع ولكن لشخصية الفرد نفسه. والمرأة بطبيعتها الإفصاح والانفلات محدودان لديها، خاصة في المجتمعات المنغلقة إلى حدٍّ ما. وبما أن معظم المجتمعات بها نوع من عدم الانفلات لدى المرأة، فالسخرية لديها غير موجودة لأسباب اجتماعية وليست لأسباب حُلُقِيَّة، لأن هناك امرأة تكون ساخرة في الكلام، خاصة عندما تكون ذكية جدًّا. في السخرية ولذاعاة اللسان وسرعة البديهة وخفة الدم من الممكن أن تتفوق المرأة على أي رجل، ولكن عندما تأتي لتكتب ذلك تحجم عن هذه السخرية، لأنها من الممكن أن تتلقى نوعًا من أنواع النقد واللطمات، شخصية المرأة في مجتمعنا لا تتحملها.

■ هل علم النفس والطب النفسي هما اللذان استفادا من الأدب، أم العكس صحيح؟

الأدب يسبق الطب النفسي، إذ إنه (الطب النفسي) كان لعهد قريب ليس مسؤولية الطبيب، ولكن مسؤولية الحكماء والفلاسفة ورجال الدين، وكانت الأمراض النفسية والشخصيات المضطربة جزءًا من حياة واهتمام رجل الدين أو رجل الحكمة. ولذا، نستطيع أن نقول إنه وُجد عبر التاريخ بعض الموهوبين الذين استطاعوا أن ينفذوا إلى نفسية بعض الشخصيات بدراسة تحليلية مقننة، وليس فقط دوستوفيسكي، حيث إن معظم الأمراض النفسية موجودة في تمثيلات شيكسبير، وعدد من رسائل الماجستير والدكتوراه في علاقة الأدب بعلم النفس والطب النفسي في العالم وفي مصر ليس لها نهاية. إذن، أستطيع القول إن الطب النفسي استفاد من الأدب استفادة كاملة، وأقرب الأمثلة لذلك أن كل ما يقال عن عقد نفسية مشتق من الأساطير اليونانية، ومن أحداث عبر التاريخ، فنستطيع أن نقول إن دراسة شخصية الإنسان استفادت من الأدب. أما الطب النفسي كمرض فهو لم يستفد من الأدب، هو استفاد من الدراسات الفسيولوجية والتشريحية والكيميائية التي جعلتنا نستطيع أن نعالج هذه الأمراض.

■ تعدد المدارس والمذاهب في مجال علم النفس، ألا يلغي صفة العلم؟

العلاج النفسي ليس علمًا ولكنه فنٌّ، والنظرية الأساسية للعلاج النفسي في نظرية فرويد للتحليل النفسي نظرية غير علمية ولكنها نظرية عقلية فلسفية تعتمد على إطارات غيبية، وهذا عادة ما ينتقده العلماء ويقولون إنها نظرية غير علمية وغير مقننة، بمعنى أن العلم معناه أنه توجد تجربة تعطي نفس النتائج، ولكن في التحليل النفسي تختلف النتائج من شخص إلى آخر. ولذا، فتعدد مدارس العلاج يعني أنها من مخاطبة الناس أكثر منها علمًا له أبعاده وقياساته الخاصة، وأقرب الأمثلة إلى ذلك أن كل تلاميذ فرويد كل واحد أنشأ مدرسة مختلفة عن أستاذه، فإذا كانت نظرية علمية لا يكون هناك خلاف. ويوجد الآن مئات المدارس في العلاج النفسي وتختلف حسب الثقافات.

■ لماذا لا يوجد لدينا أدب رسائل، وأدب الاعترافات نادر؟ هل هذا يرجع إلى تبرير معين من الناحية النفسية؟

يعتمد ذلك على قدرة الرجل على تحرر المرأة الفكري وليس الجسدي، فتحرر المرأة الفكري هو أخطر تحدٍّ للرجل، والصراحة المسموحة للرجل تعتبر غير مرغوبة في المرأة، ولذا تمتنع الكثيرات من النساء الكاتبيات عن كتابة الرسائل والسير الذاتية. عادةً هناك عملية تبرير في كل إنسان، ويقول إنه خيال، وهناك صورة ذاتية لا أحد يفهمها إلا الشخص وطيبه النفسي، وهذه عادةً ما يسقطها الإنسان بعيوبها ومحاسنها على الشخصيات الأخرى، وهناك الشخصية الاجتماعية، وهي كما تريد أن يراك الناس، وهي النفاق الاجتماعي الذي نمارسه كلنا، وأيضًا الشخصية المثالية، وهي التي يصبو إليها الفرد في حياته.

■ ماذا عن قول الأديب ألبيرتو مورافيا إن الاختلاف بين الرجل والمرأة على عكس ما يعتقد البعض هو الذي يجعلهما أقرب إلى التكامل في العلاقة؟

هذه وجهة نظر لها احترامها، هي لا تحدث توافقًا ولكن تكاملًا، لأن هناك أحيانًا اختلافًا قد يؤدي إلى إفساد الحياة تمامًا. فإذا نظرنا إلى الشخصية التي تُسمى بـ«الشخصية القوية»، إنسان منضبط، ملتزم، دقيق، ويميل إلى روتين خاص، إذا تزوج بشخصية تُسمى بـ«الشخصية الهستيرية»، وهي إنسانة متقلبة عاطفيًا، غير ملتزمة، غير منضبطة، هنا الاختلاف يؤدي إلى انهيار تام في الحياة الزوجية. ولكن عندما يكون هناك اختلاف، مثلًا شخص قصير يتزوج امرأة طويلة، هذه الاختلافات لا تؤدي إلى شيء. ولكن إذا كان مثلًا الرجل مثقفًا ثقافة عالية، والمرأة ثقافتها متواضعة، لا يكون هناك تكامل. ولكن علميًا نقول إنه كلما كان هناك تقارب في الناحية المادية والاجتماعية والثقافية كان احتمال استمرار العلاقة أكبر.

■ يقول فيلسوف نمساوي إن المرأة واليهود لهما نفس الطبيعة، وهي الكيد والمكر والغدر، نظرًا لظروفهما المتشابهة، وهي الضعف والقهر والاضطهاد، فما الرأي العلمي؟

توضيح بسيط، الصهيونية التي هي نظام سياسي عنصري مختلفة عن اليهودية التي هي دين، كان هذا في الماضي قبل مائة سنة، كانت المرأة مضطهدة، ليس لها الحق في التعبير عن انفعالاتها، فكان من الضروري أن تلجأ للحيل والكيد والمكر للوصول إلى الهدف، أما الآن فأعتقد أنها قادرة على التعبير بحيث لا تحتاج إلى هذه الحيل للوصول إلى الهدف. الشيء الوحيد الموجود علميًا أن المرأة أقوى من الرجل، فالمرأة تتعرض أثناء حياتها لضغوط حياتية أكثر من الرجل، تتعرض للحمل والولادة والدورة الشهرية، وتقوم بدور العاملة والمربية والزوجة وبدور الطباخة والمدرسة، وبالرغم من كل ذلك، فهي تعيش في كل العالم أكثر من الرجل، وتستطيع الاعتماد على نفسها أكثر من اعتماد الرجل على نفسه. أما الزوجة فهي دائمًا متأكدة أنه ينتهي قبيلها، ولذلك تطلب من الرجل تأمين حياتها. فبعكس ما يعتقد الناس، فالرجل اعتمادي في حياته، والمرأة أكثر استقلالية، ولكن المرأة عندها من القدرة والموهبة الخلقية ما يجعلها تستطيع أن تقنع الرجل أنه هو السيد، وهذا هو الذكاء الأنثوي. وأرى أنه كلما كان الإنسان من الأقلية ويشعر بالضعف لجأ إلى الحيل، وكلما كانت المرأة مكبوتة في بعض المجتمعات الريفية والحضرية زادت الحيل والكيد، وأصبحن كالصهاينة، وكلما كانت المرأة قادرة على التعبير عن انفعالاتها تلاشى ذلك.

■ هل هناك فرق بين حب الرجل وحب المرأة من الناحية النفسية والعلمية؟

نعم، هناك اختلاف، ولا أستطيع التقسيم، فهناك بعض الرجال أكثر حنانًا وعطفًا من المرأة، ويوجد بعض النساء أكثر حنانًا من الرجل، فعمليًا مقدرة المرأة على العطاء والتضحية تفوق قدرة الرجل.

■ هل الرجل أيضًا يختلف عن المرأة بأنه حسي العاطفة؟

٨٠٪ من مجموع أي شعب تكون المرأة هي الأداة لتفريغ الطاقة الجنسية والإنجاب. المرأة لا تنظر إلى الحياة الزوجية بهذا المنظار، ولكن تنظر أنه من أجل الاحتفاظ بالرجل يجب أن ترضيه، لأنه في البلاد الغربية الإحصاءات تقول إن عدد الزيجات السعيدة التي لا يوجد فيها إشباع جنسي ولكن يوجد فيها حنان من الرجل نسبتها لا تقل عن ٤٠٪. وعندما سُئلت النساء في العالم الغربي عن أهم صفة للرجل، قلن حنانه، وليست قوته.

■ حول اختلاف مشاعر الحب من طبقة إلى أخرى قال الدكتور عكاشه:

نعم، تختلف مشاعر الإنسان من طبقة إلى أخرى، ففي تطور الإنسان يمر بعدة مراحل: فالمرحلة الأولى هي الأشياء البيولوجية، وهي الطعام والشراب والدفع، وهذه قاعدة الهرم، بعد ذلك نصل إلى أعلى ويكون الانتماء، ننتمي إلى الأسرة والدين، وبعد ذلك تأتي القدرة على الحب والعطاء، بعد ذلك القدرة المعرفية، ومرحلة أخرى تذوق الجمال، ثم أخيرًا تحقيق الذات وليس بالسلطة وليس بالمال، ولكن إحساسه بإشباع ذاته. فإذا نظرنا هنا، نجد أن الحب مرحلة متطورة حسب الطبقة، ولا أستطيع أن أقول لشخص يشعر بالجوع والبرد أن يحب، ولكن يجب إشباع مرحلة معينة من الحياة. والطبقات المطحونة لا يريدون إلا الأشياء البيولوجية. إذن، الحب من الممكن أن يختلف حسب الطبقات، بل السلوك الجنسي يختلف من طبقة إلى طبقة، فقد وجد أنه في الطبقات الدنيا عملية القبلات مثلًا غير موجودة وعملية الإشباع الجنسي غير هامة.

■ لماذا نقرأ؟ عن أي شيء يبحث القارئ في الأعمال الروائية وعالم الشخصيات الإبداعية؟ هل ليفهم ذاته، أم ليفهم الآخرين، أم لمجرد الهروب؟

نحن نقرأ من أجل شيئين: أولًا إشباع الفكر له لذة حسية عند بعض الناس في مستوى لذة الطعام والشراب والجنس. والنوع الثاني أنه في أي رواية أو فيلم، بعض الشخصيات بها انعكاس لبعض ما هو موجود في الإنسان، لذا يوجد في رؤية الرواية التوحد والتقمص مع بعض الشخصيات. فحين نرى، على سبيل المثال، أمًا تبكي في عمل إبداعي، نبكي معها ونحن نعرف أن هذا غير حقيقي، ولكن نضع أنفسنا في مكان الشخصية. وهذا ما حدث مثلًا بعد الحرب العالمية الثانية مع الأفلام الواقعية الإيطالية، فنجحت نجاحًا كبيرًا، فهذا نوع من التوحد. إذن، الرواية هي مساندة اجتماعية، أننا نتقمص ونتوحد مع الشخصيات سواء التي نحبها أو نكرهها.

■ يقول مورافيا، وهو يتكلم عن طفولته، إن كل شيء من حوله كان طبيعيًا إلا من الحساسية المفرطة التي تؤدي في رأيه إما إلى عدم التكيف مع المجتمع والنتيجة المرض النفسي، أو أن يصبح فنانيًا؟ فهل الفن مرادف للمرض النفسي؟ وهل بالفعل الحساسية إما تؤدي إلى الخلل النفسي أو إلى الفن؟

هذا صحيح، فنحن نعرف المريض النفسي بأنه المريض الذي تعرض لكروب ولم يستطع التكيف معها، فمن الممكن أن يحدث شيئين: إما أن يعاني من أعراض نفسية مثل القلق والاكتئاب والوسواس، وإما أن ينطلق ويتكيف بإبداع أو خلق أو فن. فالتعريف لدينا أن المريض النفسي هو الإنسان الذي لا يستطيع أن يتكيف مع أحداث الحياة، ويصاب بالمرض النفسي، ولكن يبدو أن هذا التعريف لا نستطيع تعميمه، لأن كل الأنبياء والزعماء اختلفوا مع المجتمع، ولكن في اختلافهم استطاعوا أن ينهضوا بشعوبهم سواء برسالة ثقافية أو دينية. إذن، هذا الكلام غير صحيح إلى حد كبير.

الزعيم يتوحد والكرسي مع طول بقائه في السلطة

أجرى هذا الحوار: محمد السيد صالح، ونُشر في جريدة «المصري اليوم»، مايو ٢٠٠٦

■ ماذا حدث للمصري نفسيًا في السنوات الأخيرة؟

حدث تغير للمصريين خلال الخمسين عامًا الأخيرة، وأقول إن نضوج الشخصية واستعدادها للتضحية في سبيل الآخر يتطلب وجود مناخ يساعد على ذلك. فإذا ما نظرنا إلى ما قبل الخمسين عامًا، كان المصري حينئذ يتصف بالشهامة والمروءة والكرامة والعزة. هذه الصفات كانت تميز المصري عن أي جنسية عربية أخرى. فجدك وجدي كان ممكن أن يأخذ الواحد منهم جاره ويذهب به للطبيب ويبقى معه إلى أن ينتهي من الكشف ويعود به لبيته، أما الآن فأصبحنا نجهل هوية جيراننا في نفس العمارة. وأعطيكُم مثلًا بسيطًا، أنا ألفت كتابًا اسمه «ثقوب في الضمير»، وكانت فكرتي الرئيسية في الكتاب، أننا إذا شبهنا الضمير الإنساني بالمنخل والمفترض ألا يفوت أي شيء خشن أو كبير، فبعد الخمسين سنة وبفعل الزمن اتسعت الثقوب الموجودة في ضمائرنا نحن المصريين، بحيث أصبحنا نفوت أشياء كبيرة كان من المستحيل أن نفوتها من قبل. من المضحك الآن قراءة خبر يقول: «مكافأة لأمين شرطة لأنه رفض رشوة!» هل المفروض الآن أن يأخذ الرشوة، لكننا نكافئه لأنه رفضها، وكأن من الطبيعي أن يقبلها؟!

■ من الذي وضعنا كمصريين في هذا القفص؟

نحن داخله منذ خمسين عامًا، دخلنا فيه عندما حرمانا من حرية التعبير، سلبنا العزة والكرامة والمشاركة في الإدارة في سبيل ادعاءات كثيرة بدأت بالقول: لما نخرَّج الإنجليز واليهود ستعود الحريات، ونعطيكُم كل شيء. قالوا سَنمنحكم فرص العمل والرفاهية. وخلال العقود الثلاثة الماضية، كنا قد قضينا على كل أشكال الاستعمار الإنجليزي واليهودي، لكننا لم نستعد كرامتنا وعزتنا. المصري طوال عمره يؤله الحاكم، ولديه جنوع واستكانة تامة، مثلما وصفه الدكتور جمال حمدان في موسوعته «شخصية مصر». وفي الفترة الأخيرة، أصبح المصري لا يشعر فقط بغياب آدميته، ولكنه بات يعاني من ضياع حقه في المسكن والملبس وفي المعيشة الصحية. وكلما زاد القمع والقهر يصبح الإنسان لديه أنانية مفرطة، وكلما ازداد الازدحام والتلوث ازداد التمرکز حول الذات والأنانية. المصري في الماضي كان يتسم بحب الغير، حب الجيران، كان يضحى من أجل هدف أو مبدأ، بينما أصبحنا الآن نختزل كل انتمائنا في كرة قدم بين اثنتين وعشرين لاعبًا في الملعب! المصيبة الكبرى والتي كنت أكثر الناس حزنًا بحدوثها هي انتصارنا في كأس الأمم الأفريقية الأخيرة التي جرت في القاهرة، كنا فرحين بها بعد ساعات معدودة من وفاة أكثر من ألف في حادث العبارة «السلام ٩٨»! كل المسؤولين يومها كانوا فرحين، وهم يشاهدون الانتصار، وهم يعرفون بمصائب أهليهم المصريين، وبدلاً من أن ينكسوا الأعلام كانت قياداتنا ترفع الأعلام. كان مفروضًا أن يقف فريقنا حدادًا قبل اللعب، هنا يكون الانتماء وليس التهليل للفوز وعدم الإشارة إلى مصائب الضحايا. لدينا أيضًا في مصر فهم خاطئ للدين. المصري منذ نشأته يوحد الله. الكتاب المشهور «فجر الضمير» للعلامة جيمس بريستيد يقول إن المصريين أول من عبدوا الله، وعرفوا العالم الآخر دون وجود نبي ليخبرهم به، والبرديات تصف الأخلاقيات والفضائل بشكل أشمل وأجمل من الموجود في «الوصايا العشر» التي نزلت على سيدنا موسى عليه السلام. ويقول بريستيد: «أنا مؤمن بأن كل الأديان استفادت من هذه الفضائل». المصري كان مؤمنًا بالله، آمن باليهودية ثم المسيحية فالإسلام، وعندما جاء المذهب الشيعي مع الدولة الفاطمية وجد قبولاً لدى المصريين، ثم عادت مصر للمذهب السني وحتى الآن. وطوال عمر المصريين كان لدينا سماحة دينية، أصبحنا في الفترة الأخيرة نعيش فهمًا خاطئًا لهذا الدين. نمارس الطقوس دون أن نتعمق في الجوهر. الذي يمارس الإرهاب ويقتل في عملياته أطفالًا صغارًا وسيدات ورجالًا لا علاقة لهم بأزماته، لا أعرف علاقة ما يفعله بالإسلام. الدين تسامح في الأساس، لكن الناس الآن مهتمة بالطقوس فقط، اللي عنده إمكانيات يذهب للعمرة مرتين في السنة، واللي عنده موارد أكثر يحج كثيرًا.

■ هل تعتبر أداء هذه الطقوس، بالطريقة التي شرحتها، فيه نوع من المرض النفسي؟

لا، ولكنني أعتبرها نوعًا من السلبية والأناية. كل واحد يريد أن يكفّر عن ذنوبه، لكن ليس له علاقة أو اهتمام بالآخرين. فإذا ذهب المسلم مرة واحدة للعمرة وصرف الباقي على جيرانه أو أحسن إليهم لكان أفضل. لكنها الأناية. كل واحد يقول أريد أن أكفّر عن ذنوبي، ولكنني غير مستعد لمساعدة غيري. طبعًا هذه ظاهرة غير صحية. التدين هو النية والمعاملة والعلاقة القوية بينك وبين الله، وليس الجوهر الخارجي بأن يغطي الإنسان وجهه بطريقة معينة. المصريون لا يمارسون دينهم الآن بشكل حنيف مثلما كان يمارسه أجدادنا. قبل خمسين عامًا لم يكن أحد يكره الأقباط أو حتى اليهود. كان اليهود يعيشون وسطنا قبل ١٩٤٨، وكانت العلاقة معهم من أجمل ما يكون، فالفهم الخاطئ للدين أثر على طبيعة الشخصية المصرية، فوجد مثلًا أن هناك أكثر من ٧٠٪ من المصريين يرتدين الحجاب، ولم أجد تفسيرًا لهذه الظاهرة حتى الآن، فالإسلام لم يتغير، فلماذا ذلك؟

■ هناك نصوص إسلامية في القرآن والسنة تدعو للحجاب!

إذن، أين كانت تلك النصوص منذ ألف عام؟ هل كنا في غفلة عن الإسلام لأكثر من ألف وخمسمائة عام واكتشفناه خلال العشرين سنة الماضية؟

■ من وجهة نظرك، ما سبب هذا التدين الآن؟

وصول الإنسان المصري لحالة من اليأس والعجز، وعدم إدراكه وسيلة للاستمرار في هذه الحياة الظالمة السوداوية سوى محاولة الاتصال بالآخرة عن طريق التدين، وهذا وضع جليًا بعد نكسة ٦٧ وإصابتنا باليأس.

■ هل تعني أن انهيار «الهدف القومي» في هذه المرحلة هو السبب في هذا الشكل من التدين؟

بالطبع، فانهيار هدفنا القومي حطم معه كبرياءنا وقدراتنا وتطلعاتنا، والإنسان المصري ليس لديه وقت للانتظار، ولذلك ارتدى في أحضان الدين بتفسير خاطئ.

■ لكن في ظل معاناة الإنسان المصري من كل هذا، لماذا لا يثور أسوة بمواطني العالم أجمع؟

بالمعنى الدارج، الإنسان المصري منذ خمسين سنة تتم «قصاصة» ريشه. قبل عقدين كان الكثيرون من المثقفين والشباب يتم اعتقالهم وسجنهم بسبب آرائهم، ولكن الآن أصبح الخوف مسيطرًا على الجميع. وإذا نظرنا إلى العالم أجمع فسند أن الله سبحانه وتعالى قسم هؤلاء إلى ٨٠٪ لا حول لهم ولا قوة، و٢٠٪ يقودونهم، وهذا المنحنى لا يتغير في كل بلاد العالم، ولكن المشكلة في مصر أن نسبة الـ ٢٠٪ حدث لأكثر من ثلثهم لامبالاة، ولم يعد يهمهم سوى الأولاد والبيت، إضافة إلى انحلال الطبقة الوسطى فلم تعد موجودة، فالمجتمع ما بين فقير وثري، وهذا ما تسبب في زعزعة العقائد، وأصبح المصري يكتفي بالنكتة وقراءة جرائد المعارضة التي باتت متنفسًا وعلاجًا نفسيًا لكثير من الناس الذين لا يستطيعون الاعتراض والقيام ببعض الأفعال، بعدما تملكهم الأسى والحزن والعجز واليأس.

■ إذن، متى وكيف سيثورون؟

الثورة في تعريف الكثيرين هي مرادف للعنف، والمصري بطبيعته لا يميل للعنف، وإذا قام بثورة فإنها لن تتسم بالعنف، مثلما حدث في ثورة ٢٣ يوليو التي حازت إعجاب الجميع بسبب عدم ميلها لذلك، فالمصريون لا يميلون للعنف إلا في حالة الجوع.

■ لو أردنا القيام بتحليل نفسي لنموذجين مختلفين، أحدهما لناشطة سياسية أو صحفية تبحث عن الحرية وتنتهك عرضها من أجل الدفاع عن هذه الحرية، والآخر لأمين شرطة أو أمن مركزي يؤمر بضرب أحد المتظاهرين، فماذا تقول؟

عندما تسلب من الإنسان كرامته وإرادته يكون «عبد المأمور»، فالفرد في الأمن المركزي يأتيه أمر من الضابط الذي تأتيه أوامر عليا أيضًا، فالجيش والبوليس موقفهما مختلف في الطاعة. من هنا نجد أن هناك من لا يحتمل الخدمة العسكرية، ومن أمثلة ذلك الطيار البريطاني الذي تم التحقيق معه بعد أن تم فصله من الخدمة لأنه رفض المشاركة في حرب العراق، فهذا الضابط استطاع بتفكيره الحر ألا ينقاد لأوامر ستؤدي به إلى التهلكة. ولدينا عسكري الأمن المركزي انتماؤه لطعامه فقط، فهذا الإنسان إنسانيته مخففة إلى حد ما. في المقابل هناك نوع آخر وهو «عقدة الشهادة»، وهو النوع الذي ينتشي وهو يأخذ دور الشهيد، وذلك ليس تمثيلًا وإنما يعطي نوعًا من الرضاء الذاتي، فتحليليًا من يقوم بالضرب تكون عنده سادية، أي التلذذ بالقسوة على الغير، ويعتبر اضطرابًا نفسيًا. أما النشطاء السياسيون فكثير منهم لديه ما يُسمى بـ«الماسوكية»، وهي التلذذ بالإهانة والقسوة على الذات. إذن، فالتحليل النفسي للنموذجين فيه اختلاف، فدافع الناشطة السياسية هو النظر لقضية سياسية أيديولوجية ولها احترامها، وليس هناك دافع للضابط سوى التمتع بإذلال الآخر.

■ ما رأيك في هؤلاء الساديين؟

لن تتصوروا إذا قلت إنني أتعامل مع الكثير من الأصدقاء والمرضى من أجهزة الأمن، وأكتشف أن لديهم أخلاقيات وإنسانيات عالية، ولكن من لا يتبع الأوامر سيُفصل، فهو لا يستطيع إلا أن يعارض الرأي الحر وإلا سيُدهس، فلا يأتي مصدر رزق في مصر إلا لهؤلاء المنضمين إلى الحزب الحاكم. وهذا ما تسبب في حدوث أزمة حقيقية، وهي أن الشعب أصبح خائفًا من فقد مصدر رزقه، على الرغم من أن هناك نماذج عالمية من المفروض أن نحتذي بها، كما فعل عمدة لندن الذي دعا رئيس فنزويلا تشافيز إلى بريطانيا وهو أكبر عدو لها، وعارض توني بليز، وأكد أن الإمبراطورية الأمريكية إمبراطورية من الورق ولا بد أن يتم تقطيعها. هذا العمدة ساند المسلمين من قبل، كما ساند كل الأقليات، وكل هذا يؤكد أن هناك من يستطيع المعارضة دون خوف.

■ أليس من الممكن أن يفعل محافظ القاهرة هذا يومًا ما؟

استحالة، فعمدة لندن منتخب! أجهزة الأمن لدينا تشخص مرتكبي الجرائم بين مختلين عقليًا ومجانين. ومستشار الطب النفسي الشرعي في وزارة الصحة أكد أن ١٨٪ من المصريين يصابون بأمراض نفسية. ٣٠٪ من سكان أي بلد في العالم يعانون من أمراض وأعراض نفسية، منهم ٢٠٪ يتجهون للعلاج سواء الشعبي أو التقليدي أو الطبي، والذي يذهب للطبيب النفسي ٢.٥٪ فقط، أما من يدخل مستشفى الأمراض العقلية فهم ٠.٥٪، وهذه النسبة هي موضع اهتمامنا، فهناك ٩٩.٥٪ ليس لدينا أي فكرة عن مرضهم ولا كيفية مساعدتهم. و٧٠-٨٠٪ من الأمراض النفسية تبدأ بالأم أو شكاوى عضوية كالصداع والأمراض الروماتزمية وآلام في العضلات وكسل في الكبد أو الجهاز الهضمي، وحتى نكتشف تلك الأمراض نحتاج لمسح شامل يكلف ملايين الجنيهات. وبإحصائيات منظمة الصحة العالمية فإن هناك مائة وأربعين مليون مكتئب في العالم، ونصيب مصر منها ١.٠٤ مليون عندهم اكتئاب جسيم. كما أن الإحصائيات النهائية تقول إن هناك مليونًا وأربعمئة ألف شخص يتعاطون الحشيش، ونحن نعتبر الحشيش والبانجو إحدى المواد المؤثرة على النفس، وكذلك المنبهات والمكيفات والمهلوسات

والكحول والأفيونات. إضافة إلى أن هناك خمسين مليون فصامي في العالم، نصيب مصر منهم نصف مليون. أما التخلف العقلي فيقال إن في مصر ما لا يقل عن أربعة عشر مليونًا ذكاً وهم أقل من المتوسط، إذن فهناك اثنان وأربعون مليونًا متوسطو الذكاء، وأربعة عشر مليونًا أذكى، من بينهم نصف مليون ناشط سياسي، والباقي في حالة اللاانتماء واللامبالاة والتقوقع واليأس والعجز الذي أصابهم من الكبت والإجباط والحرمان. ولكن ما أحب أن أؤكد عليه أن المرض النفسي ليس جنونًا.

■ ولكن عبد الناصر لم يكن متفوقًا في دراسته؟

الشهادات ليست مقياسًا للذكاء، فالذكاء الأكاديمي أحرى للعلماء وليس للزعماء، فهناك عباقرة وأميون، وييل جيتس لم يكمل تعليمه الجامعي، ومع ذلك هو أكثر عباقرة العالم الآن، ومن النادر أن تجد أستاذ جامعة رئيسًا لدولة.

■ وماذا عن مسؤولي الحزب الوطني؟

للأسف الشديد كثير من المسؤولين في الحزب الوطني على الرغم من تميزهم بالذكاء الفائق إلا أن ذكاءهم العاطفي متوسط، بل أقل من المتوسط!

■ لو قمنا بتحليل النفسي لمن يجلس في السلطة لفترة طويلة، ماذا تقول عن تأثير هذه الفترة نفسيًا عليه؟

هناك علاقة وطيدة بين التغيير السائد في سمات الشخصية، وطول وجود الإنسان في السلطة. فسلوك الإنسان عندما يعرف أنه لن يستمر في منصبه طويلًا، مختلف عن سلوكه عندما يكون على يقين باستمراره الدائم في منصبه، سواء في تعاملاته مع الناس واحترامه لهم واحترام آراء الآخرين. ومع طول مدة السلطة يحدث جمود في الفكر، وعدم قدرة على التغيير، والإحساس بالتوحد مع المكان، بمعنى أن رئيس الجمهورية مع طول بقائه في منصبه يأتي إليه إحساس بأنه لا يعمل لمصلحة الشعب، وإنما يعمل للبقاء في الحكم أكبر مدة ممكنة، فيسخر كل الأجهزة الأمنية والوزارات السيادية لخدمة بقائه في الحكم، فضلًا عن أن استمراره هذه الفترة الطويلة يجعله يشك فيمن حوله، متخيلاً أن الكل يحاول الوصول إليه بهدف قتله أو اغتياله، وأن من حوله قد يدبرون المكائد والمؤامرات للخلاص منه وقتله، وتصبح نصف منظومته الفكرية في حياته عن كيفية الهروب من الاغتيال والقتل، وهذا من الممكن أن ينتهي به إلى أمراض عقلية كما حدث لستالين في أواخر أيامه، وعندما تم فحصه ونصحه الأطباء النفسيون بالعلاج أمر بإعدامهم. إذن، في الطب النفسي ما يؤكد أن من يستمر في السلطة فترة طويلة يحدث تغيير تام في شخصيته، تكون غير قابلة للعلاج. لذا، اتجهت كل دساتير العالم إلى عدم التمديد إطلاقًا أكثر من ولايتين في الحكم.

■ ما مسؤولية المحلل النفسي تجاه الزعماء؟

عندما كنت رئيسًا للجنة الأخلاقيات بالجمعية العالمية للطب النفسي لمدة تسع سنوات، أصدرت ميثاقًا باسم «القيم الأخلاقية للأطباء النفسيين في العالم»، تشير إحدى منهجياته إلى أنه لا ينبغي للطبيب النفسي أن يحلل شخصية الزعماء أو المشاهير من أهل السياسة والفكر والفن ويعلن ذلك، لأن هذا عمل غير أخلاقي، بسبب أنه إذا كان قد تم فحصهم فلا يصح أن يقول شيئًا حتى بعد الوفاة عن أحوالهم النفسية، وإذا كان لم يرههم فهذا عمل غير علمي لأنه سيقوم على استنتاجات، فالطبيب النفسي عندما يشخص يعتمد على أدلة علمية، ولذلك فلا يستطيع بالاستنتاجات عن طريق التاريخ مثلًا أن يحللهم، خاصة أن التاريخ نصفه مزيف وغير حقيقي. هناك ٤٠٪ على مدى الخمسين عامًا الماضية من الحاصلين على نوبل يعانون من أمراض نفسية، وقد كتبت عن جون ناش عالم الطبيعة الشهير كواحد منهم، وكنت التقيته في مدريد، وهو يلقي محاضرة في ندوة أقوم برئاستها، وقال لي: «هل رأيت فيلم A»

«BEAUTIFUL MIND»؟»، وقلت: «رأيتَه ثلاث مرات»، وسألته: «هل يعبر عنك؟»، فقال: «لا، فقد غيروا في بعض الأحداث، حيث صوروني أنني أتلقى العلاج من المستشفى، وإنما كنت أعالج بالمستشفى، ولم أكن أتعالى الدواء، لكنني الآن أخذ الدواء». وما أحزنتني أنه قال لي إن ابنه الوحيد الذي جاء معه إلى مدريد يعاني من فصام أيضًا. وللعلم، فإن ناش حصل على نوبل عن جهوده قبل المرض، وقال لي: «إنهم صوروني في الفيلم أحيانًا في حالة سعادة وأحيانًا في حالة حزن، ولكن لم أكن في يوم ما في حالة من السعادة». كما أن رئيس وزراء النرويج أصيب باكتئاب، فقال له الطبيب: «لا تأخذ قرارات قبل أن تُشفى»، فذهب إلى مجلس الوزراء وأخبرهم أن الطبيب لا يسمح له باتخاذ قرارات إلا بعد أن يُشفى، وبعد أربعة أشهر قال له الطبيب: «تستطيع الآن أن تتخذ قرارات»، فأخبرهم بذلك، وبدأ ممارسة عمله. وبوش نفسه قال: «أنا عولجت من إدمان الكحول».

■ ما تحليلك النفسي لمتهمي حادث بني مزار والإسكندرية؟

بالنسبة لمرتكبي حادث بني مزار، فأنا لم أفحصه، ولكن من خلال خبراتي في الطب الشرعي حيث كنت مستشارًا لمدة اثني عشر عامًا لوزير العدل، أستطيع أن أحلل الموضوع كالتالي: أولاً: لم أر في حياتي مريضًا نفسيًا أو عقليًا يقوم بجريمة مرتبة في وقت قصير بهذه الحنكة، والتدريب. ثانيًا: إن مريض الاكتئاب الذي يقتل أولاده وزوجته ينتحر بعدها، ولكن من الواضح في أسلوب الجريمة وطريقتها أنها متواكبة مع تفكيره. وأكدت أن الجاني الحقيقي لهذه الجريمة قد يكون وراءه فكر أيًا كان، سواء سحر أسود أو انتقام أو فكر خاطئ، وبالتأكيد فإنها ليست جريمة تنتج عن المرض العقلي. وما أحزنتني استناد الداخلية في دليلها ضد متهم بني مزار إلى القول بأنه ذهب مرة واحدة للطبيب النفسي، وبالطبع ليس هناك علاقة بين المرض النفسي والجريمة، فـ ٨٥٪ من جرائم العنف والاعتصاب يقوم بها أناس طبيعون، و١٥٪ فقط من الجرائم يقوم بها المرضى النفسيون.

■ وماذا حدث إذن؟

الذي حدث أن التقرير أقر بأن المتهم سليم نفسيًا ولكنه محدود الذكاء، أي أقل من المتوسط، وهذا لا يستطيع أن يقوم بالجريمة، ولهذا لم يستطع تمثيل الجريمة. إذن، فالنتيجة واضحة أن هذا الشخص لم يرتكب الجريمة. وإذا كانوا عايزين يلبسوه الجريمة عشان الأمن يرتاح، ده أنا ما أعرفوش. فالمريض العقلي من الممكن أن يكون ذكاؤه عاليًا وأكثر من الشخص السليم، فأحيانًا يكون أذكى من الطبيب النفسي.

■ وماذا عن مرتكب حادث الإسكندرية (2)؟

هذه الجريمة بها بعض الثغرات أيضًا، أولها كيف ترك الأمن هذا الشخص يتجول بحرية بين الكنائس؟! فلأسف الأمن حتى يسهل الأمور ويهدئ الرأي العام يتسرع في أحكامه عن مرتكبي الجرائم، وهذا ما يتسبب في حدوث نكبات شديدة جدًا مثلما حدث في سيناء ثلاث مرات، الذين اتخذوا فيها «نظرية المناورة» لتبرير ما حدث، وألقوا بالاتهام على إسرائيل، ولكن عليهم التأكد من أن التسرع في القبض على مرتكبي الحادث أو غيرهم ومعهم أسرهم سيولد عنفًا أقوى، فالعنف يولد العنف.

قراءة نفسية للشخصية المصرية

أجرى هذا الحوار: محمد علي خير، ونُشر في جريدة «الفجر»، أكتوبر ٢٠١٠

لا يحتاج عالم النفس الكبير الدكتور أحمد عكاشه إلى تقديمه في حوار. ربما احتجت تلك المساحة كي أعرض لما قاله أكثر من حاجتي لتقديمه. في هذا الحوار قال لي الدكتور عكاشه كلامًا وآراء صادمة عندما سألته عن الشخصية المصرية، فقال: «إن الشخصية العربية عمومًا منافقة»، وعزا ذلك لأسباب سنعرض لها. وحلل لنا التركيبة النفسية للصائم الذي يرتشي ثم يعتمر بفلوس الرشوة، ورأى أن تلك الشخصية تمارس مع نفسها أكبر قدر من خداع الذات حتى تمرر هذا السلوك. والأهم أن حوارنا لم يخلُ من السؤال عن الحشيش ومدمنيه، والتعذيب وضباطه، وهل يذهبون للعيادة النفسية للعلاج. وإلى أول سؤال:

■ هل نحن شعب حشّاش يا دكتور عكاشه؟

حسب إحصائية وزارة الصحة فإن نسبة ١٠٪ من المصريين إما جربوا تعاطي الحشيش أو يتعاطونه على فترات متقطعة أو مدمنون له. وإذا قارنا إدمان الحشيش في مصر بمدمني الخمر في أوروبا على سبيل المثال، فسوف تختلف النسب، حيث يشرب جميع الأوروبيين الخمر، لكن نسبة الإدمان بينهم قليلة، ونسبة ١٠٪ من المصريين معقولة وتتماشى مع النسب العالمية.

■ ما المخدر الأكثر انتشارًا بين المصريين؟

الحشيش، يليه مباشرة الكحول، ولا أقصد الخمر بمعناها المباشر، بل الأنواع الرديئة من الكحوليات.

■ هل القضاء على الحشيش أفاد المزاج العام أم أضره؟

وهل تم القضاء على الحشيش؟

■ حسب تصريحات سابقة لبعض قيادات مكافحة المخدرات بمصر، فإن ذلك قد جرى فعليًا.

شوف، ممكن نتفق على أن كمية الحشيش قلت، لكن لا يزال الحشيش موجودًا في الأسواق، قد يرتفع سعره لكنه موجود، كما أن ٧٠٪ من المرضى في مستشفى الخاص بيحششوا.

■ هل يمكن لدولة أن تقضي نهائيًا على الحشيش؟

القضاء على الحشيش موضوع صعب، ولا توجد ولن توجد في العالم دولة قضت على الحشيش، عندك دولة مثل هولندا لا تجرم الحشيش، ووجهة نظرها هي أن ما يتم إنفاقه على مقاومة الحشيش يمكن صرفه على التوعية بمخاطره.

■ إنها نفس فلسفة دول العالم في التعامل مع السجائر؟

النيكوتين والكحول والكوكايين، مصادر أولى للإدمان، الحشيش به منافع لكن أضراره أكبر جدًّا.

■ هل يمكن أن تعيش الشعوب بدون مخدرات؟

لا يوجد شعب في العالم ليس بين أفرادهم من لا يتعاطى المخدرات، لكن المتعاطون هم القلة.

■ دعنا نترك الحشيش ومدمنيه ونسألك عن اكتئاب الشعوب؟

أعتقد أن كلمة اكتئاب أسيء استخدامها، فكل واحد متضايق شوية يقول أنا مكتئب، علمًا بأن الأمراض النفسية عددها ٤٤٥ مرضًا نفسيًا لكن الاكتئاب أشهرها، وهو مرض موجود بالمش، حيث هناك موصلات عصبية تعمل من خلال منظومة، وعندما يحدث خلل في تلك المنظومة يقع الاكتئاب.

■ وما أعراض الاكتئاب؟

أهم عرض للاكتئاب هو الأمراض الجسمية، حيث يصاب ٧٠٪ من مرضى الاكتئاب في البداية بأوجاع جسمية في البطن والظهر ثم تبدأ الدوخة والصداع، وربما يصاحب ذلك آلام في القولون، وتصيب الأعراض الاكتئابية المكتئب بالشعور بعدم جدوى الحياة، وأنه غير مهم ولا دور له، والأعراض الاكتئابية لا تستحق العلاج، لكنها تؤثر على نوعية الحياة والإنتاج.

■ عندك تفسير علمي لهذه الآلام الجسمية؟

العين لا تبكي فقط، فالجلد والمعدة والقولون يكون أيضًا، والاكتئاب مرض يجب علاجه بينما أعراضه تختلف عنه، وينتشر في العالم سنويًا مليون إنسان، ٧٠٪ منهم بسبب الاكتئاب.

■ التفاصيل كثيرة، لكن دعنا نعود إلى أصل السؤال وهو: هل تكتئب الشعوب؟

الشعوب تصاب بأعراض اكتئابية، لكنها لا تصاب بالاكتئاب. والشعوب كالأفراد، منها الناجح ومنها الفاشل.

■ ما تعريفكم للشعوب الناجحة؟

الشعوب الناجحة لديها هدف واحد وأمل واحد. فمثلًا المصريون كانوا يبحاروا الإنجليز ولم يصابوا بالاكتئاب أو بأعراضه لأن الناس كان لديها هدف وهو طرد المحتل الذي كان يفتح الكباري على المتظاهرين لإغراقهم.

■ وما الذي جرى لنا؟

للأسف، إنا منذ ثلاثين سنة ليس لدينا هدف واحد نلتف حوله، مما أصابنا جميعًا بالأعراض الاكتئابية. وطني أن الصحة النفسية للمصريين بها خلل شديد، ونعني بها جودة الحياة والسعادة والقدرة على العمل والإنتاج والانتماء.

■ ما مكونات الصحة النفسية؟

لها أربعة مكونات: أولها: قدرة الإنسان على تحمل ضغوط الحياة، والصمود أمامها، والاستمرار في مواجهتها، مع القدرة على التحكم في انفعالاته. وإذا نظرت للمصري الآن فستجد أن أقل شيء يجعله عصبيًا ويصل به إلى حد القتل، مثل حادثة سائق المقاولون العرب، وبالتالي انفعالاته سريعة مما يجعله

دائم الخطأ في حق الآخرين وحق نفسه. ثاني مكونات الصحة النفسية: أن الإنسان إذا عمل بجدية وإخلاص وتفان تتكون لديه قناعة أنه سينال حقه. ثالثًا: العطاء عن حب وبطريقة مثمرة. رابعًا: شعور الإنسان أن له قيمة في مجتمعه. المكونات الأربعة السابقة لن تجدها محققة في مصر.

■ هل توجد إحصائيات ترصد نسبة الأعراض الاكتئابية لدى المصريين؟

وفق بحث أجريناه منذ سنوات قليلة، بلغت نسبة الأعراض الاكتئابية في الريف ٣٨٪، وفي الحضر ٢٨٪، أما الآن وبسبب هجرة كثير من سكان الريف إلى الحضر، فلا أعتقد أن تقل الأعراض الاكتئابية في الريف الآن عن ٧٠٪، والحضر ٦٠٪.

■ وما نسبة المكتئبين في مصر حاليًا؟

النسبة وفقًا لآخر بحث أجرته وزارة الصحة تشكل خمس المصريين، ولدى المواطن أمراض نفسية مختلفة، وإذا كان المصريون يشكلون ١٪ من سكان العالم والعالم به مائة وأربعون مليون مكتئب، يبقى إحنا عندنا مليون ونصف المليون مكتئب، والعالم كله به خمسمائة مليون مريض نفسي يحتاج إلى علاج. وفي مصر خمسة ملايين مريض نفسي يحتاجون إلى علاج.

■ هذا رقم كبير من وجهة نظري!

كلما كانت الحياة صعبة وبها فقر وبطالة وقهر ونفتقد الأمل والهدف القومي، فإننا نصاب بالحسرة واليأس، ويغيب عنا الابتكار الذي يتطلب وجود مخ يقظ غير معتم أو ملوث.

■ كيف ترى المزاج العام للمصريين الآن؟

مركز دعم القرار بمجلس الوزراء قال إن ٨٤٪ من المصريين لا يثقون في بعضهم أو في المؤسسات الأمنية والقضائية والحكومية.

■ وكيف تقرأ هذه الإحصائية؟

إذا كنا نعيش في نسيج اجتماعي لا أحد فيه يحب الآخر أو يثق فيه، فنتيجة ذلك هي غياب الثقة مما يؤدي إلى عدم الحب، ويمكن وصف هذا المجتمع بالمتفسخ.

■ هل مزاج الشخص تحدده العوامل الوراثية أم البيئة التي يولد فيها؟

نولد ولدنا استعداد بمزاج خاص ليس له علاقة بالوراثة عبر الأب أو الأم، فهناك مزاج عصبي أو خائف وآخر اكتئابي أو نكدي أو نوابي ويحمل نوبات من التفاؤل والحماس والانبساطية ويتناوب مع الاكتئاب، وهناك مزاج نشط يدمن العمل والنجاح، وهذا مزاج القادة. ثم يولد الإنسان أيضًا بسمات ليس للوراثة دور فيها، كان يولد انطوائيًا أو اجتماعيًا، متوازنًا عاطفيًا أو غير متوازن عاطفيًا، وهو الشخص القادر على إدارة الغضب والانفعال، الإنسان يولد ولديه ميول ليبرالية أو متطرفة.

■ عايز تقولي إن الواحد بينزل من بطن أمه بجينات ديمقراطية أو دكتاتورية أو متطرفة؟ يعني هو ورزقه؟

أقصد متطرفًا أو غير متطرف، ودليلي هنا أن إخواننا الشيوعيين في مصر عندما انتهت الشيوعية وجدناهم «قلبوا» وأصبحوا متطرفين دينيين. وفي إسرائيل اللي هاجر إليها هم المتطرفون فقط، بينما المعتدلون منهم رفضوا الهجرة إلى إسرائيل. لذلك أتوقع عدم حصولنا كعرب على حقوقنا من الإسرائيليين، لأننا نتعامل مع متطرفين. والتطرف ليس في الدين فقط، بل في السياسة والحب.

■ وماذا عن بقية السمات التي يولد بها الإنسان؟

السمة الرابعة هي الميول المستهينة بالمجتمع، مثل الكذب والسرقة والإدمان والخمرة، ويولد هؤلاء ولديهم استعداد لارتكاب تلك الأعمال. وخامس تلك السمات هي الذكاء، ولا تأخذه من الأب أو الأم، بل تولد به. والأخلاق عنصر مساعد له وكذلك البيئة.

■ لماذا أصبحنا نقتل لأتفه الأسباب؟

لأن الجهاز العصبي أصبح غير سوي. كيف؟ هناك فص في المخ موجود وراء الجبهة الأمامية وغير موجود في الحيوان، وهو المسؤول عن الصواب والخطأ والحلال والحرام ويتحكم في عاداتنا الاجتماعية، وإذا حدث تشوه للقيم والمعايير داخل البيئة التي نعيش فيها، فإن هذا الفص تتوه لديه المعايير التي يحتكم إليها في لحظات الغضب والانفعال.

■ وما الذي يحدث حينئذ؟

كل فعل يمكن أن نتوقعه، يكفي أن نعرف أنه لا يوجد مخلوق يقتل أحدًا من فصيلته سوى الإنسان، فالحيوان لا يقتل من فصيلته.

■ هذا الفص الجبهي كان موجودًا في رأس المصريين منذ عشرات السنين، ورغم ذلك فإنهم لم يقتلوا لأتفه الأسباب، مثلما نرى الآن!

يتأثر هذا الفص بالبيئة المحيطة به، وعندما تميزت عناصر تلك البيئة بالاعتدال، تميزت الشخصية المصرية بالوسطية، وقبول مصاعب الحياة بسخريّة وابتساميّة.

■ لكن ماذا جرى للشخصية المصرية وجعلها بهذا الشكل؟

عندما يتأثر الجهاز العصبي بالأسباب السابقة ويفقد القدرة على إدارة الانفعال والغضب، فإنه يُقبل على العنف والقتل. كما أن العولمة زادت من انتشار العنف، وساهمت الفضائيات وأفلام العنف في ذلك. وعندما يصل الطفل إلى سن الخامسة عشرة يكون قد شاهد أكثر من مائة ألف مشهد عنف، بمتوسط ساعة ونصف الساعة مشاهدة في اليوم. وعندما ترى الدم والقتل يوميًا فسوف تصاب بالبلادة، وأقرب مثال لذلك ستجده عندما بدأت حرب العراق، حيث كنا نشاهد مقتل قلة من العراقيين، وكنا نهلع ونجزع ونأسى، لكن مع تكرار رؤيتنا لذلك فقد أدمنا رؤية العنف فأصابتنا البلادة.

■ من هم أكثر فئات المجتمع زيارة للعيادة النفسية، نجوم الفن أم الرياضة أم السياسة؟

الزوار من نجوم الكرة قلة، لأنه طالما النجم لا يزال في الضوء فإنه لا يفكر في علاج النفس المتعبة، لكن كلما قلت الأضواء احتاج لزيارة الطبيب النفسي. وانحسار الأضواء يؤدي للإصابة بالأمراض النفسية، رغم أن انحسار الضوء يمكن أن يمتعك أصلًا.

■ لماذا انتشرت الحراسات الخاصة وأسوار الكومباوند؟

للأسف الشديد، لدينا الكثير من الأماكن العشوائية، وقد حدثت خلخلة في النسيج الاجتماعي المصري، وأصبح المصريون يعيشون في جزر مستقلة ومنفصلة بعضها عن بعض.

■ كيف حدثت تلك الخلخلة في نسيج المجتمع؟

إذا حاربت المناطق العشوائية بتجمعات الكومباوند فستجد غياب المياه والكهرباء والمدارس والمستشفيات، وانتشار المخدرات والبطالة في تلك العشوائيات، والعكس في الكومباوند، حيث المدارس الخاصة والمستشفيات الخاصة ولغتهم أجنبية، ويخشون الاختلاط بالعشوائيات، وهذا لم يكن موجودًا من ذي قبل عندما كان يعيش الفقراء حول قصر الغني، وكان ينفق عليهم ويعالجهم، أما الآن فالفقير لا يعالج.

■ كيف يرتشي الموظف في رمضان ويعتمر بفلوس الرشوة؟

هذا ما نسميه خداع الذات، حيث يعتقد المصري أن لديه علاقة خاصة لوحده مع ربنا، وأن بإمكانه الضحك على ربنا. والسبب هو ذوبان الحدود في الخطاب الديني. وكل واحد يعمل حدود لنفسه ونجح في خداع ذاته عندما أقنعها أنه لا يعمل شيئًا خطأ، بينما لينين الذي لا يؤمن بالله كان يقول: «النقد الذاتي هو خيزي اليومي». وعندما غاب النقد الذاتي عن المصريين حدث انفصام تام بين جوهر الدين ومظاهر الدين. والشعب المصري الآن يعيش بمظاهر الدين.

■ هل أثر الدّش وفضائياته على حياة المصريين وشخصياتهم؟

أسعد شعوب العالم هي الدنمارك، والسبب أن توقعاتهم للحياة متواضعة، بينما في مصر ستجد البواب عنده ديش ثم ستكتشف عدم تناسب أحلام أولاده مع إمكانياتهم. والدّش نقل المصريين إلى عالم آخر مليء بالتطلعات الاستهلاكية.

■ لماذا أصبحت الشخصية المصرية خائفة؟

تزيد مساحة الخوف مع انتشار القمع والاستبداد والطوارئ.

■ في مصر أعلى نسبة تحرش جنسي في العالم رغم انتشار التدين!

أتذكر عندما كنت طالبةً كانت ترتدي زميلة لنا ميني جيب وتجلس بجانبني، وأقسم أنني لم أنظر إلى جسدها، وحرصت زميلاتنا على احترام زملائهن الطلاب. المشكلة أن هناك غطاء للمرأة والبعض يصر على أن يعاملها على أنها جسد ورمز جنسي، مما يثير رغبات دفينة عند بعض النفوس الضعيفة.

■ رغم أننا مجتمع مفتوح، فلماذا التحرش؟ وكيف نفسر ارتفاع النسبة مقارنة بمجتمعات منغلقة في الخليج؟

أنت لا تعرف الحقيقة في تلك المجتمعات المغلقة، ثم أين هي القنوات الطبيعية التي يجب أن تسير فيها الطاقة الجنسية الهائلة للشباب، مثل الدين والإيمان بالله وممارسة الرياضة في الأندية التي لا يشترك فيها إلا نصف في المائة من المجتمع، والقيم والأخلاق، كما أن ملاعب المدارس اختفت.

■ وأين الهدف الذي يلتف حوله الشباب؟

غاب الهدف الذي يمتص حماس الشباب، فلا يستطيع الشباب الزواج الآن إلا في سن متأخرة، ويعاني البطالة ويتعاطى المخدرات. وخلي بالك أن المخدرات تؤدي بنسبة ٧٠٪ إلى عدم عمل الفص الجبهي، لذلك فإن معظم الجرائم التي تحدث في أوروبا تقع تحت تأثير الخمر، وفي مصر جرائم القتل سببها المخدرات، مثل قضية مذبح التلفزيون التي وقعت مؤخرًا.

■ عندك تفسير يا دكتور لظاهرة ارتفاع نسب الطلاق في مصر؟

التسرع في الزواج هو السبب الرئيسي للطلاق، بسبب قوة الرغبة الجنسية للشباب، كما يُبنى الزواج بين الشباب على أسس فردية (للعريس والعروسة فقط)، وليس على أسس عائلية، وبالتالي غابت دراسة الشخصية، أضف إلى ذلك وجود صعوبة لدى حديثي الزواج في مواجهة صعوبة الحياة.

■ انتهت أسئلتي الاجتماعية وعاوز أسألك عن شخصية ضباط التعذيب، فهل تذهب تلك الشخصيات للعلاج على يد الطبيب النفسي؟

لا، والسبب أن تلك الشخصيات متجمدة العاطفة. ومن يذهب للطبيب النفسي هو إنسان لديه إحساس.

■ بالمناسبة يا دكتور عكاشه، إذا مرض الطبيب النفسي نفسيًا، فإلى من سيذهب؟

سوف يذهب إلى زميله أو أستاذه للعلاج مما يعانيه، لأنه إنسان يعاني مثل أي بني آدم وليس لديه مناعة.

■ ومتى ذهب الدكتور عكاشه إلى عيادة طبيب نفسي للعلاج؟

إلى الآن لم أحتج للذهاب إلى زميل لي أو أستاذ، ربما لأنني محترف فهم للسلوك الإنساني، ولأنني أعرف أن جودة الحياة هي الصحة النفسية.

■ هل تتأثر نفسيًا من معاشتك لمشاكل الناس؟

عندي مقدرة على الفصل بين عملي وحياتي الخاصة، حيث أقضي وقتي بعد العمل في القراءة، وأتواصل إنسانيًا مع الأهل والأصدقاء، وأعيش الحياة العادية.

■ إذن، أين تكمن معاناة الطبيب النفسي؟

معاناة الطبيب النفسي تكمن في رؤيته من حوله على حقيقتهم وليس في الصورة الاجتماعية التي يبدون عليها.

■ انتشار ظاهرة عدم احترام الدولة لأحكام القضاء مسألة مفزعة، ما تأثيرها على نفسية المواطن؟

فقد الانتماء، لأنه في تلك الحالة لا يكون أمامه طريق للحصول على حقوقه سوى يده.

■ ارتدى المصريون السواريه في حفلات أم كلثوم، وخلعوا هدومهم وظلوا واقفين بالساعات في حفلات هذه الأيام، عندك تفسير غير أنها سنة الحياة؟

لا ننكر طبعًا أن أحد أسباب ذلك هو تطور الأمور والعادات، لكن إضافة إلى ذلك كان هناك احترام من الفرد لذاته وغيره، كما كان هناك تذوق فني رفيع للثقافة والفنون، لكن ما نراه الآن هو التسبب، والمصري يتمتع بالتذوق القبحي في حواسه الخمس.

■ كيف؟

المصري «لا يرى» إلا القبح والقدارة، و«لا يسمع» إلا الدوشة، و«لا يشم» إلا العادم، يكفي أن تعرف أن السير في ميدان رمسيس يعادل تدخين علبتي سجائر، فعادم السيارات خطره أكبر من التدخين، والمصريون مصابون بنسب عالية من أمراض كثيرة، مثل سرطان الكبد والمثانة وأمراض الكبد.

■ حضرتك قفلتها كالدومينو!

ألا تحزن عندما تعرف أن فيتنام ومصر هما أكبر بلدين في العالم يسجلان أعلى إصابة بإنفلونزا الطيور؟!

■ أحزن طبعًا. لكن تعالَ نتحدث عن الشخصية المصرية، وهل يمكن وصفها بالمنافقة؟

نعم، لكن ليس الشخصية المصرية فقط، بل الشخصية العربية عمومًا، لأن العوامل التي تؤدي إلى النفاق أو المناخ العام شبه واحدة لدى كل الشعوب العربية.

■ هل يجوز تعميم الإجابة؟

الغالبية منافقة، بعد أن أضحت السلطة في أيدي البعض يتصرف بها كيفما شاء، وليس أمامك كمواطن الحق في أن تقول أه أو لأ، لأن مواجهة هذه السلطة بالرفض يمكن أن يكلفك حياتك، إذن لا يوجد بديل أمامك إلا النفاق وتحديدًا نفاق المواطن للسلطة.

* * *

قال لي الدكتور أحمد عكاشه على هامش حوارى معه إن خيرًا نفسيًا أمريكيًا حكى له أن الرئيس الأمريكي الأسبق كارتر جتد لمدة عام كامل عددًا من خبراء النفس لدراسة شخصيتى الرئيس الراحل أنور السادات ورئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق مناحيم بيجين قبل توقيع اتفاقية كامب ديفيد، واستفادت الإدارة الأمريكية من تلك التقارير، حيث ساعدتهم في إتمام توقيع الاتفاقية والتي أدبرت بشكل نفسى، حيث وصف الخبراء شخصية بيجين بالذيق المتحفظ، والسادات بالاندفاعى والشخصية غير الصبورة.

كنت أتمنى أن أكون خبيرًا في الطهي

أجرت هذا الحوار جريدة «المصري اليوم»، أكتوبر ٢٠١٠

■ ما السعادة من وجهة نظرك؟

جميع العلماء والفلاسفة عجزوا عن تعريف السعادة، لأنها سراب وليست حقيقة، إلى جانب أنها غير مستقرة، تأتي على فترات وليست دائمة، ولو كانت كذلك لكانت حبيماً، فنحن لا نعرف السعادة إلا إذا عرفنا الشقاء والألم والمعاناة، لذلك نحاول أن نجد بديلاً لها، في الحالة النفسية والاقتصادية والاجتماعية والروحية. وإذا سألتني: هل لديك نوع من الرضاء عن الحياة؟ فسأقول: نعم، وأحمد الله على ذلك، إذ إنني حققت الكثير مما كنت أصبو إليه في حياتي الفكرية والطبية والنفسية.

■ هل تزوجت عن حب؟

الحمد لله، تزوجت الإنسانية التي وجدت فيها التقارب الفكري والمشاركة الوجدانية والراحة النفسية والإحساس بالأمان، ووجدت أنها ستكون أمًا مثالية لأبنائي، وإذا كان هذا هو الحب، فقد تزوجت عن حب.

■ لديك اثنان من الأبناء تربيا على ثقافتين مختلفتين، ثقافة الأم الأجنبية والأب المصري، كيف تعاملت مع هذا الوضع؟

كانت لدى زوجتي المرونة لأن تتشكل سريعاً وفق الحضارة والثقافة المصرية، حتى إنها ربنتهما تربية إسلامية شرقية، لدرجة أنها كانت تصطحبهما في صغرهما ليصليا الجمعة، وتنتظرهما أمام المسجد، وقد استفادا من الثقافة المصرية مع تطعيمهما بالثقافة الغربية، وهو ما أدى إلى تعدد المدارك لديهما.

■ هل كنت تخشى على ابنك من التشكل وفق ثقافة الأم؟

لم أقصد ذلك، فقط أردت أن أقول إنه كان يجب ألا يكون ابناي غريبين عن ثقافتهم المصرية. ولو كانا تربيا على الثقافة المصرية فقط، وبخاصة مع التدهور الحضاري الحالي، لكانت مأساة لي، لكن ثقافة ابني تم تطعيمها بالثقافة الغربية، خاصة أنني حصلت على بكالوريوس الطب فقط من مصر، وباقي شهاداتي العلمية حصلت عليها من الخارج، وليس من مصر، لكنني حصلت على عدة جوائز.

■ حدثنا عنها.

جائزة الدولة التقديرية في العلوم الطبية، وجائزة الدولة في الإبداع الطبي، وجائزة مبارك (3)، وقد كُرمت في الخارج قبل تكريمي في مصر، حيث تم اختياري أول رئيس للأطباء النفسيين في العالم من خارج أوروبا وأمريكا، ورؤساء جمعيات الطب النفسي في العالم هم الذين اختاروني رئيساً للجمعية التي تتكون من مائتي ألف طبيب من مائة وست وثلاثين دولة، كل ذلك كان قبل تكريمي أو حصولي على جوائز في مصر.

■ هل تتذكر أول موقف غازلت فيه الفتاة التي تحبها؟

الحمد لله، لم أضع نفسي في هذا الموقف، لأنني أحترم نفسي، لكنني بشكل دائم في حالة حب مستمرة منذ ولادتي، ولم أتوقف عن الحب بكل أنواعه، حب العلم والأدب والطب والمرأة والجمال

والخير والله والصدقة. وكما يوجد جماع جنسي، هناك جماع روحي وفكري وعاطفي، وأرى دائمًا أن من لا يستطيع أن يحب ليس بإمكانه الاستمرار في الحياة، فالحب حياة والكرهية مرض.

■ أيعني ذلك أن من ليست لديه القدرة على الحب مريض؟

بالطبع، ولدينا أمراض تبُلِّدُ العواطف وتجمد الانفعالات، وهذه مشكلة خطيرة جدًّا، فمثلًا مريض الفصام لا يعرف الحزن من الفرح، لأن عواطفه متجمدة، وأحيانًا إذا تعرض لأزمة كبرى لا ينفعل بها. وهنا أذكر حين حضر إليّ مريض شاب، وسألته عن والده الذي كان يأتي معه، فأخبرني بأنه تُوقى بالأمس، فسألته: «ولماذا جئت اليوم؟»، فقال: «حضرت التزامًا بموعدي معك»، ولم تبدُ عليه أي علامات حزن أو أسى. وهذا ما أقصده بتبليد العواطف.

■ أ توجد أعراض أخرى للفصام؟

نعم، ومن أشدها قلة الكلام وإهمال الذات وعدم وجود أيٍّ من أنواع الطموح، وفي الوقت نفسه تجمُّد العواطف.

■ هل للتربية دخل في ظهور هذا المرض؟

إطلاقًا، هو مرض موجود في كيمياء المخ.

■ هل يُعد الجنون مرضًا نفسيًّا؟

كلمة «مجنون» لا توجد في قاموس الطب النفسي، ودُكرت في القرآن الكريم خمس مرات، وصفاً للأنبياء عندما أتوا بأشياء لم يتعود عليها المجتمع، فلم ترد على أنها مرض، و«جنَّ الشيء» يعني اختفى واستتر، وكلمة «جنين» تعني مستتر، و«المجنون» هو الذي يوجد ستار على عقله، و«الجن» أحد المخلوقات الخفية المستترة عن الإنسان.

■ أ يستطيع أي إنسان التعبير عن نفسه؟

لا طبعًا، لأن قدرة الإنسان على التعبير عن نفسه تتطلب ثراءً ثقافيًّا وفكريًّا ولغويًّا، فأحيانًا يأتي مريض يقولون إنهم لا يشعرون بأي متع في الحياة، وإن الموت أفضل لهم، ولا يريدون لأبنائهم أن يعانون ما يعانونه، لدرجة أنهم يعلنون رغبتهم في التخلص من أنفسهم وأسرهم.

■ هل تحب المطبخ؟

لا، وهذا عيب شديد في شخصيتي، وكنت أتمنى أن أكون خبيرًا في الطهي، لكنني لا أجيده للأسف الشديد.

■ أي أنواع الأكل تفضلها؟

أحب الكيف وليس الكم. وأفضل دائمًا المشهيات مثل السلطة والزيتون والبيض، وكل ذلك بكميات قليلة جدًّا. وعندني ميزة مهمة، هي أنني أحب التمتع بالأشياء بكل حواسي، فأنا كائن متذوق جدًّا، حتى المرأة، لا أنظر إليها كشكل بل كروح ورائحة وموسيقى تنبع منها وموجات أثرية وفكر.

■ أحرص على اتباع نظام غذائي معين؟

أخشى كثيرًا من زيادة وزني، حتى إنني بالرغم من عشقي للبسوسة لا أتناول منها الكثير خشية زيادة الوزن.

■ كيف تتعامل مع أفراد أسرتك؟ هل تنسى أنك أستاذ الطب النفسي الشهير، أم تتذكر ذلك دومًا، فترصد سلوكياتهم وتغيراتهم؟

بمجرد أن أغادر الجامعة أو المستشفى أو العيادة أعود مواطنًا عاديًا، لا علاقة لي بالطب النفسي، ولم أمارس أي نوع من نظريات التربية النفسية على أبنائي إطلاقًا، لكنني أستفيد من خبراتي في فهم ما يحدث حولي، خاصة سلوكيات أبنائي، لكن أن أفكر في تربية أبنائي بطريقة نفسية معينة، لم يحدث على الإطلاق.

■ هل عالجت أحد أفراد أسرتك يومًا ما؟

طوال الوقت، جميعنا يعالج نفسه بنفسه، من خلال الصداقة التي أعتبرها أفضل طبيب نفسي، لأن العلاج النفسي ما هو إلا تفرغ للمشكلات الموجودة في حياة الإنسان، وهذا التفرغ يمثل ٧٠٪ من العلاج، إلى جانب وجود ٢٠٪ عبارة عن أسئلة استكشافية، و ١٠٪ تشجيع وإيحاء، فالصداقة علاج نفسي في المقام الأول.

■ هل عاقبت أحد أبنائك من قبل؟ وكيف؟

حدث ذلك مرتين فقط، وحين أعاقب أحد أبنائي، أحرص على ألا يكون العقاب أمام أحد، ودون تعصب أو تطاول، كي لا أسبب له حرجًا، حتى إنني أسأل الذي سيعاقب وأستشيريه في العقاب، بحيث ينشأ الابن ولديه نوع من الكرامة والثقة في النفس.

■ وماذا عن الأم، هل كانت تتبع ذات المنهج؟

نعم، كانت تفعل مثلي، خاصة في غيابي، وأذكر أنها جعلت ابتي الاثنتين يقفان أمام الحائط، وكان هذا عقابًا، فهي وأنا نؤمن دومًا بضرورة الحوار.

■ إذن، لم يكن الضرب إحدى وسائل عقابك لأولادك؟

مرة واحدة حدث فيها ذلك، وكانت مع ابني الأكبر طارق.

■ وما السبب الذي اضطررك إلى تغيير منهجك التربوي؟

اضطرت إلى ذلك حينما حضر ذات يوم تقريبًا من المدرسة حول أدائه وسلوكه، وكان تقديره غير جيد، فناقشته في الأمر، وقلت له إن ما فعله خطأ، وإنني لو صمت تجاه هذا الخطأ فسيفكره، لذلك يجب أن أعاقبه عليه، وحرصت على أن أؤكد له حبي واحترامي، وكان عمره آنذاك سبع سنوات، واستأذنته أن أضربه، وقلت لن أضربك على وجهك، فطلب مني أن أضربه على يديه، وكان له ما أراد.

■ وابنك الآخر؟

لا، لم أضربه قطّ.

■ وماذا عنك، هل حدث وعاقبك والدك بالضرب؟

إطلاقاً، بل كان شديد الرفق والحنان معي، خاصة أنني كنت ملتزماً ومنضبطاً وشديد الاهتمام باستذكار دروسي، حتى إنه كان يتعمد أن يخرج بي إلى الحدائق للتنزه، ليخرجني من حالة الإرهاق والضغط بفعل المذاكرة.

■ ماذا كان يعمل؟

هو اللواء محمود باشا عكاشه، وكان أحد باشوات زمان.

■ تتحدث عن الأشياء بحب، فهل أثر عشقك للفن والأدب على شخصيتك؟

تذوقي الفني والأدبي سببه الدكتور ثروت عكاشه، وكان منذ صغره مولعاً بالفن والأدب. وأتذكر أنني في سن السابعة كنت أسمع الأسطوانات معه، وأقضي معه الساعات في سماع «فاجنر» وكلاسيكيات السيمفونيات العالمية، وأبحث له عن الأسطوانات الأثيرة لديه، وفي المقابل كان يمنحني مقابلاً مالياً، كما كان يعلمني كيف أسمع، ويشرح لي ما أسمعه، فوجدتني مع الوقت مغرماً بالموسيقى والفن والأدب. وحين تم تعيينه ملحفاً في سفارتنا بباريس، كان يصطحبني إلى متحف اللوفر، ويعطيني بعض الكتب ويطلب مني قراءتها، ليسألني بعد ذلك في أشياء حولها، وعلى أساس استيعابي لها وإجاباتي يحدد موقفه مني: إما أن يخرج معي للنزهة من جديد، أو يحرمني من الفسح بعض الوقت، وهذا ما كان يتبعه معي حينما كان سفيراً لمصر في روما، حتى إنه كان يسمح لي بالجلوس مع أصدقائه.

■ قبل أن تصير طبيباً، ألم تفكر أن تكون ضابطاً مثل والدك وشقيقك؟

لم أفكر في ذلك ولو مرة واحدة في حياتي، فلكلّ منا اهتماماته.

■ من كان صاحب التأثير الأكبر في شخصيتك، شقيقك أم والدك؟

الأب والأم كان تأثيرهما أكبر تربويّاً وأخلاقياً، أما على الصعيد الفني فكان التأثير الأكبر لأخي الدكتور ثروت.

■ ومن كان مثلك الأعلى؟

لم أفكر في هذا الأمر من قبل، لكن يمكن أن أقول إن غاندي مثل أعلى في التجرد من السلطة والجسد والمادة، وجيفارا مثل أعلى في الوطنية.

■ وماذا عن محيط علاقاتك ومن تعرفهم؟

أمي كانت قدوة لي في القراءة. وزوج أختي، أحمد أبو الفتح، كان مثلاً وقدوة في التضحية، وكان رئيس تحرير صحيفة «المصري»، ومثالاً صارحاً في الوطنية والتفاني والإخلاص. وهناك أخي الدكتور ثروت عكاشه كان مثلاً لي في التواصل والحب، وحتى بعد أن بلغ نحو تسعين عاماً، لا يزال يكتب بالقلم الرصاص، ولا يفتني كمبيوتر، ولا تعمل معه سكرتيرة، كما أنه قدوة في الإصرار والمثابرة والاجتهاد.

■ ماذا عن أصدقائك؟

قليلون، لكن معارفي كثيرون.

■ هل لا تزال متواصلًا مع أصدقائك القدامى وزملاء الدراسة؟

نعم، وعلاقتي بهم طيبة حتى الآن.

■ هل وقعت في حب ابنة الجيران؟

كان والدي كثير الانتقال من منزل لآخر، وبعض الأسر التي كنا نسكن بجوارها لم تكن لها ابنة، وبعضها الآخر كان بها كثيرات، لكن لم يكن ذلك حبًا بالمعنى المعروف، بل كان إعجابًا ببعضهن.

■ ما أكثر شيء يجعلك تبكي؟

الوفاء الشديد وعدم الوفاء يجعلاني أبكي بشدة، وليس من الضروري أن يكون ذلك الوفاء أو عدمه بالنسبة لي شخصيًا، بل من الممكن أن يكون تجربة علمت بها، مثل أن يحكي لي أحد قصة حبه الشديد ووفائه لمن يحب، أو وفاء من يحبه له، ومن الممكن أن أبكي بسبب موقف مؤثر في فيلم أو مسلسل، خاصة إذا كان يتعلق بالوفاء أو عدم الوفاء.

■ ما أحدث فيلم جعلك تبكي؟

الحقيقة أنني لم أبك منذ زمن طويل تأثرًا بفيلم، إذ إن أفلام هذه الأيام أصبح إيقاعها سريعًا، وبها عنف كثير ودماء وقتل مثل أفلام جيمس بوند، وللأسف أفلامنا المصرية هذه الأيام، الحب بها «هايف» ولا تأثر كثيرًا بها، وحتى المسلسلات الحب ليس شيئًا أساسيًا بها، لذلك فإن كل الناس تتجه إلى المسلسلات التركية، لأن بها عاطفة قوية وبريئة، وأتذكر مثلًا فيلم «Love Story» الذي كان يبكيني بشدة حين أشاهده، حيث الوفاء الشديد والحب الملتهب ومرض الحبيبة، للأسف مثل هذا الفيلم غير موجود حاليًا.

■ من الشخصية التي تمنيت علاجها ولم يحدث؟

الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش، إذ لا يمكن لإنسان عاقل أن يرتكب هذه الحروب، ونفس الأمر مع أسامة بن لادن، إذ تمنيت علاجه من أفكاره السلفية المتطرفة.

■ والحكام العرب، ألم تتمنَّ أن تعالج أحدًا منهم؟

ما داموا على قيد الحياة فلا داعي لذكر أسماء، لكن لا شك أن بعض حكامنا العرب يحتاج تقويمًا نفسيًا.

■ هل تعتقد أن هناك أعضاء في الحكومة المصرية يحتاجون إلى طبيب نفسي؟

أذكر أن الأستاذ أحمد رجب كتب في «نص كلمة» أنه يعلم جيدًا أن اثنين من الوزراء الحاليين عولجا في أحد مستشفيات الطب النفسي، وكان ذلك منذ عشر سنوات، وقد أرسلت له ردًا ونشره، وقال في مقاله إن الدكتور أحمد عكاشه قال الحمد لله إن الوزيرين عولجا، وإن ما يخشاه ألا يتم علاج باقي

الوزراء، لأنني كنت أرى أنه ليست هناك مشكلة في وجود وزيرين جرى علاجهما، وأنه كان يجب على الأستاذ أحمد رجب أن يكتب عن من لم يتم علاجهم من الوزراء الباقين.

■ هل أصبت بأرق في وقت من الأوقات ولم تستطع النوم؟

كثيرًا. وللعلم، نحن لا نشخص حالة على أنها أرق إلا إذا استمرت لمدة ثلاثة أيام في أسبوع واحد، عانى المريض خلالها من عدم القدرة على النوم بشكل طبيعي. وأحيانًا كثيرة تصيني الأحداث اليومية والأخبار السيئة بالأرق، فمثلًا في اليوم الذي علمت فيه أن باكستان بها مليون مسلم لا يجدون الطعام، بعد أن غرقت مساحة كبيرة من البلد، لم أصب بالأرق فقط، بل حزنّت حزنًا شديدًا وأصابني التوتر.

■ هل تسبّب لك فرط إحساسك وسرعة تأثرك بالمواقف المختلفة في أزمات شخصية؟

المشكلة أنني عاشق لكل شيء، وهذا العاشق سريع التأثر بكل شيء. وللعلم، فالفضائيات سببت لي ولكثيرين عدة مشاكل، فمن وقت لآخر هناك كوارث وزلازل ومجاعات وحروب وبراكين وحوادث وكلها تصيب بالألم والحزن.

■ أتكتفي بالتأثر فقط، أم تحاول أن تصنع شيئًا؟

لست صاحب قرار لأصنع شيئًا أو أعير أي شيء. وحين حدثت كارثة «تسونامي»، كنت رئيس الجمعية العالمية للطب النفسي، وقدمنا إنجازات على مستوى عالٍ جدًا، والكثير حول السلام النفسي والعالمية، وقلنا إننا صنعنا اتفاق صلح مع إسرائيل لكننا لم نضع سلامًا. والمشكلة في الكوارث هي أن المنكوبين يحتاجون إلى طعام ودواء وشراب قبل العلاج النفسي في معظم الحالات عقب الكارثة، وهذه الكوارث تسبب لي الأرق.

■ حين يصيبك الأرق هل تتناول مهدئات؟

إطلاقًا، لكنني أقرأ الكتب. وأحيانًا قليلة إذا بلغ الأرق مداه، أضطر لتناول المنوم، وهنا أذكر أنني قبل انتخابات رئاسة الجمعية العالمية للطب النفسي، مررت بتوتر وأرق وقلق نفسي غير عادي جعلني ألجأ للمهدئات.

■ هل شعرت مرة بحاجتك للذهاب إلى طبيب نفسي؟

إلى الآن لم يحدث.

■ لو حدث، لمن ستذهب؟

إلى ابني الدكتور طارق عكاشه.

■ ألن تخجل منه؟

لا أخجل من أي عرض نفسي.

■ لكن الأب العادي يريد أن يضع نفسه في إطار معين أمام أبنائه؟!

وأنا لست أبًا عاديًا، فأسررتي تعرف نقاط ضعفي ومكامن قوتي.

■ هل بكيت أمامهم ذات يوم؟

بالطبع، فالدموع ليست عارًا، بل تعبير عن إحساس ورهافة مشاعر وفيضان أحاسيس.

■ ما الفئة التي تتردد أكثر على عيادتك، الفنانون أم السياسيون أم لاعبو الكرة؟

هناك إنسان لديه حساسية مفرطة، وهذا أكثر الناس معاناة، ومن الممكن أن يكون فنانًا أو سياسيًا أو لاعب كرة أو حتى بوابًا. وأعتبر المريض النفسي أكثر سمومًا في أحاسيسه من الإنسان الذي نطلق عليه كلمة «عادي»، ودليل ذلك أن الحيوانات لا يصبها المرض النفسي، إلا الكلب والحصان الذي يكتئب حين يموت صاحبه. وللعلم، فإن احترامي للمرض النفسي والمريض النفسي كبير جدًا، وأنا ضد السخرية من المريض النفسي.

■ هل يعرف المريض النفسي أنه مريض؟

ما بين ٨٠% و٩٠% يعرفون مرضهم، ونسبة بسيطة من المرضى لا يدركون ذلك.

رؤية نفسية لسياسة النظام السابق

أجرى هذا الحوار: طارق صلاح، ونُشر في جريدة «المصري اليوم»، يونيو ٢٠١١

■ ما رأيك في الاحتجاجات الفتوية والمظاهرات وغيرها من مظاهر سلبية تكررت كثيرًا بعد الثورة؟

أولًا، من شدة فرحتي بالثورة أحب أن أذكر دائمًا بأنها ثورة فريدة من نوعها، لأنها أول ثورة في العالم يقوم بها الشباب المثقف المتعلم المتفتح، وهذا ظهر واضحًا من خلال شبكة الإنترنت، وقد ظهر جليًا أنها ليست ثورة جياح، كما أنها ليست انقلابًا عسكريًا، وليست دموية، ثم إن الانفلات الموجود حاليًا لا دخل للشباب الثورة فيه، وأنه يحدث بأيادي من ركبوا عليها، إضافة إلى راغبي الفتن وأصحاب الضمائر المعدومة الذين يرغبون في تحقيق مكاسب خاصة، أو الانقلاب على الثورة. وأؤكد أن الثورة ناجحة بفضل الله وأبناء مصر الأوفياء، ولكن يجب استعمال القوة الرادعة مع الخارجين على القانون.

■ إذا رجعنا إلى الثورة منذ أن بدأت في ٢٥ يناير الماضي، ما تفسيرك لردود فعل الرئيس السابق حسني مبارك حتى الآن؟

كلما تعرض الإنسان لصدمة ما، مثل وفاة أو خسارة شيء غالٍ عليه أو غير ذلك، فإنه يمر بأربع مراحل: الأولى هي الإنكار، والثانية الغضب، والثالثة الاكتئاب والحسرة، والرابعة القبول. وبالنظر إلى مبارك منذ ٢٥ يناير وحتى الآن، فقد شعر في البداية بصدمة لم يكن يتوقعها، إذ جاء خطابه الأول يحتوي على إنكار واضح لما يحدث، ثم تبعه بالخطاب الثاني الذي يحتوي على غضب وإصرار، مثل قوله: «أنا هاموت على أرض مصر»، أما الخطاب الثالث فقد احتوى على ما يدل على الحسرة والأسى، مثل قوله: «سوف أترك الحكم»، كما أنه لم ينتقل إلى مرحلة القبول في هذه الفترة وأخذ يتأرجح بين الإنكار والغضب، وكان حديثه الأخير وكأنه ما زال يعيش في دور الرئيس.

■ قلت إن مبارك شعر بصدمة شديدة لم يتوقعها، كيف ترى أنه لم يتوقعها رغم تصاعد وتيرة الاحتجاجات خلال السنوات الماضية؟

لم يتوقع ما حدث، لاعتقاده بأن لديه قوة تحميه وتحمي نظامه، ولم يعرف أنها قوة سراب، بمجرد أن نفخ فيها الشباب سقطت على الفور.

■ ولماذا تأخرت الثورة إذن في ظل نظام ضعيف وشباب قادر على التغيير؟ وهل كما قال عدد من الكتاب إن المصريين أصابهم الخنوع؟

المصري بطبعه لا يرضى الخنوع ولا يستسلم للظلم والاستبداد، ويمكن تفسير ما حدث قبل الثورة بأن القهر والقمع الذي مارسه النظام البائد المستبد على مدى ثلاثين عامًا أدى إلى وجود خنوع من عدد محدود من الشعب، في مقابل صبر كبير من جانب الغالبية العظمى، وهذا الصبر أدى إلى ارتباك في صفوف النظام، الذي ظهر عليه الخوف، حيث ملأ البلاد بالمعتقلات والسجون، في الوقت الذي تصاعدت فيه وتيرة الاحتجاجات والمعارضة. وأنا لست مع من يقول إن المصري يسير بالكرباج، فهذا منطوق خاطئ وبه تشاؤم، لأن المصريين أصحاب شخصيات وطباع تغلب عليها العزة والكرامة، وإن الصبر لا يتعارض مع هذه السمات.

■ القهر والقمع والاستبداد وغيرها من ممارسات النظام السابق وحزبه الوطني، هل ستستمر آثارها السلبية فترات طويلة؟

أولاً، يجب أن نعرف أن النهب والرشوة والاستبداد والقمع تعمل على تغيير أخلاق البعض إلى الأسوأ، وهذا ما حدث لعدد محدود جداً من المصريين، حيث نرى الخنوع والنفاق والخصوع والكذب والتزلف والقهوة والوصول إلى أعلى المناصب دون كفاءة، اعتماداً على العلاقات والمحاباة، هو السائد في المجتمع قبل الثورة، نظراً لرغبة النظام في ذلك، واستخدامه أساليب مخالفة للأعراف والقوانين في العمل. ورغم أن أصحاب هذه الصفات قليلون فإنهم ظاهرون بفعل النظام الراغب في ذلك، والقضاء على كل ذلك يتوقف على الأشخاص، كل في مكانه، حيث يجب على الجميع أن يواجه تلك الصفات المذمومة بكل حزم، ويتعاون الشرفاء معاً لإنقاذ الوطن من هذه السلبات.

■ أين يقع الرئيس السابق حسني مبارك على مقياس الذكاء؟

مبارك صاحب قدرات متواضعة، وهذا واضح تماماً منذ بدايات ظهوره، فتقدمه الأكاديمي كان متواضعاً، ولم يكن متفوقاً، وعندما بدأ رئيساً للجمهورية قال إنه لا يفهم أشياء كثيرة، وطلب المعونة من أصحاب الرأي وغيرهم، وقال: «لا أفهم في كل شيء». ورغم ذلك كانت له إيجابيات في البداية، عندما ذكر عدم رغبته في الاستمرار كحاكم للبلاد، وأنه لا يحب ظهور زوجته في الإعلام. عموماً هو شخص لا يتمتع بأي ذكاء، ولم تكن لديه ملكات القيادة، فقط امتلك الانضباط بسبب حياته العسكرية.

■ ما قاله مبارك في بداية حياته لم ينفذ منه شيئاً وانقلب على كل تصريحاته، ما أسباب ذلك؟

البقاء في السلطة يؤدي إلى تغييرات في شخصية البشر، ولنا أدلة كثيرة في كل من حكموا سنوات عديدة، حيث أصبحوا أشخاصاً مستبدين ظالمين. إذن، فالسلطة المطلقة جعلته يشعر كأنه مبعوث العناية الإلهية، وأصيب بالانتفاخ الذاتي، وتجمدت أفكاره، وأصبح صيق الصدر من النقد، وبات لا يقبل معارضيه، واعتبر ذلك خيانة، ووصل إلى مرحلة الشك فيمن حوله، وبات يشعر بأنه مطلوب إزاحته أو اغتياله، لذلك أصبح ينشئ بالكرسي دون النظر إلى مصالح الشعب. وأكد أن السلطة المطلقة تجعل الإنسان مدمن سلطة، والأفيونات الربانية التي خلقها الله في المخ والقنب الرباني في الدماغ تزداد عند وجود السلطة المطلقة التي تخلص من المسائلة، وليس فيها شفافية، لدرجة أنها تصيح أقوى من إدمان الهيروين. ومدمن السلطة هنا إنسان مستبد يرغب دائماً في التحكم في كل شيء، وعندما يجبر على التنازل تكون معاناته مثل معاناة مدمن الهيروين عندما لا يجد المادة التي يستنشقه، ويدخل في آلام نفسية وجسدية واكتئاب شديد، ويصل إلى حالة نقص المناعة، ويصبح صاحبها ضعيفاً صحياً غير قادر على مقاومة أي شيء في الحياة، ومنهم من يقدم على الانتحار.

■ ما رأيك فيمن أعلنوا عن رغبتهم في الترشح للانتخابات الرئاسية؟

أنا بصراحة مستغرب من كل الذين يتحدثون عن نيتهم الترشح، يقولون كلاماً واحداً هو العدالة الاجتماعية والبطالة والرواتب، ولم يقدم أحد منهم رؤية عن كيفية تحسين التعليم، وتدريب العمال، وتحسين الصحة، أين هذه البرامج المقنعة المحددة بزمان؟ لم أر شيئاً من قبيل ذلك. ولكن نسمع كلاماً في الهواء، فأين العشوائيات؟ ومشاكل الزراعة؟ وتعمير سيناء؟ أنا شخصياً لا أرى برنامجاً مقنعاً حتى الآن.

■ من وجهة نظرك، ما الشروط الواجب توافرها في الرئيس القادم؟

أولاً، أتمنى أن يحكم مصر شباب، وإن لم يحدث ذلك فيجب ألا يزيد عمره على ستين عامًا حتى لا تكون رؤيته مخالفة للأحداث والواقع مما يؤدي إلى جمود وتقلب في الأفكار، ولنا قدوة في ثورة يوليو حيث كانوا جميعًا شبابًا وقد حكموا مصر.

■ هل تقصد أن يحكم مصر شباب يكون عمره في العشرينيات؟

لا أقصد ذلك، بل الشباب يمتد إلى خمسين عامًا. وبصراحة كلما كبر الإنسان في العمر تقل قدرته الإبداعية والتنفيذية، وتضعف ذاكرته، ومن السهولة أن يصبح تابعًا لمن هو أصغر منه.

■ وهل مطلوب أن يكون الرئيس القادم ذكيًا بقدر ما؟

ليس ضروريًا أن يكون فائق الذكاء، ومن الممكن أن يكون متوسط الذكاء، ولكن من الأفضل أن يكون لديه الذكاء العاطفي، وهو ما يطلق عليه «الكاريزما» التي تعرف بـ«الاجاذبية الجماهيرية والقدرة على التواصل مع الناس»، إضافة إلى أهمية ألا تكون له صلة بفكر النظام السابق، وأن يكون متمتعًا بالوسطية، وأن يكون ليبراليًا، وأهم شيء أن تكون لديه القدرة على إيجاد الحلول، فمن حق الشعب أن يشكو، ومن واجب الرئيس أن يجد الحلول المناسبة لإزالة آلام وشكاوى شعبه. وأذكر رئيس مصر القادم بقول مبارك غير المقبول: «ها عملكم إيه، إنتم بتخلفوا أولاد والسكان تكثر أعدادها». بالإضافة إلى ضرورة أن يصاب بالمرض مثل باقي الشعب.

■ ماذا تقصد بضرورة أن يمرض؟

مبارك كان يعتبر المرض ضعفًا، ودائمًا حاولوا إخفاء ذلك عن الشعب، وهذه سمات الحكام العرب الذين لا يمرضون أمام شعوبهم.

■ هل يمكن إيجاد كاريزما لشخص لا يتمتع بها؟

الكاريزما لا تُصنع، وهي موهبة تتمثل في التواصل العاطفي مع الناس والاجاذبية الجماهيرية، ويمكن تلميحها، وهي تسهل التعامل وتقرب بين الرئيس وأبناء شعبه حال امتلاكه صفات الإخلاص وحب الوطن ونكران الذات وعدم الرغبة في السلطة.

■ وهل ترى أن مبارك كانت لديه نسبة كاريزما؟

أبدًا، لم يمتلك أي كاريزما، بل هو شخصية انعزالية إلا مع أسرته. وهناك أسباب لذلك، حيث رأى رئيسه الراحل أنور السادات يُغتال أمامه، وهذا زاد من عزله وخوفه، الأمر الذي استغلته حاشيته وأبعدته عن الشعب، ولم يختلط مبارك بأي مواطن إلا بترتيبات أمنية مكشوفة، وأدى ذلك إلى وجود فجوة كبيرة بينه وبين شعبه.

■ إذن، بماذا تنصح الناخبين عند اختيار مرشح الرئاسة؟

أولاً، التخلي عن أي نوازع شخصية، ثم التركيز جيدًا في البرامج ودراساتها وتقييمها، إضافة إلى النظر لتاريخ وتوجهات المرشحين وتفاعلهم مع الشعب، وضرورة أن يمتلك شخصية قادرة على العمل بضمير وإخلاص. ونريد أن نؤكد أن الأمر ليس صعبًا في الاختيار، لكن المهم هو الإيجابية من جانب الناخبين. وفي النهاية، فإننا ندعو الله أن يكرمنا بحاكم صاحب ضمير يخاف على مصالح الشعب وليس لديه أي طموحات سوى نهضة وطنه.

■ كيف ترى الإعلام في مصر بعد الثورة؟

للأسف، يتجه معظمه طوال الوقت إلى نشر صفحات كثيرة عن الفساد في النظام السابق، ويتحدث عن المحاكمات، ولم نرَ مساحات تدعو للبناء. نرغب في إيجاد أفكار وآراء تقدم رؤى مستقبلية وحلولاً للمشاكل بطرق علمية، وأتمنى أن أقرأ يوميًا عن أطروحات كيف تكون النهضة، وماذا يجب أن نفعل، فالمستقبل له الأهمية الكبرى، وعلينا جميعًا أن نتحد ونعمل ونقدم كل ما نستطيع لنهضة مصر.

■ ما رأيك في عمل الإخوان والجماعات الإسلامية والجهاد والسلفيين بعد الثورة؟

أرى أن أغلب الجماعات والأحزاب التي تمارس العمل السياسي تنظر إلى نفسها أكثر من نظرتها إلى مصر، وتظهر رغبتها في تحقيق المكاسب الخاصة بعيدًا عن حب الوطن. أيضًا يوجد متطرفون في هذه التيارات يجب التعامل معهم بحزم، سواء من داخل جماعاتهم أو من خارجها، بالقانون حتى لا تتحول إلى ساحة للصراعات الأيديولوجية ومحاولة فرض الرأي.

■ من تقصد بالتطرف؟

لا أحب أن أذكر أسماء بعينها، ولكنها موجودة في معظم التيارات.

■ كيف يمكن أن تعود أخلاق المصريين الجميلة المتمثلة في الود والتسامح؟

العدل هو العامل المهم، الذي سيبرز الأخلاق الأصيلة للمصريين. ونحن أمة لها سمات وصفات لا توجد في العالم، لأن البيئة لها دور رئيسي في ذلك، ومصر محاطة ببحر أبيض متوسطي وأفريقي وآسيوي وحامي وسامي، إضافة إلى تعرضها للحضارات الفرعونية والإغريقية والرومانية وغيرها، مما ساهم في إيجاد ثوابت لدى المصريين وهي تظهر دائمًا في الشدائد وأثناء إحساس المصري بذاته. ونحن نؤكد أن الأسرة لها عامل أساسي في دعم القيم الجميلة لدى أبنائها حتى نكون في النهاية أمام مجتمع سوي قادر على النهضة، وهي سمات أجدادنا الفراعنة وليست أشياء جديدة علينا، ولكن فقط نحتاج إلى أن نبحث عنها داخلنا ونبرزها، والدليل نظرة العالم للمصريين بعد الثورة بسبب تصرفات الشعب وكيفية أدائه في الثورة من حيث رُقي التصرفات والكرم والأخلاق والشجاعة والإيثار وإنكار الذات وحب الناس.

سأنتخب الرئيس صاحب الرؤية المستقبلية

أجرت هذا الحوار: سهير حلمي، ونُشر في جريدة «الأهرام»، يناير ٢٠١٢

■ قيل قديمًا: «لكي يستطيع الإنسان تحليل شخصية يجب أن يعرف الكثير من سمات شخصيته»، فلتكشف لنا النقاب عن طفولتك وكيف امتلأ كيانك بهذا العلم؟

والدي محمود باشا عكاشه كان مديرًا عامًا لسلاح الحدود وحاكمًا للصحراء الغربية والشرقية، وتولى منصب مدير سلاح الحدود قبل اللواء محمد نجيب. تعلمت منه تقسيم الوقت والتدريب على إدارة حياتي بصورة ممثلة بلا لهات، والتركيز فيما أفعله وإتقانه. أما والدتي سنية طلعت فكانت سيدة مستنيرة تجادل السياسيين وتقارعهم بالحجة، فعلي وأحمد ماهر ابنا خالتها، وكنت أشاهدهما كثيرًا في منزلنا خاصة علي ماهر الذي تولى ترتيب إجراءات تولي فاروق العرش وسلطاته الدستورية. وكان منزلنا ملتقى الكتاب والساسة والأدباء، وكان شقيقي الأكبر ثروت عكاشه يستقبل رجال ثورة يوليو - وهو من فرسانها - في منزلنا، فنشاهدت جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر وحسين الشافعي وكمال الدين حسين وصلاح سالم. كانت حواراتهم ثرية تتطرق للسياسة والفن التشكيلي والأدب والموسيقى والتاريخ والفن. تعلمت من ثروت التذوق والإحساس بالجمال في سن مبكرة جدًا، إضافة إلى أن شقيقتي الكبرى كانت تصحبني معها في حفلات الأوبرا وعروض الباليه والمسرح والسينما، حيث كان زوجها الصحفي الكبير أحمد أبو الفتح صاحب جريدة «المصري» يعود في أوقات متأخرة لأن الطباعة كانت بدائية بمقاييس هذا الزمان. وقد ساهم أحمد أبو الفتح في إثراء وجداني في فترة الطفولة، وطلعت معه معظم دول أوروبا، فهو معلمي ورائدي مثل شقيقي ثروت، تعلمت منه معنى الحرية، وأن الكرامة لا تشتري بالمال، ولم يصادفني في حياتي إنسان له مثل مصداقيته، وكان موقفه من عبد الناصر شائكًا، وحدث اختلاف في وجهات النظر. ومن المواقف التاريخية التي لا أنساها لوالدتي أنها لم تعتب على عبد الناصر يومًا وقد حُرمت بسبب هذا الخلاف من رؤية ابنتها الحبيبة. وأثناء أزمة مارس عام ١٩٥٤ بين عبد الناصر ومحمد نجيب ذهبت لنجيب وحذرته من عبد الناصر وقالت له بوضوح: «احترس، عبد الناصر يخطط لاستبعادك»، وبكل طيبة وسذاجة أفصح محمد نجيب عن هذا أمام عبد الناصر في اجتماع مجلس قيادة الثورة، وفيما بعد كتب نجيب في مذكراته بصيغة عتاب الذات أن والدة ثروت عكاشه كانت على صواب. لكن لك أن تتخيلي مدى الإحراج الذي سببته هذه الواقعة لثروت حين أبدى له عبد الناصر الملام قائلا: «لا يوجد داعي لتدخل طنط في السياسة»، وحين عاد ولام والدتي وعاتبها عتاب الابن قالت له: «إنت حتعمل عليّ وزير! أنا فعلت الصواب، ثم إنني أعمل بالسياسة قبل مولدك»، فابتسم ثروت وانتهى الأمر. وحين سافرت إلى إنجلترا لاستكمال دراستي حرصت على إعطائي بلوفر صنعته بيديها.

■ لكن، ما الذي فتح أفق الموهبة والإبداع في مجال الأمراض النفسية وكانت لا تزال علمًا مستحدثة نسبيًا؟

كانت طبيعتي تميل للتأمل في أحوال البشر، وازداد الأفق اتساعًا بالقراءات المتنوعة، وكنت أتوق بعد دراستي للطب بكل تخصصاته العامة التي تعالج الآلام والآهات إلى دراسة آلام النفس بصورة شاملة متكاملة، مثل الأوركسترا السيمفوني، وكان الطب النفسي هو التخصص الذي يتواكب مع ميولي واهتماماتي، فالتحليل النفسي رياضة عقلية عميقة، ولكن لم تتقبل الأسرة هذا التخصص بصدر رحب. كنا في الخمسينيات، وكان الأمر مرتبطًا في الأذهان بالأمراض العقلية والسرايا الصفراء، لكن أمام إصراري وحماسي الأكاديمي سافرت عام ١٩٥٩ إلى إنجلترا في بعثة دراسية، وكنت أول من أدخل قسم الأمراض النفسية في كليات الطب في مصر عام ١٩٦٤.

■ ما سر الارتباط بين المرض النفسي والإبداع؟ وهل توجد متلازمة علمية تتسق مع المقولة الشائعة «الفنون جنون»؟

كل الأمراض النفسية ما هي إلا تغيرات كيميائية وفسولوجية في المخ يقوم الطبيب بعلاجها وإعادة التوازن لهذه الكيمياء. فالمرض النفسي يمثل اضطراباً في بعض الأعراض، مثل القلق والوسواس والهستيريا، وهي أعراض موجودة عند كل الناس بنسب متفاوتة، ولكن إذا زادت عن الحد الأقصى يصبح الإنسان مريضاً نفسياً. أما المرض العقلي فهو أشد الأنواع وأقساها، والتلازم بين المرض النفسي والموهبة ليس شرطاً، ولكن في بعض الأحيان تفرض الموهبة تكويناً نفسياً خاصاً، لأن الموهبة بحد ذاتها شيء شاذ لا يوجد لدى كل البشر، والفنان إنسان غير عادي تتطلب عملية إبداعه حالة انفعالية خاصة، يصبح فيها الذهن والوجدان مشحوناً بأقصى الطاقات التي يتوهج خلالها الفنان ويبدع ثم يكتب وقد يضطرب نفسياً، ومعظم عباقرة الموسيقى في العالم كانت لديهم اضطرابات نفسية، مثل ماندل بيتهوفن وشوبرت وشومان، ومعظم هؤلاء الفنانين والموهوبين ينتجون أثناء معاناتهم النفسية.

■ الحديث عن الأدب سيأخذنا إلى مجال «البصيرة» التي تستنبط من الواقع رؤى المستقبل، كما استنبطت أن الشباب هم من سيفجرون ثورة مصر القادمة، فكيف يمكننا تحليل الواقع لاستخلاص تلك التوقعات الصائبة؟

كلمة «بصيرة» كلمة طبية، نستعملها في المرض النفسي أو العقلي، إذا اقترف المريض جريمة ما نقول عنه إنه «عديم البصيرة»، وتصبح محاكمته غير جائزة، ويستلزم الأمر العلاج أولاً. لكنني أفضل تعبير «رؤية مستقبلية»، ولا أؤمن بكلمة «الفراسة»، لأن الرؤية المستقبلية تعتمد على أساس ثقافي علمي، وهنا قد تصح التوقعات والآراء في أشياء عديدة، وكل الإحصاءات وأحوال مصر قبل ثورة يناير كانت تنبئ بوجود نار تحت الرماد، فنسبة الأمية ٤٠٪، ونسبة الفقر مشابهة لها، والبطالة بلغت أقصى معدلاتها، والشباب يمثل ٥٠٪ من مجموع السكان ومنفتح على العالم بوسائله التكنولوجية، وأصحاب السلطة يكبرونه بثلاثة أجيال على الأقل، فالشعب المصري ليس خانعاً، كما كان يقول جمال حمدان، ولكنه ينفرد بتنوع جيني فريد لا يعرفه غيره، وأعني به الموروثات الموجودة في خلايانا من البيئات السالفة والتي تتغير عبر السنين وتصبح وراثية. هنا سيتجلى بوضوح أن المصري مر بحضارة فرعونية ورومانية وإغريقية وقبطية وإسلامية وتركية وفرنسية وإنجليزية وشرق أوسطية وحضارة بحر متوسط وحضارة أفريقية، تنوع ستة آلاف عام، مصر هي التي فجرت الضمير الإنساني، قبل الأديان كان الإنسان يتزوج والدته أو أخته، ولكن «هذا الجين الوراثي المتميز» يختفي عقوداً أو قروناً مثل الأنهار التي تختفي تحت الصخور، لكنه إذا ظهر تتجلى هذه الحضارة التي ظهرت في عدم وجود شرطة لمدة تسعة أشهر، ووجود لجان شعبية من جميع أطراف الشعب انصهرت في بوتقة وطنية ذابت فيها الفوارق، فما حدث من تجاوزات السلب والنهب في أمريكا واليابان حين تعرضنا لظروف طارئة يفوق ما حدث في مصر من حوادث بأضعاف مضاعفة.

■ استناداً لتلك الرؤية المستقبلية، فمن هو الرئيس الذي سيختاره الدكتور عكاشه؟

كل دول العالم التي نهضت من حولنا امتازت بقادتها الذين يملكون رؤية مستقبلية، في كوريا الجنوبية وسنغافورة وماليزيا وتركيا، سانتخب من له رؤية مستقبلية، لا صاحب شعارات الديمقراطية والحرية والعدالة الاجتماعية، ولكن من يمتلك مفاتيح تطبيق هذه الأهداف. وأنا لأفضل أصحاب الرؤى الكلاسيكية أو المحافظين الذين يرصدون كل الأمور بالورقة والقلم، فأنا لا أريد رئيس جمهورية عاقلاً! سانتخب من يقوم بعمل أشياء غير مألوفة، مبتكر، مبدع، فأثناء المحن والثورات لا تصلح القيادة التقليدية، فلا بد أن نفتح على الماضي والحاضر والمستقبل بطريقة علمية.

■ لكن، اختيار هذا الرئيس يتطلب شيوع ثقافة علمية وموضوعية نفتقدها في مناخ الإضرابات والاعتصامات التي تعصف بكل أرجاء مصر!

أتمنى من الله أن تنتهي هذه الفوضى لأن الاعتصامات لا تبني بلدًا، وأعتقد أن ما حدث في الآونة الأخيرة من قمع وقتل لن يتكرر، ولديّ تفاؤل شديد بهذا الشعب. وأشرف بأنني عضو مجلس الأمناء في مدينة زويل للعلوم والتكنولوجيا والتي تسعى لجعل العلم نبراسًا والثقافة العلمية أسلوب حياة يهيئ للمصري النجاح والإبداع اللذين يحققهما في الخارج، والحمد لله ثقة الناس في المشروع أسهمت في جمع اثنين وعشرين مليونًا من الجنيهاً خلال شهر واحد، والمدينة جمعت أكثر من مليار جنيه من التبرعات. وشيوع الثقافة العلمية يعني المصداقية وتحمل المسؤولية والانضباط والإتقان والتعاون، فلا يمكن أن تكون هناك نهضة علمية أو ثقافية أو سياسية دون تعاون. ومن يحصلون على نوبل يحرضون في كلمتهم على توجيه كلمة لكل معاونيهم وشركائهم. وأهم شيء في الثقافة العلمية هو تجاوز الذات، فالمرض النفسي في تعريفي هو «التمركز حول الذات»، والصحة النفسية مفتاحها «التمركز حول الآخر». لا بد أن نتجاوز قضية الفلول أو الإسلاميين وإلا تحولت الدولة للطائفية. وغالبًا ما يسبق التغيير الاجتماعي التغيير الأخلاقي، فظهرت أخلاق الميدان خلال الأيام الثمانية عشر ثم ظهرت جماعات تفكر في حساباتها الخاصة، والثوار نشرذموا لكل منهم أجندته، ولم يتجاوز الجمع ذاته، وظهرت المشاكل وتفاقمت واستعصت، ولكن إذا وضعنا مصر في المقدمة فلن نعاني، وسنصل لدرجة من الثقافة العلمية.

■ كطبيب نفسي، كيف ترى العلاقة بين الشخصية العسكرية والمدنية؟ وهل تلتمس العذر للمجلس العسكري؟

المجلس العسكري أخذ بزمام الأمور بوطنية معهودة، ولم يتردد لحظة واحدة في أخذ هذا الموقف الوطني. وللإنصاف يكفي الرجوع للحالتين الليبية والسورية حين انحاز الجيش للحاكم وتدفقت الدماء، فمن الظلم البين أن يتهمه البعض بأنه لم يقف مع الثورة. فيما يتعلق بالشخصية العسكرية فهي تختلف عن الشخصية المدنية من حيث الإتقان والانضباط والمسؤولية والطاعة العمياء لمن هو أقدم رتبة ومكانة، وحتى الرئيس المخلوع كان يتمتع بهذه الصفات، وحتى أوائل عهده قبل أن يجرفه مشروع التوريث بعيدًا عن ضفاف شعبه. فالجيش ليس لديه خبرة في التعامل مع المدنيين، فحدث الاحتكاك وتعرض للإهانة، بالرغم من أن الشخصية العسكرية كرامتها واحترامها مكفولان في كل بلاد العالم، وتعرضهم لهذه الإهانات من أناس قدموا لهم يد المساعدة شيء يحزن النفس، فهم لا يقصدون إلا خيرًا بالبلاد والعباد.

■ يقال: «ليس بعد النضج التام إلا العفونة»، ومعظم القيادات في مصر اتخذت من بقاء مبارك لمدة ثلاثين عامًا أسلوبًا ونهجًا للبقاء في المنصب حتى ينفذ أمر الله، وأصبح الأمر بمثابة مشكلة نفسية تواجه أي مسؤول يتعد عن منصبه، فما هو تحليلك النفسي؟

السلطة شاخت في مصر، وزاد الطين بلة، واتسعت الفجوة بين الرئيس المخلوع والشعب بسبب «بطانته» التي زينت له مشروع التوريث لابنه حتى تظل لها الخطوة، فشعر الشعب بالاستهانة بكرامته كما لو كانت مصر «عزبة» تورث وكلنا رعايا من العبيد، فجميع المراجع والكتب والمصادر التاريخية تؤكد أن القيادة تتمثل في حسن اختيار المساعدين، ولنا في رسول الله أسوة حسنة حين اصطفى من الصحابة ما يميز كلا منهم ويحقق التكامل لخدمة العقيدة والإسلام، فعمر بن الخطاب وأد ابنته في الجاهلية لكنه أعز الإسلام بقوته، وخالد بن الوليد بسيفه المسلول. المأساة الكبرى في معظم الشخصيات القيادية في مصر تأتي عادة من المحيطين والمقربين، لأننا لا نجد فن القيادة، ومعظم قياداتنا تأتي بالمصادفة. وإجابة عن سؤالك وسبب انهيار من يترك مكانه يعود إلى هذه المعادلة النفسية، فلكل منا ثلاث صور: صورة ذاتية لا يطلع عليها أحد، ولا حتى الزوج أو الزوجة أو الأبناء، ولا يعرفها إلا

الطبيب النفسي والغالبية لا تتعرض له، لذلك تظل هذه الصورة مكبوتة. والصورة الاجتماعية التي تظهر بها أمام الناس، وبها قدر من التمثيل واللياقة الاجتماعية. ثم الصورة الثالثة التي يتوق إليها الفرد. والتناغم بين الصور الثلاث من شأنه أن يحقق الصحة النفسية، ولكن بعض الوزراء المسؤولين يعيش الدور ويصدق نفسه حين تصنعه الصحافة والإعلام فينهار حين يُقال لأنه فارغ من الداخل، والأمر كذلك بالنسبة لبعض الفنانين الذين يصنعهم أيضًا الإعلام والجمال والرشاوى من خلال عمل أو اثنين، وحين يُترك هذا الفنان لموهبته الحقيقية ومقدار إبداعها تظهر قدراته الحقيقية، ويفقد توازنه. وعمومًا، حاجز الخوف انتهى، فالمواطن المصري أصبح لا يخشى حاكمه أو قيادته، والمسؤول الآن هو الذي يخاف، وتلك هي عبقرية ثورة يناير، فالمسؤول أصبح في موضع المساءلة. إنها إيجابية الوعي الإنساني الذي يدفع مواطنين من بعض القرى لقطع الطريق للمطالبة بإنشاء محطة في بلدتهم. بالرغم من كل السلبات وفوضوية الأسلوب، إلا أنه بداية لإيجابية شعر معها المواطن بكرامته ومن ثم المطالبة بحقوقه التي تغافل عنها ياسًا!

■ في عام ١٩٩٩ سألتك الكاتبة المرموقة مها عبد الفتاح عن رأي الطب النفسي في السلفيين، وأجبتها بأن السلفية ضد اتجاه حركة الكون، لأن السير في درب الأسلاف ضد ديناميكية الحياة وسماحة الأديان التي أدت إلى تكيفها مع التطور والتقدم العلمي، فهل تغير هذا الرأي؟

التيار الإسلامي عمومًا نجح في الوصول لعامة الشعب، فالنخبة انشغلت بالشعارات والتنظير في الفضائيات ووسائل الإعلام، لم تستوعب الصورة كاملة، وإن كانت بعض الأفلام القليلة قد فطنت لها، فالتيار الإسلامي وصل للقرى، وقام ببناء المدارس والمستوصفات، وساهم في زواج الشباب بعد أن أغلقت الجامعات أبواب العمل السياسي في وجوههم، فكل الكوادر السياسية التي تكونت اقترنت بالتيار الإسلامي. والعبارة التي ذكرتها ومعظم الآراء التي يخشاها الناس لأنها تمس الحرية الشخصية ستكون هي المحك الرئيسي لإعادة انتخابهم، ففي الإسلام لا إكراه في الدين، وهي عبارة فاصلة تنفي أي فوضى للرأي أو السلوك. وعمومًا، من يكون خارج إطار المسؤولية أو الحكم يتحدث مثلما نفعل أنا وأنت الآن، لكنني إذا أصبحت في موقع السلطة، على سبيل المجاز، سيصبح أمامي أفق مختلف تمامًا، وربما غيرت الكثير من هذه الآراء. ودائمًا أقول الإنسان الذكي هو الذي يغير رأيه، فالمرونة ذكاء والجمود غباء.

■ في بداية الثورة نادى شبابها بحكومة تكنوقراط رأسها عصام شرف، ولم تنجح هذه الحكومة في تلبية مطالبهم، لماذا فشل التكنوقراط؟

لا توجد حكومات تكنوقراطية الآن إلا في الدول الدكتاتورية التي جاءت بانقلابات عسكرية، فالطلاب يعملون في السياسة، ولكن في مصر كل عمداء الكليات ورؤساء الجامعات والنقابات الذين تم انتخابهم كانوا من جماعة الإخوان لأنهم الوحيدون الذين يمارسون العمل السياسي، وعمومًا أسوأ برلمان هو الذي يُنتخب بعد الثورات لأنه يكون بمثابة بروفة «جنرال». أتذكر مقولة جوبلز وزير دعاية هتلر حين قال: «أعطني إعلامًا بلا ضمير أعطك شعبًا بلا وعي». فمعظم وسائل الإعلام تتخذ من النفاق أسلوبًا ومنهجًا. في البداية تم نفاق ثورة يوليو ١٩٥٢، ثم ناصر، ثم السادات، ثم مبارك، ثم شباب الثورة، ثم المجلس العسكري، والآن الأغلبية تفاق الإخوان المسلمين بعد نتيجة الانتخابات، فالإعلام المقروء والمرئي يعاني من ضمور وتواضع في ضميره المهني، وهو يساهم بذلك في إزالة الوعي اللازم للبناء، ومعظم البرامج الحوارية متشابهة باستثناء بعض الإعلاميين الملتزمين بالمصداقية.

■ ما الروشتة التي يصفها الدكتور عكاشه للفلول من أعضاء لجنة السياسات الذين يحتاجون لإعادة تأهيل لاستيعابهم اجتماعيًا ودمجهم في الحياة العامة، بصفتك عاصرت تجربة مشابهة في ثورة يوليو ١٩٥٢؟

هذا النظام أفسد أخلاق المصري، وهذه إدانة كافية جدًا للحكم عليه، لكن ثورة يوليو جاءت بمحاكمات الثورة، وهي الأفضل من وجهة نظري، بصرف النظر عن صحة الأحكام أو خطئها، لكن شباب الثورة فرحوا في البداية بالمحاكمة المدنية، وهي شيء حضاري بالطبع. فيما يتعلق بلجنة السياسات، فالكثيرون من أصدقائي كانوا من أعضائها الذين لم يرضوا بالنصح والإعراب عن آرائهم وانتقاد السليبيات، لكن لا حياة لمن تنادي. ولكن في كل الثورات تسود ثقافة الجماعة أكثر من ثقافة النخبة، وأعتقد أنه بعد أن تخمد حمم البركان الثوري ويهدأ البخار سنلتفت لكل هؤلاء «الأفاضل» لنستعين بخبراتهم بصورة حضارية، مثلما أبقى أوباما على وزير الدفاع الجمهوري روبرت جيتس لأن مصلحة البلاد العليا تقتضي ذلك، بشرط محاسبة الفاسدين على فسادهم في محاكم مدنية، لأن أهم شيء نفتقده في هذه المرحلة هو الشفافية، فهي مهمة وغائمة بالنسبة لكل الأطراف.

■ قال تشرشل: «إن الديمقراطية أسوأ الشرور»، لكننا لا نعلم ما هو أفضل منها، فالانتخابات لا تأتي دائمًا بالأكفأ، هل هذا قدرنا في النهاية؟

إن ٨٠٪ من الذين يقترعون في الانتخابات من متوسطي الذكاء. وأذكر أنني استفسرت من العالم الأمريكي كانجلر الفائز بجائزة نوبل عن الكيفية التي فاز بها رجلان متوسطا الذكاء مثل ريجان وبوش الابن في الانتخابات، فضحك قائلاً: «إنك جاوبت على التساؤل، هل معقول أن يرشح إنسان ذكي نفسه ليصبح رئيسًا للجمهورية؟!». ومن العجيب أن المجتمع الأمريكي انتخب الرئيس كارتر الذي كان يبلغ معدل ذكائه فوق ١٤٠ درجة مرة واحدة، وانتخب كلينتون مرتين بالرغم من قصته السخيفة مع مونيكا، لأن الإنسان لا ينجح في الحياة بالذكاء الأكاديمي فقط، فهو يوصله لموقعه فقط، أما الاحتفاظ بالموقع والمكانة والصدارة فيتوقف على مدى الذكاء العاطفي الذي كان يتمتع به هذا الرئيس، ويتمتع به الدكتور زويل في مصر، وحين فطنت السلطة لذلك عطلت مشروع جامعته التكنولوجية، وقد نصحته بالانصراف عن عالم السياسة لأن السياسة تواكبها المراوغة، وهي فن الممكن، بينما العلم تواكبه الفضيلة، وهو يصبو دائمًا للحقيقة.

■ اشتركت مع صلاح نصر في كتابه «الحرب النفسية»، فكيف ترى شخصية صلاح نصر بكل ما أثارته، وما زالت، من جدل واستنكار والقليل جدًا من الموضوعية؟

علاقتي بصلاح نصر بدأت من خلال الضباط الأحرار، حيث كان يزعم إنشاء جهاز المخابرات، فطلب مني اختبارات نفسية لضباط المخابرات الذين يتم ترشيحهم للعمل لكي تتأكد من ثباتهم العاطفي واتزانهم النفسي وعدم تذبذبهم عند تعرضهم للقبض عليهم أو الاعتقال أو التعذيب، فقلت له: «لا توجد اختبارات تعطي نتائج مائة في المائة، ولكن من الممكن الاستعانة باختبارات تعطي مصداقية يُعتد بها وشيئًا له قيمة إحصائية». واستمر التعاون لمدة أربع سنوات، كنت أقوم بهذه الاختبارات في عيادتي، ثم طلب مني المساهمة في إعداد كتاب كبير عن الحرب النفسية لأنه كان معجبًا بجوبلز ولديه اقتناع بأن الحرب النفسية أقوى من الحرب القتالية. وبالمناسبة، ما يحدث في مصر الآن هو حرب نفسية من كل الجهات، تستخدم فيها المعلومة للتأثير على نفسية الناس. وأعود لصلاح نصر، فقد تعاونت معه أنا وغيري، وقرأت كل المراجع التي وفرتها المخابرات. وأثناء التحقيق معه تم سؤالني عن علاقتي به وعن علاقاته النسائية، فأجبت بأنني لا أعلم عنها شيئًا، وإن وجدت فإنه لم يأخذني معه. وسُئلت عن واقعة السيدة التي ألقيت بحذائها على سيارة عبد الناصر المكشوفة، وكان بصحبته هواري بومدين، فتم إلقاء القبض عليها وأودعت في المخابرات، وطلبوا مني الكشف على قواها العقلية، فوجدت أن لديها فصامًا، وعولجت في مستشفى خاص على حساب المخابرات لأنها فقيرة وزوجها كان معتقلًا، وفي النهاية قال لي حسين الشافعي، وكان مسؤولًا عن المحاكمة: «أنت هكذا يا أحمد، لا نستطيع دائمًا أن نأخذ منك معلومة»، قلت له: «لن أدعي على صلاح نصر بأي شيء لأنه في موقف ضعف»، فضحك وقال: «إنك رجل»، ولم يأخذ بشهادتي. وعمومًا أنا لا أحتفظ بأي ملفات أو أدوات لمرضاة من المشاهير والكتّاب والفنانين،

وأسرارهم ستموت معي، ويكفيني شرقاً أنني أخرجتهم من حالات الاكتئاب ليواصلوا حياتهم بعمق
وحب.

مجتمعنا أكثر اهتمامًا بارتضاء نصفه الأسفل دون الأعلى

أجرى هذا الحوار: محمد عبد الحافظ، ونُشر في مجلة «طبيبك الخاص»، العدد 533، مايو 2013

في الصحافة قاعدة معروفة وقديمة: حين تذهب إلى المصدر لتحاوَره (أي الضيف) يُستحسن ألا تكون من المغرمين به، أو على الأقل قادرًا على منع انحيازك الشخصي له، لأنك قبل كل شيء «محامي القارئ»، وتعمل لمصلحته فقط! لكن ثمة مصادر قليلة للغاية تحرق هذه القاعدة، شخصيات لا يمكنك إلا أن تعجب بها، أو تلغي انحيازك لها. مثلًا، إذا كنت أمام عالم جليل، وقامة طيبة كبيرة ودولية، ورمز في مجاله، ومؤسس لفرع كامل في الطب، يحظى بثقة مرضاه الفقراء والأغنياء، والمغمورين والمشاهير، والمثقفين والأميين، والمصريين والعرب، عالم وطبيب تعجز عن حصر عدد الجوائز والتكريمات التي حصدها في حياته لكثرتها، وآخرها وسام الجمهورية من الطبقة الأولى في العلوم يوم عيد العلم الأخير... هل يمكنك إلا أن تكون من المغرمين به في هذه الحالة؟! الدكتور أحمد عكاشه، الأب الروحي للطب النفسي في مصر، الذي نحت مصطلح «الطب النفسي» في مصر، وأسس أول قسم متخصص له في الجامعات المصرية، عكاشه العالم والطبيب والمثقف وصاحب النظرة الاجتماعية الشاملة، رئيس أطباء النفس في العالم كله، هذا هو المصدر الذي ذهبنا إليه لتحاوَره، فإذا بنا نتعلم منه، ونبارك له على وسام عيد العلم الأخير، فتهنا وسط ما حصل عليه من تكريمات، ذهبنا إليه محبين، وخرجنا من عنده وقد ازددنا حبًا له، شخصًا وعلماً وقيمة. الدكتور أحمد عكاشه، كان من كُتَّاب «طبيبك الخاص» في بداياتها، ثم انشغل تمامًا بأولويات كثيرة، فغاب عن صفحاتها سبعة وثلاثين عامًا، لكن القراء طالبونا باستكتابته أو بمحاوَرته، وفتح لنا الدكتور عكاشه قلبه وعقله في هذا الحوار، مؤكدًا للأطباء الشباب أن النجاح لا يتحقق إلا بالصبر والإصرار والمثابرة، الحوار المفتوح عن مصر والمصريين والتغيرات النفسية التي نعيشها وإتقان العمل.

■ سبق تكريمك داخل مصر وخارجها كثيرًا، ومؤخرًا تم تكريمك في عيد العلم، ماذا يمثل لك هذا التكريم؟

يؤسفني أن الخارج كرمني قبل وطني، فقد تم انتخابي رئيسًا للأطباء النفسيين في العالم - رئيسًا للجمعية العالمية للطب النفسي - بواسطة علماء أجلاء من مائة وست وثلاثين دولة، هنا الانتخاب من العلماء وهذه قيمة مضاعفة لهذا المنصب علميًا ومعنويًا، وكنت أول من يصل إلى هذا المنصب من أهل البلدان الصاعدة إن جاز التعبير، أغلبهم كانوا قبلي أوروبيين وأمريكيين، وكان المرشحون أمامي علماء كبارًا، من ألمانيا والسويد وأمريكا، وعندما علموا بترشيحي انسحبوا جميعًا تقديرًا لي، وأنا بذلك أول من انتخب منفردًا لهذا المنصب، معنى هذا أنهم رفعوا قبعتهم احترامًا للعلم المجرد بصرف النظر عن الهوية أو العرق أو الدين. قبل ذلك حصلت سنة 2000 على جائزة الدولة عن الإبداع الطبي، وفي 2007 على جائزة الدولة التقديرية في الطب، وفي 2010 حصلت على جائزة مبارك التي تُسمى اليوم «النيل»، وهي جميعًا أكبر جوائز في مصر، وكذلك وسام الجمهورية للعلوم والفنون من الطبقة الأولى. بالطبع، التكريم من الوطن أكثر تأثيرًا بالإيجاب من التكريم من الخارج، إحساس الإنسان هنا أنه حقق ذاته وسط أهل وطنه، وإحساس وطني بأن هذا الشخص نجح.

■ ما أبرز المحطات التي مررت بها حتى صرت العالم الدكتور أحمد عكاشه؟

المرحلة الأولى في الدراسة بكلية الطب كان أصدقائي يلجأون إليّ في معاناتهم النفسية، وكصديق كانوا يستشيرونني برغم صغر سني، فلما وصلت إلى مرحلة الامتياز عملت وتدرت مع أساتذة كثيرين، كان هذا قبل خمسين عامًا، لكنني توجهت بكل وعيي لفكرة الطب النفسي، وعلاج الإنسان، ف«الطب النفسي» وأنا أول من أطلق هذا المصطلح عام 1960، وقبلي كان يُسمى «الأمراض العقلية والعصبية»، في نظري هو خلاصة علاج الجسد والروح والعقل والنفس، وكان هذا القسم غير موجود بالأساس في

الكلية، كان فيها فقط قسم أمراض عصبية. العميد، وهو قريب لوالدتي، واسمه الدكتور يحيى شريف، أبلغ أسرتي عن اتجاهي الذي كان غريبًا جدًا في هذا التوقيت، لا سيما أنني كنت من الخمسة الأوائل، وقال لهم إن الأوائل عادة لا يتجهون لهذه الدراسة، إنما الأواخر هم من يفعلون ذلك. ولم تكن هناك «نيابة» فتطوع الدكتور منير المهدي بنبابة الأمراض العصبية، إذ لم يكن هناك تخصص «نفسية»، وأنا سبق لي أن عملت معه في عيادته في تخصص علاج الحساسية، وكان رئيسًا لقسم «باطنة»، وبعد ثمانية أشهر، لم أجد من يدرس لي، حتى سافرت إلى بعثة عام ١٩٦٠ في بريطانيا، حتى حصلت على الدكتوراه من معهد الطب النفسي في لندن، وقالوا لي: «لكي تعمل بالطب النفسي يتعين عليك الحصول على دكتوراه في الأمراض الباطنة أولاً». في هذا الوقت كانوا يعطون المبتعث ثمانية وأربعين جنيهًا إسترلينيًا لكل نواحي المعيشة. عميد المعهد كان سعيدًا بي للغاية. قيل لنا في البعثة إن أرخص مكان هو بيت المسنين المجاور للمعهد، وكانوا يأخذون مني شهرتًا عشرين جنيهًا إسترلينيًا ويتبقى لي ثمانية وعشرون جنيهًا إسترلينيًا لكل نواحي المعيشة. وعيني العميد معه في العمل قبيل حصولي على الماجستير. كان الرجل مؤتمًا بي جدًا، قلت له: «أنا في بعثة، فكيف أتقاضى منكم راتبًا؟». قال لي العميد: «مليش دعوة بالبعثة، سيكون لك راتب». بعدها أصبحت الحياة ميسورة. في تلك الأيام جاء إلى لندن الملحق الثقافي، وأرسل للدكاترة قائلاً: «من يعمل منكم؟». كلهم أنكروا وقالوا: «لا نعمل». أنا فقط أرسلت له أقول: «أنا يا اشتغل!». فأرسل لي وسألني: «لماذا أنت وحدك اعترفت بالعمل؟». قلت له: «لا أستطيع ولا أحب أن أكذب». قال لي: «دي كدبة بيضا». قلت له: «لا». قال: «لما ترجع حيخضمو منك الفرق بين الثمانية والأربعين إسترليني وبين ما تتقاضاه من العمل». وعندما عدت ظلوا يخضمون مني مدة خمس سنوات وتحملت قراري.

■ بعد أن عدت، ما المحطات التالية؟

حصلت على الدكتوراه من إدنبرة في الأمراض الباطنة والنفسية، وعدت إلى مصر، ولم يكن هناك قسم نفسي بعد، ذهبت لرئيس الجامعة لنؤسس قسمًا قال لي: «معندناش فلوس». كانت قصة كبيرة جدًا، الدكتور عباس حلمي حسن تبرع للقسم بخمسة أسرتة، وبعد سنتين صاروا عشرة أسرتة ثم عشرين سريرًا، فبنيت «مركز الطب النفسي» الذي يعتبر الوحيد في الشرق الأوسط المتعاون مع منظمة الصحة العالمية. أذكر في البداية أنني حين ذهبت لرئيس الجامعة قال لي: «معندناش فلوس!» وتطول القصة للغاية حتى تم البناء، ذهبت بعد ذلك في الثمانينات إلى الراحل مصطفى أمين، كتبت أول شيك وقلت له: «هذا من عندي كنواة لمركز يعالج المرض النفسي والإدمان مع تفشيها في مصر، وأريد أن تتبنى «ليلة القدر» المشروع». الحق في خلال أسبوع كان مصطفى أمين قد تحصل لنا على مبلغ مش بطال أبدًا، ثم جئنا للأرض والحصول عليها. في ذلك الوقت كان وزير التعليم الدكتور فتحي سرور، ووزير التخطيط كان الدكتور الجنزوري، كانت هناك أرض تابعة للأوقاف، ووزير الأوقاف أعطاني الأرض، ولم تكن هناك رخصة لأن الأرض ليست ملكنا، وكان الفريق يوسف أبو طالب محافظًا للقاهرة وقتها، وحكيت له، قال لي: «ابن من غير رخصة». فعلتها، لكن الأموال نفدت، بينما المقاولون يطالبون ببقية مستحقاتهم. ذهبت للدكتور الجنزوري، سألتني: «أليس لديك مستشفى خاص؟». قلت: «نعم». فقال: «ولماذا تريد بناء هذا المستشفى العام؟». قلت: «لأن الشرفاء ومنهم حضرتك لن يستطيعوا أن يتعالجوا في مستشفى خاص». قال لي: «عاوز كام؟». حددت الرقم، واكتشفت أن الأرض وحدها بستة ملايين جنيه، ولم أكن أعلم. ولولا وقوف الدكتور فتحي سرور ومن خلال علاقاتي الشخصية لما تم بناء هذا الصرح. هذا المكان فيه اليوم ثلاثة وثمانون عضو هيئة تدريس، منهم عشرون إلى خمسة وعشرين أستاذًا. وكان بداية أن كل مكان جامعي في مصر أسس مركزًا للطب النفسي. لو سألتني ما سبب نجاحي، لقلت لك: «ثلاث كلمات: الإصرار، والمثابرة، والعمل المتقن». الركب سيسير حتى لو كنت وحدي، أنا أقبل كل التحديات، وبدلًا من خلق المشكلات تعالّ نحلها أولاً.

■ كيف يتعامل الدكتور أحمد عكاشه مع مرضاه؟

في الطب هناك مبدأ أخلاقي وثقافي: ألا يتكلم الطبيب أمام المريض إلا بلغته الأم، والطب النفسي مصطلحاته كلها أجنبية، فتوجهت لوضع معجم اسمه «الطب النفسي المعاصر»، عربت فيه

المصطلحات، وأنا أجدده منذ حوالي أربعين عامًا باستمرار، ونُشر في العالم كله.

■ كيف تمكنت من نشر كل أبحاثك العالمية والمصرية؟ وهل ساعدك أحد في ذلك؟

في الماضي كانت العلوم في الكتب والأبحاث، والكتابة بالآلة الكاتبة، زوجتي وهي بريطانية ساعدتني بقوة في كتابة هذه الأبحاث وإنجازها بسرعة ونُشرت في الخارج، موقفها كان رائعًا. مثلًا، قبل أن أعود لمصر وعلى ضوء الأبحاث التي نشرتها في بريطانيا ساعدتني وجاءتني عروض عمل ممتازة في دول كبيرة متقدمة، قلت لها: «لن أتزوجك إلا في مصر». وافقت، وشجعتني على العودة لمصر، ووقفت إلى جوارى باستمرار، وعدت ووجدت راتبي اثنين وعشرين جنيهًا فقط لا غير في عام ١٩٦٥، مع أنني كنت أتقاضى في بريطانيا أربع مائة وخمسين جنيهًا إسترلينيًا، فأقمت عند والدي وكان باشا من بتوع زمان، وكان قائد حرس الحدود قبل محمد نجيب، وأعلنت زوجتي إسلامها، وعشنا عند والدي لمدة، ثم انتقلت للسكن في عيادتي الخاصة، شقيقي الراحل الدكتور ثروت عكاشه قال لي: «يا أحمد، خد شقة ثانية»، وعرض عليّ المساعدة ورفضت. عيادتي كانت غرفة نوم تسكنها زوجتي، أما الصالة فتتحول إلى صالة استقبال للمرضى. وفجأة كثر المرضى في العيادة وازدهرت الأمور، فانتقلت معها إلى شقة في مصر الجديدة، كنت أسكن الدور السادس، والرئيس السابق مبارك يسكن الدور الأرضي، بشارع شفيق غبريال بمواجهة نادي هليوبوليس، وكان وقتها ضابطًا، وكان بطبيعته لا يختلط مع الجيران.

■ الجيل الجديد من الأطباء النفسيين، كيف تراهم؟ وهل قدم جيلكم أكثر للطب النفسي؟

التاريخ يقول إنه عادة ما يكون الجديد أفضل. المشكلة عندنا أن التعليم في مصر أصابه عطب قوي جدًّا. الخريجون حالًّا في حالة تعجل، ينالون الشهادات ويسافرون إلى الدول العربية للعمل بها، لا ألوم عليهم، فظروف الحياة الآن مختلفة تمامًا عن ظروف جيلنا. الاثنان وعشرون جنيهًا في مطلع الستينيات كانوا يكفونني، أنظر الآن للأحوال كيف صارت، جيلنا تنطبق عليه قاعدة معروفة في الطب: هذه المهنة بالذات كلما أوغلت فيها وصرت صاحب خبرة عملية أو صاحب صنعة بمعنى أوضح صرت معلمًا والآخرين صبيان. لذلك فالطبيب الذي طالت به الممارسة أفضل، لأن الطب ليس فقط كتبًا وأبحاثًا ودكتوراه ومؤتمرات، ما يقدمه الطبيب الخبير لا يوجد في الكتب. لذا، أقول للأطباء الشبان: «إذا وجدت مستأدًّا كبيرًا فلا تتركه هكذا في حاله، بل لازموه دومًا، واكتسبوا منه كل ما تستطيعون من خبرات، حتى لو دخل الحمام استنوه بره، لكي لا تفوتكم كلمة واحدة». الطب صنعة وعلم وخبرة.

■ كيف ترى الفارق بين جيل أساتذتك وجيلك وجيل تلامذتك؟

هذه فجوة الأجيال. بالنسبة لي أساتذتي جميعًا كانوا بريطانيين وأمريكيين، وعلاقتي بهم كانت وطيدة جدًّا. أما تلاميذي وقد أصبحوا يشكلون الآن نخبة من أشهر المتخصصين في هذا المجال في مصر اليوم، فيبني وبينهم محبة واحترام، علمتهم المثابرة والصمود. والمشكلة في الجيل الجديد كما أخبرتك التسرع.

■ من أشهر تلامذتك اليوم؟

هناك كثيرون، ولا أحب ذكر أسماء بعينها لكيلا أنسى، كلهم الآن أساتذة، من بينهم الدكتور المرحوم عادل صادق، والدكتور طارق أسعد، والدكتور أحمد سعد، والدكتور عبد الناصر محمود، والدكتور ممتاز عبد الوهاب، والدكتور طارق عكاشه، والدكتور أحمد عبد اللطيف، والدكتورة ماجدة فهمي، والدكتور السيد جاد، وكثيرون، ولا أريد السرد للأسماء لكيلا أنسى أحدًا من جميع جامعات مصر.

■ هل صحيح أن هذه الأيام هي عصر ذهبي لعيادات الطب النفسي؟

لا، الطب النفسي أقل طب في عائداته، وما تخرج به في شهرين يخرج به الجراح في نصف ساعة. الطبيب النفسي يحترق في سبيل المرضى، والعائد محدود مقارنة بباقي التخصصات، العالم كله هكذا، أطباء الأشعة في أمريكا الأكثر ثراء، هنا في مصر أعتقد الجراحين وأطباء التخدير. لكن من ناحية أخرى، الأعراض الغالبة على الناس في مصر اليوم هي الاكتئاب، وحين يجد المكتئب أن حوله ملايين من الشعب مش لاقين ياكلوا، يروح للطبيب النفسي يعمل إيه؟

■ هذه الأيام يعيش المصريون حالة اكتئاب عمومية، ما الأسباب الحقيقية؟ وكيف نتخلص منها؟

التخلص منها لن يكون من خلال الطبيب النفسي، سيحل محله هذه المرة صاحب القرار السياسي، لا شك أن الفرحة التي كانت موجودة مع ثورة ٢٥ يناير لم تستمر إلا ثمانية عشر يومًا هي عمر الثورة الحقيقي، حتى تنحى مبارك، بعدها دخلت تيارات شتى من كل جهة، واستولت على هذه الثورة، وتم تهميش الشباب الذي قام بها وضحي من أجلها، بعد المحبة والسلام بين المسيحي والمسلم والغني والفقير والمتعلم والأمي، وقعت الشردمة والانقسام حتى بين الثوار أنفسهم، وصدم الناس بهذه الحقائق، لا سيما أن سقف توقعاتهم وطموحاتهم كان عاليًا جدًا، من هنا كان الإحباط، وهو يولد الاكتئاب أو اللامبالاة أو العنف والدم. هذا يفسر لنا الانفلات الأمني والأخلاقي والإعلامي وغياب الذوق الجمالي ليعود الذوق القبيح، إنه اليأس والانصراف عن العمل، غاب التفاؤل بين المواطنين في ظل غياب القانون، والتعدي على القضاء، وانهيار الأمن، واشتعال الأسعار، وقلة المال. لا يمكن أن تحكم تسعين مليونًا برأي واحد، وما دامت هناك مغالبة فلا يمكن أن تنهض مصر، وما دمنا تشبعنا بروح الانتقام والهدم فلن نبني البلد، وإذا ما انهار التعليم والصحة فلا نهوض للأمة.

■ ما مدى شيوع الاكتئاب مع الفقر والبطالة وتأثيرهما على الناس، وقد سمعنا عن تعدد حالات الانتحار بين الفقراء بالذات؟

الفقر والبطالة ثنائي قاتل إذا تحالفا، يشيع الاكتئاب والعنف، أكبر عدو لسعادة الإنسان هو هذا الثنائي. من لا يعمل ولا ينتج يشعر بدونية ويعجز عن كل شيء. الفقر أيضًا يصيب الإنسان بأمراض نفسية وجسدية. وغير صحيح أن الاكتئاب يشمل الفقراء وحدهم، وأن الأغنياء هم السعداء في هذا العالم، ليست هناك علاقة بين هذه وتلك. زمان كنا نقول مثل عبد الوهاب: «محلاها عيشة الفلاح»، الواقع أن الفقر والبطالة مع الأمية قد تصيب بالامبالاة وتوهم السعادة، وقد كتبت مقالًا مؤخرًا اسمه «احذروا اللامبالاة».

■ ما الأمراض النفسية التي تترتب على عدم الشعور بالأمان وهو ما نعيشه اليوم من عنف سياسي وشعبي وسقوط لدولة القانون وغياب الأمن؟

كل ظواهر الصحة النفسية السليمة والاستقرار النفسي تعتمد على الشعور بالأمان والعدل، إن لم يتحققا يفقد الإنسان شعوره بالانتماء لوطنه نفسه، وينتمي لنفسه ومصالحه أو أسرته أو عشيرته. الأمن والقانون هما ما يجعلان الإنسان لا يخالف المجتمع. هناك فص أمامي في المخ يردع الإنسان عن هذه الجرائم، الحيوانات تمشي بغريزتها، الإنسان يردعه هذا الفص، فإن غاب الأمن والعدل يصبح الإنسان مثل الحيوان، ويعجز هذا الفص عن كبح جماحه، فيحصل على كل شيء بغرائزه دون وازع من أي شيء، الأخلاق تأتي من الفص الجبهي من المخ.

■ هل يحتاج المصريون إلى سنوات لاسترداد شعورهم الداخلي بالأمان؟

لو كانت هناك جدية في استعادة الأمن وإرادة سياسية فستأخذ شهورًا لا سنوات، وإن لم يحدث فسيزداد الانفلات وربما تنهار تمامًا، ونرجو ألا تصل لذلك.

■ هل كشفت الأيام أن المصريين صاروا لا يتقبل بعضهم الآخر ولا يثق به، بل ينفي هذا الآخر ويريد محوه؟

بعد الثورة رأينا أن قدرة النخبة والإسلاميين والثقة معدومة، حتى انعدمت ثقة المواطن البسيط في أخيه المواطن وأجهزة الدولة. الثقة والحميمية والتحاور والاعتراف بمؤسسات الدولة اسمها رأس المال الاجتماعي، وإذا لم يكن موجودًا تنهار الدولة. ما حدث في مصر يماثل إناء ظل يغلي مدة طويلة وأنت كمنته بقوة الغطاء، ثم انزاح الغطاء فجأة فانطلق البخار لافحًا كالنار بقوة أيضًا وفي اتجاهات متضاربة، يأخذ مدة حتى يجمع نفسه، لكن ما دام القانون لا يُفَعَّل نصل إلى حالة الدولة الفاشلة.

■ المخدرات انتشرت كما لم يحدث من قبل، أيضًا المهدئات وتعاطي العقاقير كمخدر لا كأدوية مثل الترامادول، ماذا وراء هذه الظاهرة؟

كلما زاد الفقر والبطالة والانفلات الأمني زاد القلق والعنف. وفعلاً، التعاطي زاد. وكلما زادت جودة الحياة قلت المخدرات، الدليل أن التعاطي والإدمان شائعان أكثر بين الفقراء. الأبحاث الجديدة أثبتت أن الفقراء والحرفيين وغير الموهوبين وأنصاف الموهوبين هم أكثر الناس تعرضًا للإدمان ليهربوا به من واقع مؤلم. هناك ٧٪ من سكان القاهرة يتعاطون المخدرات، أي حوالي ثلاثمائة ألف قاهري. وهناك حوالي مليون وأربعمائة ألف متعاطي ومدمن في مصر. فرق هنا بين شخص يجرب من مدة لأخرى وبين مدمن يومي للمخدرات. و٧٥٪ يجربون، أي يتعاطون فقط. والإدمان الحقيقي في حدود ٢٥٪. اليوم يعتبرون المدمن مريضًا في المخ، لأن الله خلقنا بدائل ومنشطات ربانية تعطي بهجة طبيعية، فهل المدمن ليست لديه نسبة كافية في مخه؟!

■ هل صحيح ما يتردد من أن الإقبال على المنشطات الجنسية صار أقل، وإن كان، فما السبب؟

غير صحيح، بدليل أن أغلبية من يتعاطون الترامادول يتعاطونه لتطويل مدة اللقاء الجنسي. المصري للأسف الشديد يهتم بنصفه الأسفل أكثر من النصف الأعلى! لذا، فعلى الإنسان الذكي أن يثري مخه أكثر من إثرائه لنصفه الأسفل.

■ أنت طبيب نفسي لمعظم المشاهير، هل لهم أمراضهم النفسية الخاصة؟

الأمراض واحدة، لكن الإنسان الذكي والموهوب يكون أكثر حساسية من متوسطي الذكاء أو غير الموهوبين، ويستطيع أكثر أن يعبر عن آلامه النفسية. هناك شيء اسمه «جسدنة العواطف»، أي أنك حين تخاف مثلاً، تتناكب حالة زيادة ضربات قلب أو حموضة أو تلبك معوي أو أكزيما، كل الأعضاء تبكي لكننا لا نرى إلا بكاء العيون. عادةً المهنيون والمشاهير يتناهبهم القلق والاكتئاب، وسببه عدم التوازن.

■ لا يُعرف الكثير عن حياتك كزوج وأب، وما برنامجك اليومي؟

عندي شابان: الدكتور طارق عكاشه أستاذ الطب النفسي بجامعة عين شمس، والأستاذ هشام عكاشه القائم بأعمال رئاسة البنك الأهلي المصري. وطارق لديه ابنتان، وهشام لديه ابنان. برنامجي اليومي: أستيقظ صباحًا في حدود السابعة، وأقوم بالمشي نصف ساعة، وأخذ حمامي، وأتوجه إلى الجامعة أو القيام بواجباتي الكثيرة والمتعددة في كثير من الجهات، ثم العيادة أو بتعبير أصح العيادتين.

■ وفي الإجازة؟

القراءة فقط.

■ وغذاؤك المفضل؟

أفضل الأكل الخفيف، السلطات والأجبان بأنواعها المختلفة، واللحوم المشوية، والخضراوات المسلوقة أو المشوية، لكن ضعفي الشديد أمام الشوكولاتة والبسبوسة والحلوى، وأحاول السيطرة على نفسي، لكن أشجع أصدقائي على تناولها.

■ كل قرائنا يريدونك أن تعود للكتابة لـ«طبيبك الخاص» وأنت انقطعت لمدة سبعة وثلاثين عامًا، لماذا لا تعود إلى صفحاتنا؟

الإعلام لا يشكل اهتمامي الأول، وأحب أن أعطي علمي للنخبة وليس للعامة. أما عملي فللفقير والغني والمثقف وغير المثقف. وكان يتعاون معي زمان الدكتور والصيدق العزيز وزميل المدرسة الدكتور رفعت كمال، وحين ترك «طبيبك الخاص» تركتها معه.

■ ما التشخيص النفسي لحنين البعض لعصر مبارك بكل ما كان فيه من مساوئ؟

الحنين لمبارك عند البعض وراءه الحنين للأمن دون النظر للفساد والاستبداد والسرقة، بعد أن يؤس الكثيرون من وضعنا الحالي.

الانفلات الأخلاقي كارثة يجب مواجهتها

أجرى هذا الحوار: رياض توفيق، ونُشر في جريدة «الأهرام»، نوفمبر ٢٠١٤

■ هل رصدت العيادة النفسية انفلاتًا أخلاقيًا في سلوك المواطن بعد ثورة ٢٥ يناير؟

ما حدث بعد ثورة ٢٥ يناير كان به الكثير من الإيجابيات والكثير من السلبيات، أهمها أنها هدمت بناء فاسدًا ولكن لم تقدم أجندة للنهوض. ونحن نعلم أن الهدم سهل ولكن البناء صعب. ولكن أهم حدث هو خلط الديمقراطية وحرية التعبير، بالفوضى. فلوحظ غياب هيبة الدولة ومن تمَّ غياب تطبيق القانون، الهجوم على الشرطة، عدم الالتزام بالقانون، مع بطء العدالة، مما يجعل المصري ينغمس في الأمور الذاتية وتلبية الرغبات الخاصة، والتمركز حول الذات والانفلات الأخلاقي، وكل ذلك عكس سمات الانتماء للوطن.

■ عندما نتحدث عن الأخلاق كمطلب قومي الآن، كيف يحدد الطب النفسي ملامح الأخلاق؟

إذا عرفنا الثقافة العلمية نجدها مرادفة للأخلاق الرشيدة، فمكوناتها: مصداقية الذات (وتشمل: تحمل المسؤولية والانضباط والإتقان والضمير والإخلاص في العمل)، والتعاون (ويشمل: العمل بروح الفريق في كل عمل، سواء كان علميًا أو اجتماعيًا أو صناعيًا أو مؤسسيًا)، والتسامح والحميمية والثقة في الآخر. ونحن في مصر أبطال العمل الأوحده وليس العمل الجماعي، مما يؤثر في المنظومة الأخلاقية - تجاوز الذات - وهنا يتمركز الفرد على الآخر وعلى المشاكل، وليس على التمرکز الذاتي. إن العطاء للآخر سواء عمل أو بحث أو فرد هو أساس أخلاقي يجلب السعادة وتحض عليه كل الأديان والأعراف. وعلينا الآن تنمية الضمير الجمعي في مصر، وكذلك تنشيط الثقافة العلمية، أي النهوض بالأخلاق.

■ يكتر الحديث عن أن ضمير الإنسان هو أساس أخلاقه، وهو الذي يصبغ هذه الأخلاق ويضبط السلوك، كيف ترى نصيب أطفالنا في هذا المجال؟

إن الأخلاق لا تورث، بل هي نابعة من البيئة والمجتمع، فالبيئة الصالحة والمجتمع الرشيد سينتجان أخلاقًا حميدة. إذن، فنحن نحتاج لفهم كيفية نشأة الضمير في الإنسان، فالطفل حتى سن الخامسة أو السادسة ضميره في طاعة الوالدين، حتى عندما يقولون إذا كذبت ستدخل النار فهو لا يعرف الله ولكنه يخشى والده. فإذا عرفنا هنا أن الأم هي أحسن من يعطي الأخلاق والقُدوة، وإذا عرفنا أن نسبة الأمية بين الإناث في مصر تصل إلى حوالي ٤٠-٥٠٪، وأن ما لا يزيد على ٠.٥٪ قادرون على وضع الأطفال قبل المدرسة في الحضانه، لعرفنا أن محاربة الأمية هي أحد أسس الارتفاع بالناحية الأخلاقية، وبعدها ينمو الضمير في الجو المدرسي. وإذا عرفنا تواضع قدرات وإمكانيات معلم الابتدائي في مصر وعدم قدرته على أن يكون قدوة لهؤلاء الأطفال، وهم يعطون الدروس الخصوصية ويساعدون على الكذب والغش، فهنا يتكون الضمير مملوءًا بالثقوب، وبعدها يتوحد الضمير مع المجتمع الذي إذا كان مملوءًا بالتسيب والفساد والرشوة، نستطيع أن نتنبأ بهوية الضمير، ولكن يوجد الكثير من الأفراد الذين وهبهم الله القدرة على الالتزام بضمير خاص لهم أخلاق حميدة.

■ ماذا تقول رويشة العلاج التي سوف تطرحها أمام الدولة المصرية؟

يعتمد تاريخ وأخلاق الشعوب على الثقافة والفن، والنهوض بهما له القوة في تطهير النفس والارتفاع بالأخلاق، فلولا الفن في مصر الفرعونية وفي الحضارة الصينية والعراقية واليونانية والأوروبية لما عرفنا التاريخ. يجب العناية وتشجيع الثقافة الجماهيرية والتي يوجد بها قصور في كل أنحاء مصر، والتي كان تفعيلها ضعيفاً في الفترة السابقة، بعد أن كانت في الستينيات في حالة نشاط وإبداع مستمر. إن الكتاب والمسرح والموسيقى والأدب لهم تأثير في خلق الإبداع والابتكار وتنشيط الدوائر العصبية المخية التي تنهض بالعلم والبحث العلمي التي هي أسس النهضة في الأمم. وأخيراً تعتمد منظومة النهضة بالأخلاق وتحسين الصحة النفسية على: تخفيض معدلات الأمية والبطالة والفقر سيقول من العنف والإدمان والأمراض النفسية - تحسين فوضى اللغة والازدحام والتلوث الشمي والسمعي والبصري - تدريب المدرسين من أجل النهوض بالتعليم وريادة الدول العربية والأفريقية - تعميم سيناء والوادي الجديد والمثلث الذهبي، توشكى، بإيجاد الحافز لنقل هؤلاء المعمرين - زراعة مليون فدان، والمزارع يدخل أولاده الجامعات ليصبحوا موظفين، وليس عنده كبرياء وكرامة المزارع، لذا يجب بث احترام المزارع، فرنسا معظمها مزارعون متعلمون - الاهتمام بموظفي المحليات، والتدريب المستمر في الأخلاقيات، ويجب أن يكون عائد المراقبين لا يقل عن يراقبون، لأن الفساد والرشوة في المحليات سببه عدم وجود الرقابة الرشيدة - الاهتمام بالإعلام خاصة المرئي منه، وتغيير لغة الخطاب الديني، ونوعية اللغة، وأهداف المسلسلات، وتنمية الإحساس بالمواطنة، والآن بالطبع من خلال ثورة المعرفة - التقليل من مشاهد العنف والقتل، لأنه يسبب تعطيل نمو المخ للطفل مع ازدياد العنف إذا زادت مشاهدة التلفزيون بدلاً من الاختلاط والحركة والرياضة - التركيز في الإعلام على إبراز القدوة والأخلاقيات التي تنهض بالصحة النفسية ومن تَمَّ الرضا النفسي وجودة الحياة - بث التفاؤل والإشادة بالابتسام، وهي مُعدية.

الأخلاق طريق النهضة الوحيد قبل القوة العسكرية أو السياسية

أجرت هذا الحوار: نادية عبد الحليم، ونُشر في جريدة «الأهرام»، مايو ٢٠١٦

■ ما الذي يمكن أن يكون قد دفع الرئيس إلى التفكير في أن يصبح له مستشار في مجالي الصحة النفسية والتوافق المجتمعي؟

أولاً، لا شك أن وجود المجلس الاستشاري التطوعي لكبار علماء مصر بجانب الرئيس بشكل عام يحمل قدرًا من الاستشارات المهمة الصادرة عن علماء فوق السبعين سنة، والغالبية منهم يأتون من الخارج - حيث يقيمون - خصيصًا لخدمة مصر، وهم جميعهم ليس لهم أي طموح تنفيذي أو مادي أو نفوذي لأنهم كلهم يتمتعون بنجاح كبير. لكن الإبداع والاختلاف في الموضوع هو أنه في كل بلاد العالم يكون هناك مستشار للرئيس في مجال الصحة التي يندرج ضمنها من بين ما يندرج الصحة النفسية التي لا تكتمل الصحة بدونها، والتي لا ينحصر تأثيرها على الفرد وحده، إنما تلقي بظلالها على المجتمع كله، فكانت من الرؤى المستقبلية المهمة للرئيس أن يكون هناك لأول مرة مستشار للرئاسة مسؤول عن ملف لا يندرج تحته فقط الصحة النفسية، ولكن أيضًا التوافق المجتمعي. وهو مصطلح لا بد أن نضع تحته الكثير من الخطوط لأنه ينطوي على عدة عناصر لها أهميتها القصوى، وفي مقدمتها الأخلاق العلمية، وهي ما تجعل أي دولة في العالم تنهض، ولنتذكر على سبيل المثال أن هناك عالمًا شهيرًا حاصلًا على جائزة نوبل في الاقتصاد والسلوك قال: «لا تصدقوا أن أي دولة ستنهض بالقوة العسكرية أو الاقتصادية أو السياسية أو الموارد الطبيعية»، لا تنهض الأمة إلا بأخلاق المواطن، وكل الأديان تعتبر الأخلاق أساس النفس المطمئنة، وأعتقد أن الرئيس قد لمس حالة خطيرة من الانفلات في الأخلاق والسلوك خاصة بعد الثورة، حيث كانت هناك سلبات مثلما كانت هناك إيجابيات، وحدث خلط بين الحرية والفضوى، ورأى السيسي أنه لا يمكن أن تنهض إلا إذا كان هناك اهتمام حقيقي بملف الأخلاق، وأن نفهم ماذا حدث، وعندما تم عرض الأمر عليّ رحبت كثيرًا وأفتخر بهذا العمل.

■ لكن، ما المقصود علميًا من الصحة النفسية والتوافق المجتمعي، خاصة أن بعض الآراء ترى في وجود مستشار للرئيس في هذين المجالين قدرًا من الرفاهية؟

التوافق المجتمعي يعني أن أزيد رأس المال الاجتماعي وهو الحب والثقة والتقارب وسد أي نوع من أنواع الانقسامات بين المواطنين، وهذا لن يتحقق إلا إذا كنا نتحلى بالأخلاق العلمية التي أشرت إليها وجودة الصحة النفسية، والأخلاق العلمية تتكون من ثلاثة عناصر أساسية: أولاً: مصداقية الذات، وهي بدورها تتميز بالانضباط والإتقان وتحمل المسؤولية وحب العمل. وثانيًا: التعاون وروح الفريق، فلا ينبغي لي أن أعمل وحدي أو أن أتمركز حول نفسي. وثالثًا: تجاوز الذات، أن أجعل نصب عيني الآخر الذي من الممكن أن يكون إنسانًا، أو الوطن أو الدين، ويهتم الفلاسفة والمفكرون بذلك أيضًا، وقد قال أرسطو إن السعادة هي الالتزام بالفضيلة وجعل أول عنصر من عناصر الفضيلة هو الآخر ثم الرحمة والعطاء ثم العمل ثم التسامح، وهذه الأخلاق العلمية هي ما تجعل الوطن ينهض كما ذكرت.

■ كيف تتحقق الصحة النفسية ما لم تكن تحتاج إلى الطبيب والدواء؟

تتحقق بوجود أربعة عناصر رئيسية: الأول أن يكون الإنسان قادرًا على الصمود لضغوط وكروب الحياة، أي أن الإنسان عندما تأتي له صدمة فإنه يقع على إثرها لكن سرعان ما يقف مرة أخرى، وهكذا يقع وسرعان ما يقف مرة أخرى، لكن أن ينهار ويقول إنني غير قادر على الوقوف مرة أخرى، فهذا يعني أن صحته النفسية معتلة، ومع القدرة على إدارة الغضب، أي أنه لا يكون مع أقل شيء يثيره عصبيًا، مما

يجعله يفقد كل السيطرة على نفسه. والعنصر الثاني هو أن يكون هناك تواكب بين القدرات والتوقعات. والعنصر الثالث أن يعمل المرء ويعطي بحب. أما العنصر الرابع فهو أن يكون هناك حرية التعبير عن الذات وإحساس الفرد أنه يلقي الاحترام في وطنه، وقد أثبتت الأبحاث الحديثة أن ٣٠٪ من الصحة النفسية يرجع إلى إحساس الإنسان بالكرامة، واحترام الوطن له، وفي الوقت نفسه حرية التعبير.

■ وهل يمكن أن تتحقق الصحة النفسية للشعب المصري قريبًا؟

نحن في مصر الآن نخوض حربًا حقيقية ضد الإرهاب في سيناء، ولا بد أن نتذكر ذلك دائمًا، ولا بد أن نعيش اقتصاد حرب، فما حدث بعد الحروب في اليابان وفرنسا وألمانيا أن أحوالهم كانت أسوأ مما نعاني منه الآن لكنهم استطاعوا، لأنهم تمتعوا بالأخلاق العلمية. ولورجنا إلى الكتب التي تتناول الأسباب التي جعلت دولة مثل اليابان تستطيع تحقيق كل هذه النهضة خلال ما يتراوح ما بين عشرين إلى ثلاثين سنة، فإن ما يفاجئك أنه الانتماء للوطن وللعمل، وهو ما ينبغي أن نفعله ونقتدي به إذا ما أردنا الخروج من الأزمة. ولا أستطيع القول إن ثمة تطورًا كبيرًا سيحدث قريبًا، لكني أرى أن الصحة النفسية بدأت تتحسن، لوجود القدوة والأمل.

■ لماذا تقدمت للرئيس بمبادرة «منظومة الأخلاق»؟ وما هي طبيعة هذه المنظومة وآلياتها ونتائجها الملموسة حتى الآن؟

انطلاقًا من الأهمية العظيمة للأخلاق ودورها في تحقيق النهضة والتقدم لأي دولة كما ذكرت، اهتم المجلس الرئاسي بذلك الملف وتم وضع أسسه، وأهمها أن الأخلاق والضمير إنما يقومان على المصادقية وتحمل المسؤولية والإتقان والانضباط وحب العمل وروح الجماعة وتجاوز الذات والتوعية الإعلامية، وكنت أنا المنسق للملف، وتقدمت به إلى الرئيس ووافق عليه، وبدأنا في تطبيقه بألية استشارية، وكان نتيجة ذلك أن انتبه الجميع إلى ذلك، وأصبحت الأخلاق محل مناقشات واهتمام من جانب المسؤولين والوزراء الذين تجلس معهم اللجنة المعنية بمنظومة الأخلاق في اجتماعات مستمرة. وأقوم بعرضه في محاضراتي وندواتي، كما أصبحت كثير من الصحف والمحطات الفضائية المصرية الواعية تناقش منظومة الأخلاق.

■ ما ردك على مخاوف البعض واستدعائهم لقانون العيب في هذا السياق؟

ما تردد عن قانون العيب الذي تخوف منه البعض لا يمت بصلة لمنظومة الأخلاق، لأننا لم نفرض قوانين أو قرارات تخص أي فرد من قريب أو بعيد! أكرر إن الآلية التي نعتمد عليها في عملنا أننا فقط استشاريون نقدم آراءنا ومقترحاتنا، نقدمها لمن يضع الأسس التي تحسن الأخلاق. وفي الواقع رحب معظمهم بنا وبالمناقشات التي دارت، فنحن نمثل لجنة استشارية تطوعية تقدم أفكارًا ورؤى.

■ لكن، إذا تناولنا منظومة لها أهميتها القصوى مثل التعليم، فكيف يمكن أن تتلاقى منظومة الأخلاق معها؟ وكيف يمكن أن تعيد دور المدرسة في غرس الأخلاق والتربية؟

في ملف التعليم تطرح منظومة الأخلاق ضرورة أن يصبح التعليم تفاعليًا، فالتطوير لا يعني أن أ حذف أجزاء وأضيف أجزاء، لكنه تطوير للفكر الذي يقوم عليه التعليم، فيهتم بالألحاشو الأدمغة لكن يجعلها تفكر وتتزود بالعلم، وأن يكون هناك اهتمام فعلي بالموسيقى، والفنون، والرياضة والأشبال والكشافة في المدرسة، فإننا بذلك نكون قد تناولنا كل مكونات الأخلاق، فنستطيع بالتالي تنميتها لدى الصغار، لأننا ببساطة شديدة إذا درسنا للطلاب ثماني ساعات فإن الاستيعاب خلال هذا الوقت دون راحة ودون استرخاء يشكل حوالي ٤٠٪، بينما لو أعطيناها الفرصة ليتنفس من خلال هذه الأنشطة فإن استيعابه

يرتفع إلى حوالي ٧٠٪ حتى في نفس الظروف الأخرى، كما أنه يتزود بأشياء مهمة مثل روح الجماعة والإلتقان والإحساس بالآخر.

■ ماذا عن ملف الإعلام والأخلاق وضمن حرية الرأي والتعبير؟

علميًا، الضلال كلمة معناها اعتقاد خاطئ، لا يمكن بالمنافشة أن تفنع صاحبها بعكسه ويكون غير قابل للمناقشة، ومثلما هناك أنواع من الضلال مثل ضلال العظمة أو الغيرة، والتي يمكن علاجها عند الطبيب، فإن هناك الضلال العقائدي والسياسي وهما لا يمكن علاجهما عند الطبيب، إنما يستلزم الأمر فك المنظومة المعرفية والبدء في تكوين منظومة جديدة، وهذا ما يحدث في الجماعات الإرهابية على سبيل المثال، فلكي نغير معتقداتهم لا بد أن أغير الفكر نفسه، وهنا يبرز دور الإعلام بكل صورته الذي يكوّن وعي الأمة، فمن غير المعقول أن تركز برامج التوك شو على النقد والسلبيات وحدها، وأن يتحول الجميع إلى خبراء في كل مجالات الحياة والسياسة والاقتصاد وغير ذلك، فالمطلوب إعلام يستند إلى الرأي العلمي والتحقق من الخبر والمعلومة قبل طرحها، لكيلا يتسبب في الهدم والانقسامات، وكل ذلك دون المساس بحرية الرأي والتعبير. فالمعارضة وقوتها مهمة وتفيد الحاكم.

■ لكن، ألا ترتبط منظومة الأخلاق أيضًا بمنظومة العدل وتنفيذ القانون فتؤثر فيها وتتأثر بها؟

بالطبع، فسرعة العدل وتنفيذ الأحكام تحول دون تركز الإنسان حول نفسه وسعيه للحصول على حقه بيده، ومن هنا تبرز أهمية العدل وسرعة تنفيذ الشرطة لأحكام القضاء في منع الفوضى والانفلات الأخلاقي والإقلال من الجريمة.

■ كيف ترى بناء الإنسان في مصر الآن؟

بناء الإنسان قضية في غاية الأهمية، فلا نريد مدارس جديدة بقدر ما نريد مدرسين لديهم الضمير والتعليم الصحيح، ولا نريد مستشفيات جديدة بقدر ما نريد تدريب أطباء وفريق تمريض، لا نريد المزيد من المصانع بقدر ما نريد مهندسين وعمالاً مدربين، وبناء الإنسان يكون بالأخلاق، باعتبارها الطريق الوحيد للنهضة.

■ لماذا أظهرت ثورة ٢٥ يناير الكثير من السلبيات والانفلات الأخلاقي والفوضى حتى في اللغة المستخدمة بين الناس وفي الإعلام؟

لقد جاءت ٢٥ يناير كانتفاضة على كثير من الأوضاع الخاطئة، وحملت الكثير من الإيجابيات، لكن البعض حمل أجندة لهدم الأخطاء وحدها، دون أن يقدم أجندة موازية للبناء، ومن هنا حدث الخلل، والخلط بين المفاهيم والرؤى، فمن يقوم بالثورة لا بد أن يعرف الفارق بين الديمقراطية والفوضى، الديمقراطية هي القبول بالآخر، إلا أنه في مصر بينما زادت التطلعات المشروعة وغير المشروعة والأطماع، لا أحد يريد أن يقبل الآخر بمن في ذلك النشطاء السياسيين والأحزاب السياسية والعاملون في مجال حقوق الإنسان! وهذا لا يمكن أن يستمر لأنه في غاية الخطورة على المجتمع، لأنه يزيد من الصراعات والخلافات وتوجيه الاتهامات، ومن استخدام لغة حوار غير لائقة، وهو ما يعني أننا لا نزال في روضة ديمقراطية! لكن لا بد أن نبدأ ونخطئ ونتعلم لتعمق التجربة الديمقراطية.

■ والإحباط؟

أكثر شيء يمكن أن يسبب إحباطًا ولا يسعد الشعب، أي شعب، هو أن تكون توقعاته أكثر من القدرات المتاحة على أرض الواقع، وهذا ما حدث للأسف بعد ٢٥ يناير، وهو أن الناس اعتقدت أن المليارات الموجودة في الخارج سيتم تقسيمها على التسعين مليونًا لينال كل شخص نصف مليون جنيه. وتصور الناس أنه في يوم وليلة ستتغير الأحوال جذريًا وكليًا، الأمر الذي ارتفع معه سقف التوقعات، خاصة أنه لم يكن هناك بعد الثورة في ذلك التوقيت من خرج ليوضح للشعب أن البلد منهوب ومسلوب، وأن ثمة أزمة اقتصادية طاحنة وتحديات كبيرة ومشكلات متراكمة منذ عشرات السنين، مثل الكهرباء والقطارات والصرف الصحي، وأن الواقع الاقتصادي للبلد لا يستطيع أن يليه أو يفى بهذه التوقعات، وأتينا سنظل سنوات في نوع من أنواع الدموع والعمل والعرق والفقر إلى أن نستطيع أن ننمي أنفسنا، مثلما قال تشرشل في حرب إنجلترا حتى انتصر.

■ كيف يمكن إذن الخروج من دائرة الإحباط؟

لا بديل عن مصارحة الشعب ومكاشفته. ولا شك، يمكن للإعلام أن يمثل هنا الجسر بين المسؤولين والشعب في توصيل الحقائق والمكاشفة والمصارحة، لا النقد والتركيز على السلبيات دون توضيح الأسباب والتراكمات التي أدت إليها، والتوعية بضرورة تطوير الإمكانيات البشرية وتدريبها لكي تستطيع أن تبدأ في تحقيق أحلامها، وفي توجيه التعليم إلى سوق العمل، وتغيير الصور النمطية الخاطئة عن التعليم الفني في مقابل الشغوفين بالحصول على الماجستير والدكتوراه دون أن يساهموا في تطور علمي أو فكري حقيقي، وفي زيادة الإنتاج ودعم الاقتصاد، ثم يغضبون بعد ذلك من أن الوطن لا يحتضنهم أو يقدم ما يتلاءم مع توقعاتهم! فكلما قصرت المسافة بين التوقعات والإمكانيات نجحنا في محاصرة الإحباط الذي يتسبب في العنف، وسوء الأخلاق، والقلق أو الاكتئاب، واللامبالاة وهي أسوأ نتائج الإحباط.

■ هل تشعر بالتفاؤل تجاه المستقبل؟

نعم، أنا شخصيًا أشعر بالتفاؤل، لكن المشكلة أن نسبة كبيرة من الشعب تتعجل الرغبة في سرعة الإشباع، نريد كل شيء بسرعة، في حين أنه لا بديل عن الأخلاق العلمية. إذا استطعنا التزود بذلك فسنحقق أهدافنا سريعًا، وسنصل إلى النهضة التي نتمناها. وقد مرت مصر من قبل بأزمات واستطاعت بهذه الأخلاق أن تعديها وأن تتوحد على هدف واحد، مثل طرد الإنجليز، و٢٥ يناير، و٣٠ يونيو، والآن هدفنا هو إعادة بناء الإنسان المصري القادر على تحقيق التنمية، خاصة أن ثورة ٢٥ يناير أهم ما نجحت في تحقيقه هو أنها أنهت نظرية صناعة الفرعون الحاكم، وكسرت حاجز الخوف من الحاكم، أصبح أي حاكم في مصر الآن لا يستطيع أن يحكم العمر كله، ولا يستطيع إلا أن يحكم بالشفافية والعدل، ولا يستطيع أن يفعل ما يريد دون مساءلة، كما أصبح أي رئيس يريد خدمة وطنه ثم يرحل بعد انقضاء مدته للأعباء الضخمة المتراكمة على عاتقه!

■ كيف ترى شخصية الرئيس السيسي؟

رجل يمثل هذه الوطنية استطاع أن يفشل مشروع تقسيم مصر، ووقف بصلاية وتحذّر ضد الغرب وبعض الدول العربية بل وبعض القوى الداخلية التي تعمل بأجندات خاصة، واستطاع أن يواجه ذلك كله ويظل صامدًا، ومن هنا أكرر إنني أشعر بالتفاؤل، والشعب سيحقق الكثير.

■ نريد روثة للسعادة والصحة النفسية.

ثبت علميًا أن السعادة هي عملية عقلية، ليس لها أي علاقة بالنفوذ أو السلطة أو المال، وأن كثيرًا جدًا من الذين لديهم ثروة كبيرة لا يشعرون بالسعادة، بل على العكس قد تكون هذه الثروة سببًا لتعاستهم، فالوسطية في كل شيء في الحياة أكثر شيء يمكن أن يسعد الإنسان، أما الرضاء النفسي فإن أكثر ما

يساعد على تحقيقه هو النسيج الاجتماعي. وقد أجرى معهد الاستقصاء الشهير «BIO» مقارنة حول السعادة بين بعض الدول الأفريقية والغربية، وكانت المفارقة أن الرضاء النفسي في الدول الأفريقية التي تعاني من الفقر والمشاكل الاقتصادية أعلى مما هو في الدول المتقدمة، وذلك بسبب التقارب والدعم الاجتماعي، بمعنى الصحة التي تضم بالترتيب حسب أهميتها: الأصدقاء، الأسرة، الجيران، الاشتراك في كيان أو جمعية اجتماعية أو رياضية أو سياسية أو غير ذلك، لأن ذلك يقود إلى الانتماء. هناك كاتب اسمه إريك فروم كتب كتابًا اسمه «أن تملك أو أن تكون» أي التملك أو الكينونة، فهل تريد أن تعيش حتى تمتلك زوجة، أبناء، بيتًا، مالا، إلخ. أم أنك تعيش لكي تكون لك كينونة، أي كيان وشخصية. وأعتبر أن أول شيء يحقق الكينونة هو الانتماء، ثم الهوية، ثم الجذور، ثم القدرة على التسامح، وأخيرًا رؤية مستقبلية لحياته.

■ والنجاح؟

لا توجد رويشة للنجاح، لأن النجاح هو الصمود أمام الفشل، والإصرار والمثابرة والصبر والعمل الجاد، والالتزام بالأخلاق العلمية التي توصل للنجاح والصحة النفسية معًا.

أنا محاولة لإسعاد من عانوا محنة المرض النفسي

أجرى هذا الحوار: محمد عبد الحافظ، ونُشر في مجلة «طبيبك الخاص»، العدد ٥٧٤، أكتوبر ٢٠١٦

الوجه الآخر للطبيب. شهب لامعة في حياتنا، نماذج للتفوق تستحق أن تكون نماذج تقتدي بها الأجيال، لها وجوه تعرفها لأنها تداوي الجراح، ولها وجوه أخرى تحت أقنعة الرحمة التي تصافحنا. تعالوا معنا نستطلع الوجه الآخر للطبيب. ضيفنا له وجود ملموس في الحياة العامة على صفحات الجرائد وفي الإذاعة والفضائيات، فهو صاحب رأي وموقف، وله وجود ملموس في عالم الطب، رشحه له تفوقه وامتياؤه إلى أسرة من بناء مصر المعاصرة. فماذا عن الجانب الآخر المجهول من القمر؟ تفاصيل ومعلومات ورؤى جديدة يتضمنها الحوار التالي.

■ ماذا عن الدكتور عكاشه الطبيب الإنسان؟ من أنت؟

أنا محاولة لإسعاد من عانوا محنة المرض النفسي. وأحد أسباب تخصصي في الطب النفساني، والذي كان غير معروف في مصر قبل سفري إلى الخارج، هو إنسانية الطبيب. عندما كنت طبيب امتياز في الجراحة، وجدت أن معظم أساتذتي الأفاضل يطلبون أن أحضر لهم عمليات غدة درقية، أو مرارة، أو فتاق، أو بواسير، وعندما كنت أسأل ما اسمه، يبتسم وينظر لكل واحد على اعتبار أنه هو العضو، وليس الإنسان، وعندما انتقلت إلى الرمد تكررت نفس الحكاية، «حضر لنا عمليات مياه بضاء أو زرقاء»، «طب اسم المريض إيه؟»، يضحك الطبيب. أحسست أن معظم الأطباء يتعاملون مع المرضى كأنهم أعضاء، فطبيب القلب لا يهتم إلا القلب، وطبيب الأمعاء لا يهتم إلا الأمعاء، وطبيب الروماتيزم لا يهتم إلا الروماتيزم، وهكذا. وجدت أن الحالة الوحيدة التي تنظر للإنسان ككل، كإنسان كشخص وليس كعضو هو الطب النفسي. ويوجد ثورة في العالم الآن في الطب كله للعودة ثانيًا إلى أن يكون الطب للإنسان وليس للعضو، وهذا ما سيحدث، لأن هناك تخصصات أصبحت إلى حدٍّ ما مضحكة. يقول مثلاً أنا متخصص في اليد، إذا جاء الوجة في الساق لا يقدر أن يعمل أي حاجة. وأنا أسخر من هذه العملية بأنني أقول: «ساعات ممكن طبيب يتخصص في اليد اليمنى فإذا جاءت الشكوى في اليسرى لا يقدر أن يعالجه، أنا بعالج الإنسان ككل». فأعتقد أن الإنسانية الخاصة بالطبيب خاصة إذا تواضعنا وعرفنا الجملة التي قالها أبو قراط أبو الطب، أنه في الطب لا يوجد شفاء، أي في الطب الشفاء نادر، تخفيف الآلام أحيانًا، المواساة غالبًا. وأريد أن أؤكد أنه حتى وقتنا الحالي هذا هو الوضع في الطب، فمريض السكر والضغط والقلب والكبد والكلية، نحن نخفف الأعراض لكن لا نشفي المرض، ويظل المريض يتناول العلاج طوال حياته.

■ وكيف تتعايش مع حقيقة أنك طبيب نفسي يستطيع دومًا أن يكتشف أغوار وسلوكيات من حوله؟

تتعجب لو علمت أنني في حياتي العادية أعيش إنسانًا بفكر وإبداع وابتكار أكثر من أن أحيا كطبيب نفسي، لا أحاول إطلاقًا أن أمارس الطب من نفسي في حياتي العادية، أو حياتي مع الأسرة، أو الأصدقاء، لكن أحيانًا وقت المحن والمشاكل والمواجهات، تفيد خبرة الإنسان بالطب النفسي وتجعله قادرًا على ممارسة الحوار وتخفيف الصراعات أكثر من غير المتخصص في هذا المجال.

■ وهل تنفذ التعليمات التي تنصح بها مرضاك؟

سؤال صعب جدًّا، لأن كثيرًا جدًّا ما نجد أصدقاء من الأطباء يشربون السجائر ويطلبون من المريض التوقف عن التدخين، يرد عليه المريض بقوله: «بس حضرتك بتشرب سجائر». يقول له الطبيب: «أنا مسؤول عن صحتك، لكن أنت غير مسؤول عن صحتي». هذا يجيب على السؤال، لكن ما أريد أن أقوله

إنني إلى حدٍّ كبير، العادات التي أتبعها في حياتي سواء في الغذاء أو في الرياضة أو في الصحة تجعلني أستطيع أن أنصح مرضاي، وأن أعيش حياة كل مريض لأعرف ما يطبقه، والذي لا يقدر أن يطبقه.

■ لكل منا عاداته الشخصية جدًّا قبل النوم، فما عاداتك؟

تختلف العادات على حسب المهام الموجودة في اليوم التالي، لكن عادة عقب الانتهاء من عملي ووجودي في المنزل، أظل موجودًا في تراس للقراءة، و ٥٠٪ من وقتي للقراءات الثقافية، وسماع الموسيقى، فضلًا عن قراءة المجلات العلمية في الطب النفسي، وهي طقوس موجودة في ساعتين أو ثلاث قبل النوم، وقد أشاهد التلفزيون لأعرف آخر الأخبار الداخلية والخارجية، وأحيانًا جزءًا من فيلم أيضًا، لأنني لازم أنام مبكرًا وأستيقظ مبكرًا.

■ وهل هناك موعد محدد للنوم؟

ما بين الساعة الحادية عشرة والثانية عشرة مساءً، وأستيقظ ما بين الساعة السابعة والسابعة والنصف صباحًا، حتى لو كنت نائمًا الساعة الرابعة فجرًا، وعشائي دائمًا يكون خفيفًا، إما فاكهة أو زبادي.

■ ما هي الأفلام التي تستهويك؟

أكثر الأفلام التي تستهويني هي التي لا تعمل دلوقت: الأفلام العاطفية القديمة، والتي تتضمن نوعًا من التفكير، أو التي تتضمن مشكلة أو قضية ويتم حلها. فضلًا عن الأفلام التي كان أصلها قصصًا وروايات، وليس هناك مانع من مشاهدتها أكثر من مرة، مثل فيلم عن تاريخ موزارت، أو فيلم عن حياة محمد عبد الوهاب أو أم كلثوم. وإذا كان هناك فيلم كوميدي، رغم أنه يصعب على الممثلين الكوميديين لأن غالبيتهم لديهم اكتئاب وهو شيء غريب جدًّا، لكنهم ينفسون عن هذا الاكتئاب بأن يجعلوا الآخرين سعداء بالابتسامة، وهذا يمنحهم رضاء نفسيًّا شديدًا، وكذا المسلسلات التي تكشف عن جريمة.

■ في تصورك، لماذا يكون عند الممثل اكتئاب؟

لازم نفرق بين الاكتئاب والحزن والألم والغضب والقلق، الاكتئاب مرض موجود في العالم كله بنسبة تتراوح ما بين ٤-٥٪، وهناك مائة وثمانون مليون نسمة من السبعة مليارات في العالم يعانون من الاكتئاب، وهذا يجرنا إلى موضوع آخر هو من يقولون إن الشعب المصري كله مكتئب الآن، وهذا غير صحيح، لأنه لو كان مكتئبًا فإن الطبيب النفسي سوف يعالجه، لكن الشعب المصري روحه المعنوية فيها انكسار.

■ وهل هناك حالة من اللامبالاة لدى المصريين؟

ممكن إحباط، لأنه عندما قامت الثورة كانت هناك توقعات عالية للشعب المصري، ولم يخرج من المجموعة التي قامت بالثورة من يقول للناس: «هنمر بمحنة شديدة جدًّا علشان نقدر نقف على رجلنا»، بالعكس كانوا يُضربون عن العمل فتمت زيادة رواتبهم، فارتفعت التوقعات، وعندما لا تجاب التوقعات الخاصة بك يحدث إحباط، والإحباط يمكن أن يولد عنقًا أو عدوانًا، ويمكن أن يسبب اكتئابًا أو قلقًا أو خوفًا، لكن الأهم من هذا أحيانًا يسبب لامبالاة وهو الأخطر.

■ ما هوايتك عندما تجد وقتًا لنفسك؟

القراءة والاستماع إلى الموسيقى، وحسب رأي أصدقائي الاستماع إلى الأموات، بمعنى إذا كانت موسيقى أجنبية فجميعهم موتى، وإذا كانت موسيقى عربية فهم أيضًا من الأموات، لأنني مع جيل قديم وليس الجيل الجديد.

■ وماذا عن ممارسة الرياضة؟

في الصغر كنت ألعب اسكواش، وحاليًا أمارس السباحة في الصيف والمشي في الشتاء.

■ بالمناسبة، كيف تسير علاقتك بأولادك وأحفادك؟

أؤمن تمامًا بجملة جبران خليل جبران: «إن أولادك ليسوا بأولادك، لكنك أنت القوس التي تنحني لينطلق السهم». وعمر القوس ما يحصل السهم، وبالتالي كل الآباء والأمهات ينحنون من أجل تقدم ابنهم، لكن لا ينتظرون أنهم سوف يصلون معه، سوف تنتهي وظيفة الأب بمجرد أن يطلق هذا السهم (الأولاد السهم، والأب والأم القوس). والمستقبل الخاص بي هو أولادي وأسرتي. أما عن علاقتي بأحفادي، فهي علاقة حب مطلق، ولا أقوم بتربيتهم، وهي علاقة مختلفة جدًا عن علاقتي بأولادي، الذين كانت مسؤوليتي تجاههم هي التربية والتعليم والزواج، لكن أحفادي علاقة حب متبادل وعاطفة لا يوجد فيها مسؤولية التربية، وأحفادي يشعرون بذلك، وهذه متعة شديدة جدًا، ليس فقط للجد أو الجدة لكن للأطفال. ومن خبرتي أن الأطفال الذين عاصروا أجدادهم وهم على قيد الحياة صحتهم النفسية تكون أقوى جدًا من الذين لم يعاصروا أجدادهم، وهناك بعض المرضى يقولون لي: «أنا منهار تمامًا، جدتي توفيت، و حزني عليها أكثر من حزني على والدي عندما تُوفِّي».

■ وماذا تتمنى لولديك؟

الالتزام بالمسؤولية، والعمل بإتقان، والرحمة، والتسامح، والعدل، والالتزام بالقيم الروحية.

■ بصراحة، هل فرضت على الدكتور طارق عكاشه أن يمتحن الطب؟ وهل اعترضت عندما اتجه الأستاذ هشام عكاشه للاقتصاد؟

طارق كان الابن الأول، توحد مع عملي وشغلي، وكان يسمع مني، وأخذ مني حبي لهذا الفرع، وكان باستمرار يسأل ليتعرف أكثر، لكنني لم أجبره إطلاقًا أن يدخل كلية الطب، ولم يكن هناك تدخل مني في ذلك، والدليل على ذلك أن هشام الابن الأصغر درس اقتصادًا وابتعد عن الطب نهائيًا، لأن كثيرًا جدًا من زملائي الأطباء يحبون أن يروا أولادهم أطباء، لكن أنا لم أحاول أن أمارس هذا نهائيًا على ولدي، تركتهما حسب الميول، والإخوة ميولهم تكون دائمًا مختلفة وذكاؤهم مختلفًا وشخصياتهم مختلفة، لذلك يكون صعبًا جدًا أنك تملي على أولادك أي رغبات، وإذا فعلت ذلك فلن يكون هناك توافق، وهي أكثر حاجة تسبب أذى للإنسان أن اهتماماته تكون مختلفة عن الكلية التي التحق بها، فيظل طوال عمره غير سعيد.

■ هل لك صداقات عميقة تمثل توأماً روحياً في حياتك؟

طبعًا هناك صداقات كثيرة، وأكثر شخص كان توأم روحي هو شقيقي الأكبر الدكتور ثروت عكاشه، الذي كان يشركني في أي عمل فني رغم فارق السن بيننا وهو ١٥ عامًا، كان يشركني في تذوق الجمال، والموسيقى، والتصوير، والأدب، والكتابة، والشعر، والمناقشة حول كتبه قبل طباعتها، وفي صغري، عندما كان ملحقًا عسكريًا في باريس كان يضعني في اللوفر ويقول لي: «هنتفرج اليوم على كذا، وسوف أمتحنك فيه لما ترجع، وعلى أساس نجاحك فيه هاقول للسركتير الخاص بي يأخذك يفسحك في

ظلم كبير جدًا أن الرجل يكون له إمكانية الزواج من أربع سيدات، في حين أن السيدة ليس لها الحق في ذلك، وأرى أن تعدد الزوجات ليس شيئًا صحيًا.

■ وماذا عن الحب في حياتك؟ وهل لا يزال الحب يدق قلبك؟

حياتي هي الحب. عندما يتوقف الحب عندي يحين الرحيل. والحب يدق قلبي في كل دقيقة وفي كل لحظة، وفي كل سماع موسيقى، وفي كل علاقة إنسانية، وفي كل مريض يدخل عليّ في العيادة، وكل مريض يُشفى.

■ ما دمنا نتحدث عن الحب والشعور العاطفي، هل تشعر بآلام مرضاك؟

أكثر من خمسين عامًا وأنا أمارس هذا العمل، ومن حبي له اكتسبت حب المرضى لي، من غير المعقول أن يحبوني وهم لا يشعرون أنني أحبهم، وتخصصت من أجلهم، وبنيت فرعًا جديدًا في هذا العلم، ونحت كلمة «نفساني»، فعقب عودتي من الخارج الناس لم تكن تفرق بين الطب النفساني وعلم النفس، وكانوا يطلقون عليها «الأمراض العصبية والنفسية» أو «طب المجانين»، نحت أنا كلمة «الطب النفساني» وهي لم تكن موجودة عام ١٩٦٦، وأصبح الطب النفسي كلمة مشهورة في كل الدول العربية.

■ هل تؤمن بمقولة «إن الرجل هو طفل كبير»؟

لا أعرف لماذا يقولون إن الرجل طفل كبير، ممكن المرأة تكون طفلة كبيرة، على أساس أن الرجل ابن أمه، فالرجل لم يفعل الكثير، لم يحمل، لم يرضع، لم يربّ، وبالتالي الإحساس الخاص بالأم لأنها هو نفس الإحساس مهما كبر في المنصب. وهناك كثير من العلماء والرؤساء عندما يذهبون لأمهاتهم وهم في أعلى منصب يشعرون وكأنهم أطفال، فالعلاقة بين الإنسان وأمه تجعله يشعر باستمرار أن في وجودها رجوعًا لبراءته القديمة كطفل، وعبارة «الرجل هو طفل كبير» قيلت على اعتبار أننا أولاد أمهاتنا، وأحيانًا بعض الرجال يحتاجون أن تقوم الزوجة بهذا الدور، وهذا المفروض ألا يكون.

■ هل ترى أن الزواج ضرورة في حياة الطبيب؟

الزواج سهل، والطلاق أسهل، والصعوبة في الاستمرار، لأن استمرار الزواج يحتاج لنضوج الطرفين، ويحتاج للمرونة في المعاملة، يحتاج أن تتغاضى عن أخطاء الآخر في سبيل الحب، لكن في حالة اكتشاف الأخطاء الحب يقل. ولا شك أن الطبيب يحتاج إلى الثبات في حياته وإلى عاطفة ثابتة، حتى يستطيع أن يقوم بعمله الإنساني. والأبحاث كلها تقول إن الزواج يطيل العمر، والأبناء يجعلون الصحة النفسية أحسن. لكن هناك أناس كثيرين جدًا يستطيعون أن يتأقلموا ويعيشوا حياة عظيمة جدًا فيها إبداع من غير زواج، بأن يهب حياته لفكرة معينة، ولدينا أمثلة علماء وشعراء وفنانين، لكن أنا أتحدث عن الإنسان العادي، وهناك من يتزوج من أجل الإنجاب فقط، ومن يتزوج من أجل الأكل، ومن يتزوج من أجل التواصل العاطفي.

■ وما الأكلة التي تستهويك؟

الأكلة التي شكلها حلو، التي تمنحني جماليات، فمثلًا الفول كقول لا، لكن إذا كان موجودًا بشكل معين وفيه خيار على جنب وزيتونة في المنتصف مع طماطم وتم وضعها بطريقة جمالية أقبل عليه، أنا لا أتذوق الأكل بل أشمه، وأستعمل الحواس الخمس في الأكل، وإدراكي للحياة، باحاول عندما أدخل حديقة ليس فقط أن أنظر للخضرة أو أسمع العصافير لكن أشم الخضرة. وعلى رأي الدكتور ثروت عندما أنشأ الموسوعات الخاصة به بعنوان: «العين تسمع والأذن ترى»، هو يقصد أن يقول إننا نقدر أن

نتمتع بحياتنا باستعمالنا الحواس الخمس كلها، هو كان يحكي ويضحك معي ويقول لي: «عايزك تذوق كونشرتو فيفالدي». أقول له: «أدوقه». يقول: «استطعمه في فمك، وبعد ذلك تشم السعادة التي تخرج أو رائحة رحمة أو رائحة العدل». فأنشأني بالتذوق هذا، فالأكل أصبح جزءًا جماليًا أكثر منه كمية. مثلًا، لو أنا أريد قطعة لحم صغيرة جدًا، ولكن معمولة بطريقة جميلة جدًا، أتناولها، مش لازم تشبيني، لكن تمنحني انبساطًا.

■ هل واجهت مازقًا ذات يوم؟ وكيف تعاملت معه؟

أي مازق يتعرض له الإنسان يمكن أن يتم حله بواسطة الإنسان، هذه فكرتي، من أجل ذلك كل من يشتغلون بالسياسة والحروب يعرفون المفاوضات. مثلًا، قامت حرب بين ألمانيا وإنجلترا وفرنسا وخمسين مليون شخص توفوا وهُزمت اليابان وألمانيا، وعلاقة ألمانيا بإنجلترا وفرنسا اتحاد أوروبي، إذن لا توجد حاجة دائمًا أبدًا، أي مازق يمكن أن يحل إذا كنا نزيل المعوقات النفسية للمفاوضات، بمعنى لا تدخل المفاوضات وكأنك منتصر فلن تكسب وقتها، لا بد أن تدخل المفاوضات على أساس الموقف الحالي إنك أقوى، لكن حتى أتفاوض لازم أتنازل، فضلًا عن أنك لا تدخل بأجندة الحصول على أكثر المكاسب، كلها معوقات نفسية وليس المازق نفسه، فأنا أنظر دائمًا للمازق بهذه الطريقة، إن أي مازق خلقه الإنسان يمكن للإنسان أن يزيله، إلا مازق الولادة أو الوفاة فهما من عند الله.

■ متى تخرج عن شعورك؟ وهل تعرف الخوف؟

ممكن أخرج عن شعوري لكن في حدود، لكن أكثر حاجة تتعيني نفسيًا عدم الوفاء. عندما أسمع أن فلانًا عمل في فلان موفقًا، ويكون هذا الفلان أو الفلانة كلهم تسامح وأخلاق، أشعر وقتها بألم نفسي شديد جدًا. طبعًا إذا حدث لي يبقى ممكن أن يحدث لغيري، لأنه عندما يحدث لي يمكن أن أضع له تبريرات، لكن لغيري أبقى مش فاهم. الإنسان بطبيعته وكل الأشياء التي تمنح السعادة فيها وفاء. مثلًا، قسم أبو قراط يقول: «أن أكون مخلصًا لمن علمني، لأستاذي، أقوم بعلاجهم، أقوم برعاية أولادهم»، الحيوانات الوحيدة التي يحبها الإنسان هي من لديها وفاء: الكلب والحصان.

■ عندما يأتيك مريض مشهور، هل تقدم له عناية خاصة؟

لا، أي طبيب يأتي له أحد المشاهير لا يعامله بطريقة مختلفة، فالجراح عندما يجري عملية لشخص عادي سوف يجريها بالضبط كالتي يجريها لشخص مشهور، لأنه يمكن أن يكرم المشهور فيموته، فالطب ليس فيه إكرام بين الغني والفقير، بين العادي والمشهور، لأن هذا يعيق طبيعة العلاج نفسه، وطبيعة العلاج تقول إن هذا الشخص لديه محنة ويعاني منها، والمحنة والمعاناة أنا مسؤول عنها، وفي هذه الحالة لا يفرق لدي من يكون هذا الشخص. لكن تفرق في ماذا؟ أن المشهور هو نفسه لديه نوع من النرجسية أو عشق الذات، ويريد أن تتم معاملته بطريقة مختلفة وهذا يعوقه عن الشفاء التام، وعندما يعامله الطبيب معاملة عادية يشعر وقتها أنه لا يستريح لهذا الطبيب.

■ للفنون دور كبير في حياتك؟ خاصة أنك تنتمي إلى أسرة «بناة مصر المعاصرة»؟

الفنون هي القدرة على تذوق الجمال والحب، ومثلما قلت إذا لم يكن هناك حب وفنون أو لم أقدر أن أتمتع بهما فاستمراري في الحياة غير مرغوب فيه، والفنون ليست فنًا واحدًا، فالإنسان يحب الجمال، ويحب الموسيقى، ويحب الرسم، ويحب الشعر، ويحب الأدب، ويحب القصة، تمنحه هذه الأشياء نوعًا من الرياضة الفكرية والذهنية التي تعطي صحة نفسية ومنتعة في الحياة.

■ تلقيت العديد من التكريمات، أيها أقرب لقلبك؟

حصلت على التكريمات في العالم قبل أن أحصل على أي تكريم من مصر وهذا أمر غريب جدًا، لكن حصلت على أكبر تكريمات في مصر، حصلت على جائزة الإبداع الطبية عام ٢٠٠٠ من أكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا، ثم جائزة الدولة التقديرية في العلوم الطبية عام ٢٠٠٧، ثم جائزة النيل (مبارك) في العلوم الطبية عام ٢٠١٠، ووسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى عام ٢٠١٣. الحمد لله لا توجد جائزة عليا في مصر لم أحصل عليها، وحصلت على «دكتوراهات» فخرية من دول مختلفة، وأيضًا الزمالة في الطب النفسي وشهادات كثيرة جدًا، لكن أعتقد أن التتويج كان عندما تم انتخابي رئيسًا للجمعية العالمية للطب النفسي، ورئيس أطباء نفس العالم لمدة ست سنوات من عام ١٩٩٩ حتى ٢٠٠٥، وهذا لم يحدث في هذه الجمعية من قبل.

■ حدثنا عن ذلك؟

الجمعية هي أكبر جمعية طبية في العالم تضم أكثر من مائتي ألف طبيب نفسي، يمثلون مائة وست وثلاثين دولة، والانتخابات لرئاسة هذه الجمعية كانت محجوزة للأوروبيين والأمريكان، ولم يحدث في تاريخ هذه الجمعية التي قاربت على ستة وستين عامًا أن طبيبًا دخل الانتخابات منفردًا. لكن بعدما عملت في الجمعية وقمت بعمل دراسات نُشرت في مجلات العالم، خاصة أن الطب النفسي الموجود في بلادنا مختلف مقارنة بالدول الأخرى، حيث العلاجات التي تُعطى مختلفة، كنت معروفًا على هذا المستوى، لأنني كنت أشتغل ست عشرة سنة قبل أن أتقدم للانتخابات. وكان أمامي في الانتخابات أربعة أشخاص، وواحد وراء الآخر انسحبوا، وكان الواحد فيهم يقول: «أنا معنديش فرصة أمام أحمد عكاشه»، وكانوا يتريقوا ويقولوا إن كل حاجة ضدك في الانتخابات: أنت مسلم، ومن الشرق الأوسط، وأنت أفريقي، وأنت عربي، وأنت كذا وكذا... وقالوا: «لكن أنت أحمد عكاشه، سوف ننتخبك علشان أنت أحمد عكاشه»، وهي من أكثر الجمل التي أثرت فيّ! جردوني من الوطن ومن الدين ومن أي شيء وانتخبوا مخ أحمد عكاشه! ولأول مرة يتم عمل الكونجرس العالمي للطب النفسي في القاهرة عام ٢٠٠٥، وطلبت من العالم الراحل الدكتور أحمد زويل أن يأتي ليتحدث عن العلم في هذه المنطقة منذ بداية الفراغ إلى العصر الإسلامي، والقبلي، إلى العصر الحالي، وكان حاضرًا في هذا المؤتمر سبعة آلاف عالم في الطب النفسي من مائة واثنين وعشرين دولة، وكان ترويجًا لمصر. كل هذا كان تقديرًا عالميًا لي، غير التقدير المصري.

■ وماذا تعني الأناقة لك؟

لا أفكر أنني أنيق أم لا، أنا عايز لما أبص في المرآة الصبح ألقى ألوان مبهجة، وهو تذوق جمالي لا أي شيء آخر، لأن التذوق الجمالي يضفي عليّ نوعًا من الراحة النفسية التي أستطيع أن أضفيها على الآخر، لأن المحروم من الشيء لا يعطيه.

كورونا مش عار والإعلام ضخم الأزمة

أجرى هذا الحوار: حاتم حسني، ونُشر في جريدة «الأخبار»، مايو ٢٠٢٠

■ هل أصبح مريض كورونا موصومًا في المجتمع المصري؟

الكثيرون قد يرددون كلمة «وصمة» ولكنهم لا يعرفون معناها، فالوصمة هي علامة تؤدي إلى النبذ والتهميش، وسابقًا كانت هناك وصمة لمرض السرطان، وكان يُسمى بـ«المرض الوحش» أو «المرض الخبيث» أو «المرض اللي ما يتسماش»، وكذلك كانت هناك وصمة للمرض النفسي، ونظمت منذ ثمانية أشهر حملة لإزالة الوصمة عن المرض النفسي، أكدت خلالها أنه مرض في المخ وليس سحرًا أو عيبًا تربويًا، فهو مرض كأى مرض آخر قد يصيب جسم الإنسان، ولكن هذا النبذ كان سببه الجهل، وبالتالي فالوصمة هي نتيجة للجهل وقلة الوعي، ولذلك تكون الوصمة في كثير من الأحيان مرتبطة بفهم الإنسان لطبيعة الأمر.

■ هل تختلف نظرة المجتمع للمريض باختلاف المستوى التعليمي والثقافي؟

هناك فارق كبير جدًا ما بين نظرة المتعلمين والجهلاء، وخير مثال على ذلك أننا جميعًا تابعنا حالة وكيل كلية طب قصر العيني، الذي توجه للمستشفى بشكل مباشر فور إحساسه بأعراض تشبه أعراض كورونا، وأعلن خبر إصابته بشكل طبيعي دون أي حسابات. والكورونا لم تفرق بين الغني والفقير، بين الجاهل والمتعلم، بين القادر وغير القادر، والكل سواسية أمام الكورونا، فجميعنا أولاد آدم وجواء، وأعتقد أن زيادة الوعي بالمرض وأعراضه وأسبابه قادرة على إزالة أي وصمة، حيث لا يوجد أي داع لهذا النبذ. وهنا يجب أن يعرف الجميع عدة إحصائيات هامة: أولها أن ٨٥٪ من مرضى كورونا لا يحتاجون للعلاج في المستشفى، أما الـ ١٥٪ فهم الذين يحتاجون لدخول المستشفى، فيما لا يحتاج لدخول أقسام الرعاية المركزة سوى ٣٪ فقط، كما أن عدد الإصابات في العالم تجاوز الثلاثة ملايين مصاب، تُوفي منهم حوالي ربع مليون، وفي مصر ٧٣٠٠ حالة والوفيات ٤٢٥ حالة، والكورونا موجود في ٢١٢ دولة حول العالم، وأمريكا بكل ما تملكه من تطور وأسلحة فتاكة وغيرها لم تستطع السيطرة على هذا الفيروس الضعيف، وهي رسالة على أن التريليونات التي كان يتم إنفاقها على التسليح، لو أنها أنفقت على الصحة لعاش العالم كله في أمان.

■ كيف يمكن أن نتخلص من الخوف غير المبرر؟

نحن نحتاج إلى الخوف، فهو ضرورة إذا كنت تواجه وحشًا قاتلاً، وكذلك عند استعداد الطالب للامتحان، ولكن إذا زاد الخوف عن حدٍّ معين أصبح خوفًا مرضيًا، وهو ما أصاب بعض الناس في وباء كورونا، عندما تحول تفكيرهم وحياتهم إلى وسواس. كما أن الخوف يمكن أن يكون مصحوبًا بالقلق في ٨٠٪ من الحالات، ويمكن أن يكون مصحوبًا بالهلع في ٢٠-٣٠٪، ويمكن أن يكون مصحوبًا بالوسواس، أما الهلع فهو نوبات تأتي للإنسان، قد تسبب زيادة في ضربات القلب وإحساسًا بالاختناق، ويمكن أن يصل إلى الإغماء لمدة دقيقتين أو ثلاث دقائق، وربما تحدث اضطرابات الهلع أكثر من ثلاث مرات في الأسبوع، والهلع هو نوع من القلق الحاد.

■ ما هو السبيل لعلاج الخوف من كورونا؟

الخوف له مركز في المخ، ويمكن علاجه بطرق نفسية، وكذلك بنصائح منظمة الصحة العالمية التي تتمثل في تجنب متابعة أي أخبار تسبب الحزن والقلق، والسعي إلى معرفة المعلومات التي تساعد

الإنسان على حماية نفسه ومن حوله مرة إلى مرتين يوميًا فقط، ولا تجعل حياتك تدور حول الوباء فقط، فحاول التمتع بوسائل التواصل الاجتماعي، ومارس القراءة والرياضة في المنزل.

■ ما هي أسباب الخوف من كورونا؟

مصر موجودة في إحدى التجارب العالمية الساعية إلى إيجاد دواء أو مصل لهذا المرض، «ريمديسيفير» (Remdesivir)، بالإضافة إلى الدواء الياباني الذي تتم تجربته في مصر حاليًا، علاوة على فصل البلازما من المتعافين وحقنها في المرضى، وكل ما سبق رغم أنه جهد كبير ومحمود، فإنه في حد ذاته يعتبر أحد أهم أسباب الخوف والذي يتمثل في عدم وجود علاج، في ظل هذه التجارب الكثيرة، حيث إن اكتشاف علاج جديد يحتاج إلى ستة أشهر بحد أدنى، بينما يحتاج اكتشاف الأمصال مدة أطول لا تقل عن عام. وهنا أحب أن أؤكد أن الأمصال لا تقضي على الفيروس ولا تمنع المرض، ولكنها تحد من أعراضه، وهذا يعني أننا سنعيش وتتعايش مع المرض، ولكن ما يدعو لعدم القلق هو أن كل مائة عام يحدث وباء عالمي يحصد حياة الملايين، ففي عام ١٧٢٠ حصد الطاعون الأسود ثلث سكان أوروبا، وفي عام ١٨٢٠ جاءت الكوليرا وقتلت الملايين، وفي ١٩٢٠ جاءت الإنفلونزا الإسبانية، وها نحن اليوم نعيش نفس التجربة مع كورونا، فيجب التأمل في هذه الأرقام ومحاولة قراءة معنى الرسالة، وهل المقصود منها كسر غرور الإنسان، بنجاح هذا الفيروس الضعيف في كشف حقيقة الإنسان ووضعه في حجمه الحقيقي حتى لا يغتر بما وصل إليه من علم في كافة المجالات. وعلينا أيضًا أن نتذكر ونعي جيدًا أن الحرب العالمية الأولى مات خلالها أربعون مليون عسكري ومدني، وفي الحرب العالمية الثانية مات ستون مليون عسكري ومدني، علمًا بأن المؤشرات لا تدل على أن ضحايا كورونا يمكن أن يصلوا لهذه الأعداد، رغم أن العالم بدأ جاهلاً أمام هذا المخلوق الضعيف، وكل من يتم شفاؤهم يتعافون من المرض دون علاج تقريبًا، وهنا رسالة أخرى، تتمثل في أن سخ الأموال في العلم والصحة بدلًا من الأسلحة كان بالتأكيد سيكون له نتيجة أفضل.

■ هل يشعر الدكتور أحمد عكاشه بالخوف من هذه الأزمة؟ وكيف يمكن تقليل هذا الخوف؟

أنا عن نفسي متفائل بأن الأزمة التي نعيشها ستنتهي. أما عن كيفية تقليل الخوف فلا بد من الوقاية كأول وأهم خطوة للتقليل من انتشار المرض لحين اكتشاف مصل للمرض، وحماية الفئات الأكثر خطورة بالعزلة، لأن الإصابة قد تسلمهم إلى الموت، والاهتمام بالتباعد الاجتماعي قدر الإمكان، وتغيير بعض العادات والموروثات مثل التجمعات في الجنازات وغيرها من هذه المناسبات الاجتماعية، ومحاولة التغلب على عيب هام في الشخصية المصرية يتمثل في تغليب العواطف، والعمل على تحقيق أقصى استفادة من هذه الظروف الاستثنائية، وذلك استنادًا إلى المعادلة التي تشير إلى أن أقصى استثمار في الأبناء هو المدة التي يقضيها الأب والأم مع أبنائهما، وهذا يعني أن ميراث الأبوين لأبنائهما من نقود وأملاك لن يجعلهم في صحة نفسية جيدة مقارنة بما يقضونه معهم من وقت، بدلًا من اللجوء إلى الإنترنت والسوشيال ميديا، فهي فرصة للحميمية، كما يجب الإقلال قدر الإمكان من متابعة السوشيال ميديا، لأن ٨٠٪ مما يكتب ويقرأ على فيسبوك غير صحيح. وفيما يخص الكورونا فإن هذه النسبة ترتفع ما بين ٩٠-١٠٠٪ على شاكلة الأكلات التي تقى من الكورونا والشلولو وغيرها، مما يشعر الإنسان أنه يعيش في مناهة ولا يفهم شيئًا، كما يجب التيقن أن كورونا أقل خطرًا وتهديدًا من أمراض أخرى مثل سرطان الثدي الذي يصيب واحدة من كل ثماني سيدات. وما يدعو للاطمئنان أن يذكر كل إنسان نفسه بأن العالم بأسره يبحث عن الدواء.

■ هل ساهم الإعلام في تضخيم أزمة كورونا؟

نعم، الإعلام في جميع دول العالم لعب دورًا هامًا في تضخيم حجم الأزمة، حيث دأبت جميع وسائل الإعلام العالمية على التحول في كل ما تقدمه من محتوى إلى تغطية أزمة كورونا، في حين أن هناك قاعدة تقول إنه كلما زاد الحديث عن شيء زاد الخوف المرتبط بهذا الشيء، وهذا ما يحدث في أمور

كثيرة أبرزها أخبار الثانوية العامة، فلا يوجد بلد في العالم تتصدر فيه أخبار الثانوية العامة مانشتات الصحف مثلما يحدث في مصر، ولذلك نجد أن الثانوية العامة أصبحت أشبه بشيخ مرعب. كما أن هناك نظرية نفسية هامة يجب الانتباه إليها، وهي أنه كلما زاد الحديث عن ظاهرة ما زاد انتشارها وتقليدها، فإذا تحدثنا بكثافة عن الانتحار سيزيد انتشاره، ولو كثر الحديث عن الإدمان زادت نسبته، وإذا كثر الحديث عن الاعتصاب ارتفعت معدلاته. وهناك مثال من إحدى الدول الاسكندنافية التي طلبت من وسائل الإعلام عدم التحدث عن ظاهرة الانتحار لمدة ستة أشهر، وبعد مرور هذه المدة وجد أن نسبة الانتحار تراجعت حوالي ٤٠٪. كما أن كثيرًا من مرضى الإدمان يقولون إنهم بدأوا الإدمان بعد مشاهدة فيلم ما أظهر تاجر المخدرات وقد أصبح ثريًا وبخيا حياة مليئة بالملذات والمتع، رغم أن شخصية البطل كان مصيرها الإعدام في نهاية الفيلم. ولكن معظم المقبلين على الإدمان تتميز شخصياتهم بأنهم يعيشون التجربة ويحبون الحداثة بشكل دائم، ولا يهتم بالمخاطر بقدر ما يهتم اللذة الفورية السريعة، بمعنى أنه يفضل الحصول على مبلغ من المال بشكل فوري أكثر من الصبر لمدة أطول والحصول على أضعاف هذا المبلغ. ومثل مدخني السجائر الذين يعرفون جميعًا أن التدخين يؤدي إلى الإصابة بسرطان الرئة، وأن ٨٤٪ ممن يصابون بسرطان الرئة هم من المدخنين.

■ ما هو رأي الدكتور أحمد عكاشه في وجود وصمة لمريض كورونا من عدمه؟

أنا لا أعتقد في وجود هذه الوصمة، ولكن الخوف من الكورونا أصبح أشد خطرًا من المرض ذاته. وبهذه المناسبة أحب أن ألفت نظر الجميع إلى خدمة هامة تقدمها أمانة الصحة النفسية، وهي خدمة الدعم النفسي لمرضى كورونا وأسرتهم، كما أن أطباء الأمانة يقدمون خدماتهم بشكل مباشر داخل مستشفيات العزل للمرضى ولزملائهم من الفريق الطبي، وهي خدمة غير متوفرة في الكثير من الدول الأوروبية، والحمد لله الدولة المصرية كانت واعية من اللحظات الأولى لانتشار المرض.

■ في النهاية، ما هي رسالة الدكتور أحمد عكاشه في ظل هذه الظروف التي يمر بها العالم؟

أتمنى أن تكون الكورونا رسالة تنبيه للعالم للتوقف عن الحروب، ووقف نزيف الدم، والانتباه إلى أن منتهى السخرية من هذا العالم الذي ينتج كل يوم أسلحة نووية وأخرى فتاكة ومبتكرة أن يقف عاجزًا أمام كائن لا تراه العين المجردة.

أغلب المبدعين مرضى نفسيون

أجرى هذا الحوار: الدكتور محمد الناصر، ونُشر في جريدة «الأهرام»، أغسطس ٢٠٢١

■ ما معنى التوافق المجتمعي؟

التوافق المجتمعي هو رأس المال الاجتماعي، نعرّفه بالإحساس بالثقة والمحبة بين المواطنين، وأقصد بذلك ثقة الشعب في دولتهم بكافة هيئاتها، وفي الإعلام والتلفزيون، وفي النواحي القضائية وغيرها، ولا يوجد مكان في كل بلاد العالم لدية ثقة تصل من ٧٠-٨٠٪ إلا في البلاد الاسكندنافية، الولايات المتحدة مثلاً لا توجد ثقة في أي شيء مما ذكرته، أمريكا اللاتينية كذلك بل أكثر، من هنا أطلق على رأس المال الاجتماعي تعبير «التوافق المجتمعي» الذي يعني الرضا النفسي، وهو عبارة عن الثقة والمحبة. وهنا لا بد أن نسأل أنفسنا كمصريين عن ذلك في مجتمعنا: هل توجد بيننا هذه الثقة وتلك المحبة، أم أنك تخاف من كل من حولك أن يضع يده في جيبك؟ دائماً ما أقول إننا نحتاج إلى الرضا النفسي، ولناخذ معناه من مغزى ومعنى الكلمة «رضاً»، أن تكون راضياً، وهي من أعظم الصفات التي تمنح الإنسان الراحة النفسية، وتجعل لديك طمأنينة وحياً للآخر وقدرة على التسامح والرحمة والصبر والتواضع.

■ دعنا نقرب من المرض النفسي، ما هي حدود ومسافات ودرجات المرض النفسي؟ وهل تختلف من شخص لآخر؟

منذ عقود كانت تُسمى «أمراضاً عقلية»، وأصبحت تُسمى «أمراضاً نفسية»، والمرض النفسي يُسمى «اضطراب ذهاني» (عقلي قبل ذلك) واضطراب عصابي (أمراض نفسية قبلاً)، وبالتالي كلمة عقلية غير موجودة.

■ ولذلك قمتم بتغيير مسمى الأمراض العقلية؟

كان يطلق «الأمراض العقلية والنفسية» على المستشفى الخاص بعلاج هذه الأمراض، وفي عام ١٩٦٤ قامت بتغيير مسماتها إلى مستشفى الطب النفسي، لأن الناس لا تفرّق بين الطب النفسي وعلم النفس، علم النفس المتعارف عليه يدرسه خريج الآداب، أما علم النفس الإكلينيكي فيقوم بالعلاج النفسي بعد ترخيص وزارة الصحة بممارسة المهنة، أما من يشخص المريض ويقوم بالكشف عليه طبيّاً ويعطي العلاج فهذا هو الطبيب النفسي، يعني ذلك أن الطب النفسي أحد فروع الطب، وهو يختص بأي اضطرابات في التفكير أو المشاعر أو العواطف أو السلوك أو الإدراك وغيرها، وإن لم يعالج في بداية الأمر من الممكن أن يحدث تدهوراً في الشخصية.

■ هل يعترف الطب النفسي ببعض الظواهر كالتخاطر مثلاً أو الفراسة؟

لا نستطيع أن نعلّم شخصاً ما الفراسة، مثلاً «تخاطر الأفكار» يستطيع شخص ما أن يعرف ويفصح عما يفكر فيه شخص آخر بعيد عنه ويكون صحيحاً، وهذه قدرات خاصة يمنحها الله لبعض البشر وتُسمى «تليثاني»، وهناك من لديه شفاافية ورؤية مستقبلية لا تستطيع أن تعلمها لأحد، تماماً كالذكاء لا ترثه من والدك أو والدتك. أضرب لك مثلاً باثنين من الأشقاء، أحدهما متفوق، والآخر متعثر في دراسته، وهما من نفس الأب والأم. ممكن عبقرى يخلف ابناً لديه عجز ذهني.

■ نسمع دائماً أن لكل شخصية مفاتيح، هل هذا صحيح علمياً؟ وهل تتغير بامتداد العمر؟

لكل شخصية سمات، هناك شخصيات تبغى الإتقان والانضباط، لا يستطيع أن يصمت أمام شيء معوج فيقومه، يتقن عمله تمامًا ولا يتركه منقوصًا، وهذه الشخصية تُسمى «الوسواسية». الزوجة تشتكي أن زوجها يرتدي ملابس في الظلام، لأنه يعرف مكان الكرافت والقميص والشراب ولا يقبل أن يترك شخصًا يرتب له أشياءه. عكسها الشخصية «الهستيرية»، وهي إلى حد ما فوضوية ومشاعرها متقلبة، تثور لأقل سبب وسرعان ما تهدأ، وهي متحفزة للإغراء الجنسي، تشعر أنها تحبك وهي في الحقيقة ليست كذلك، كثير من الفنانين والفنانات تنطبق عليهم هذه الشخصية التي يمكن أن تطلق عليها «الترجسية العاشقة لذاتها». وهناك الشخصية «الانطوائية»، لا يحب الاختلاط بأحد، يحب الجلوس للقراءة والكتابة وسماع الموسيقى، بينما أخوه على العكس، يظل في الشوارع مستمتعًا بوقته، وهو يمثل الشخصية «الانبساطية». وهناك شخصية لديها مرونة وديمقراطية ويستطيع التعامل مع الأفكار المختلفة، يقابلها الشخصية جامدة الفكر التي لا تقبل الفكر والرأي الآخر.

■ هل هناك علاقة بين الطب النفسي والفلسفة؟

بالتأكيد، الطب النفسي علم حديث، وكان يقوم به رجال الدين ورجال الفلسفة، وكان المريض النفسي أو العقلي لا يجد مكانًا لعلاج إلا الإيواء في أحد المستشفيات لحماية المجتمع من عنفه، مع أن ٨٥٪ من العنف يصدر من الناس الطبيعيين في العالم والـ ١٥٪ الباقين من المرضى النفسيين. ترامب حينما يتحدث عن المجموعة التي قتلت أشخاصًا في إحدى الولايات ويقول إنهم مرضى نفسيون فهو مخطئ لأنهم عنصريون، وكذلك كل العنف الموجود في العالم من أناس يطلق عليهم «طبيعيون» لكنهم متطرفون جامدون في فكرهم، أصحاب سلوك متطرف غير قابل للمناقشة، أما المرضى النفسيون فهم من أجمل ما يمكن، وحبهم واجب علينا جميعًا.

■ يشير البعض إلى أن المرأة أقوى من الرجل، بينما آخرون يرونها عكس ذلك، فما رأي العلم؟

المرأة أقوى بيولوجيًا من الرجل كما خلقها الله، وفيات الأطفال الذكور ضعف الإناث، الأنثى تعمل عمل الرجل: أستاذة في الجامعة، طبيبة، مهندسة، إنها تعمل وتحمل وتلد وترضع وتربي وتطبخ وتنظف البيت وتذاكر للأولاد، كما تحيض شهريًا، وبعد كل ذلك تعيش في كل بلاد العالم من ٥-١٠ سنوات أكثر من الرجل، لأنها أقوى بيولوجيًا كما قلت. زمان كانت الآلهة كلها إناثًا، في البوذية والمصرية القديمة الأنثى شيء مقدس. الرجل يقوم بعملية بسيطة حتى تحمل المرأة، لكن المسؤولية كلها تقع على عاتق الأم، لذلك علاقتنا كلنا بالأم غير علاقتنا بالأب. ولا أساس علميًا لعقلانية الرجل وعاطفية المرأة، هناك بعض الشخصيات النسائية أكثر عقلانية، ومنهن أذكى من الرجل، وبعض الرجال أذكى من النساء، لا دخل للجنس في هذه الصفات. ولكن في رأيي أن الأم ستفكر كثيرًا قبل أن ترسل ابنها للحرب ويموت وعمره تسع عشرة سنة، الأب لا يهتم كثيرًا، الأم حذرة جدًا ناحية الحروب، وما يحدث الآن في العالم معظم رؤساء دول أوروبا وآسيا سيدات ووزراء حربية وداخلية.

■ نتقل إلى ذكريات الدكتور أحمد عكاشه وتفصيل هواياته في اقتناء اللوحات الفنية، ما أول لوحة اقتنيتها؟

كانتا لوحتين أهداهما لي الفنان الفرنسي المصري الأصل علاء الدين (الأدين)، وكان صديقًا لشقيقي الدكتور ثروت عكاشه حينما كان في فرنسا، وكنت أنا أدرس هناك، ولهاتين اللوحتين ذكرى حدثت أثناء مرافقتي لهما في المطار هناك، حيث استوقفتني أفراد الأمن لأنهم اعتبروها ثروة قومية لا يمكن خروجها إلا بإذن من الفنان، وتعطل سفري يومين حتى أحصل على تصريح بخروجها عبارة عن توقيع الفنان بالإهداء. كذلك أقتني لوحة «اتشنج» - طريقة حفر جاف على الزنك - لسلفادور دالي اسمها «الفارس»، وكانت ضمن معرض أقامه قبل وفاته بسنوات. وأذكر أنني كنت بصحبة زوجتي لحضور مؤتمر، وأنا في المعرض اتصلت بالدكتور ثروت عكاشه وقلت له: «معي فلوس المؤتمر، وأنا الآن أمام لوحة سلفادور

دالي وأعجبتني جدًّا، ماذا أفعل؟». فقال لي: «اشترىها ولا تذهب للمؤتمرا!». بعدها بسنوات تُوقِّي دالي وظلت اللوحة ضمن مقتنياتى الخاصة. أما عن الفنانين المصريين، فقد كانت لي علاقات قوية مع صلاح طاهر ويوسف فرنسيس وعبد الغني أبو العينين، وكل رسامي الكاريكاتير المشاهير: مصطفى حسين وعمرو فهمي.

■ ما أول رحلة خارج مصر؟

في الخمسينيات وكانت لأثينا، وكنت لا أزال طالبًا في جامعة عين شمس في السنة الثانية كلية الطب، وأذكر أنها كانت بستة وثلاثين جنيهاً مصرياً درجة ثالثة على ظهر مركب لمدة شهر، زرنا اليونان والنمسا وفرنسا، ثم تعددت رحلاتي لزيارة شقيقي الدكتور ثروت عكاشه في إيطاليا وفرنسا، وأقمت في إنجلترا للدراسة بعد حصولي على البكالوريوس من جامعة عين شمس.

■ أول كشف قمت به؟

كنت طبيب امتياز ونائبًا لمدة ثمانية أشهر قبل سفري للخارج وعمري وقتها كان إحدى وعشرين سنة، وشكلي إلى حدٍّ ما لا يوحى بالثقة، حينما بدأت الكشف على إحدى المريضات، فذهبت إلى أستاذي وأخبرته، فقال لي: «أطلق شاربك!». ففعلت، وتقبَّل المرضى، لأن الشارب زادني سنًا، واستمررت على هذا الشكل إلى أن سافرت إلى أوروبا ووجدت لا لزوم له فحلقتة.

■ أول كتاب قرأته وأثر في حياتك؟

كتاب «العودة إلى الإيمان» لهنري لنك، وهو طبيب نفسي يعالج المرضى، ونتائجه كانت متوسطة، ثم تحسنت جدًّا حينما أدخل الإيمان ضمن روشة العلاج، والإيمان بأي شيء يعني العقيدة، وهذا الكتاب أهداني إياه الدكتور ثروت عكاشه، ثم تعددت القراءات والكتب، وكنا نسكن في العباسية، والوالدي كانت قارئة ممتازة، وكنت أحضر لها الكتب ومصورات الجيب والتراجم من متجر يقوم بتأجيرها، وكنت أقرأها قبل أن أعيدها.

■ لمن تقرأ من المصريين؟

عندي المجموعة الكاملة لجمال حمدان وجمال الغيطاني، ورباعيات صلاح جاهين، وروايات نجيب محفوظ، ومؤلفات زكي نجيب محمود وفؤاد زكريا ويوسف إدريس وصلاح عبد الصبور وعبد الرحمن الشراقوي، وطبعًا طه حسين والعقاد، كلهم قرأت لهم.

■ لفت نظري الكتاب الذي قمت بتأليفه مع يوسف فرنسيس، ما قصته؟

هو كتاب تم خلال جلسيتين مع يوسف فرنسيس في شاليه أمتلكه في فايد، وأقيم فيه بعض الوقت صيفًا وشتاء، النشاط لا يوجد فيه أحد غيرنا، استنصفته مع زوجته منى سراج في ذلك الوقت، وجاءت الفكرة من خلال أسئلة يطرحها فرنسيس عن الحب والصداقة وغيرهما، وحينما أحبه كان يرسم في نفس الوقت، وكان اسم الكتاب «إجابات نخشاها: حوار في الحب والحياة والجنون»، للأسف الشديد نحن أصدرنا النسخة الأولى، وتم طبع نسخ أخرى وطبعات في دول عربية متعددة خاصة في بيروت.

■ برأيك، لماذا لا تتفاعل الأجيال الجديدة مع التراث الثقافي لنا في الأدب والشعر والموسيقى والمسرح، وأصبح لهم لغة داخل دائرة لا يتفاعل معها أو يقبلها الكبار؟

إن ثورة المعلوماتية في وجود السوشيال ميديا ووسائل التواصل الاجتماعي عيّرت تمامًا في أخلاق الشباب والشابات، ليس في مصر فقط، بل في العالم كله، تستطيع أن تقرّأ من خلالها أي كتاب أو مطبوعة أو جورنال، الفيسبوك ٧٠-٨٠٪ منه كذب وتضييع وقت وقلب للحقائق، هناك خطورة شديدة نتيجة انشغال كل فرد في الأسرة بهذه الوسيلة التي تقتل الحميمة بين أفراد الأسرة الواحدة، لأن الأخ لا يجلس مع أخته، والأب والأم منشغلان أيضًا مع الكمبيوتر، وأخشى جدًّا أن المشاعر بعد عشر أو عشرين سنة سوف تتجمد وتتبلد، سنكون مثل الروبوت! أضرب لك مثالًا، فبالنسبة لي لقد عشت فترة الطفولة ولم تكن هناك وسيلة غير الراديو، لم يظهر التلفزيون بعد، الثراء الثقافي أن تجلس مع الأكبر سنًّا تسمع سياسة وأدبًا وشعرًا بدلًا من الكلام الفاضي الذي نراه على شاشة التلفزيون والذي يؤثر في تكوين الشخصية بشكل غير طبيعي.

مصادر المقالات

- الثقافة والفن والطب النفسي: هل التطرف ظاهرة مرضية؟ ورقة قُدمت باللغة الإنجليزية في كونجرس الجمعية العالمية للطب النفسي عام ٢٠٠١.
- هل الذكاء المصري في خطر؟ جريدة «المصري اليوم»، السبت ٧/٨/٢٠١٠.
- أحمد زويل والذكاء العاطفي. جريدة «المصري اليوم»، الأحد ٢٢/٢/٢٠٠٩.
- التكوين النفسي للإخوان. جريدة «المصري اليوم»، السبت ١٤/٨/٢٠٢١.
- توصيات لمواجهة التطرف والإرهاب. ورقة قُدمت إلى المجلس الرئاسي عام ٢٠١٧، ومجلس الحكماء عام ٢٠١٨.
- حديقة الحيوان البشرية: عن نفسية السجين والسجان. جريدة «المصري اليوم»، الخميس ٢٠/٥/٢٠١٠.
- بناء الإنسان المصري. ورقة قُدمت إلى الرئاسة، كتبها الدكتور عكاشه بناء على طلب مكتبة الإسكندرية، عام ٢٠٢١.
- كيف تذاكر وتذكر؟ مجلة «طبيبك الخاص»، مايو ١٩٦٩.
- أمراض الثانوية العامة. مجلة «طبيبك الخاص»، فبراير ١٩٧١.
- النسيان في الشباب: هل هو خرف الشباب؟ ورقة قُدمت باللغة العربية في نادي ليونز جاردن سيتي عام ٢٠٠٥.
- كلمات عن الحب. جريدة «المصري اليوم»، الجمعة ٢٠/٧/٢٠١٨.
- الإدراك المتكامل للتنوير الثقافي: عن الشقيق والأستاذ والمعلم الدكتور ثروت عكاشه. مقال نُشر في كتاب «ثروت عكاشه: وردة في عروة الفارس النبيل»، الذي صدر بمناسبة تكريم الدكتور ثروت عكاشه بواسطة الدكتورة سعاد محمد الصباح، دار سعاد الصباح للنشر والتوزيع، ٢٠٠٠.
- المساندة الاجتماعية والتمركز حول الآخر والصحة النفسية. ورقة قُدمت باللغة الإنجليزية في كونجرس الجمعية العالمية للطب النفسي عام ٢٠٠٢.

• الحملة الوطنية لإزالة وصمة المرض النفسي: المعاناة النفسية مثل أي مرض له علاج. بريادة الأستاذ الدكتور أحمد عكاشه، وبالإشتراك مع الجمعية المصرية للطب النفسي، وجمعية مصر الخير بقيادة فضيلة الشيخ الدكتور علي جمعة، ولقيف من الجامعات المصرية وأجهزة الإعلام المقروءة والمرئية.

عن الدكتور أحمد عكاشه

- أستاذ الطب النفسي، طب عين شمس، مؤسس مركز ومجمع الأستاذ الدكتور أحمد عكاشه للطب النفسي، ورئيس مركز بحوث منظمة الصحة العالمية للصحة النفسية بجامعة عين شمس.
- نحت كلمة «الطب النفسي» سنة ١٩٦٤ بدلاً من الأمراض العقلية والنفسية.
- حاول إزالة وصمة المريض والطبيب النفسي.
- رئيس الجمعية العالمية للطب النفسي (٢٠٠٢-٢٠٠٥).
- رئيس الجمعية المصرية للطب النفسي البيولوجي.
- الرئيس الفخري للجمعية المصرية للطب النفسي ولاتحاد الأطباء النفسيين العرب.
- رئيس اللجنة العلمية لزمانة البورد النفسي في الطب النفسي، وزمانة طب نفس الأطفال والمراهقين، وزمانة البورد النفسي للإدمان.
- عضو المجلس القومي للصحة النفسية.
- عضو اللجنة التنفيذية لأكاديمية العلوم والتكنولوجيا.
- عضو اللجنة التنفيذية لهيئة الابتكار وتنمية العلوم والتكنولوجيا سابقاً.
- عضو مجلس إدارة صندوق الاستثمار القومي الخيري للتعليم سابقاً.
- عضو مجلس الأمناء بمكتبة الإسكندرية.
- عضو مجلس أمناء جامعة العلمين الجديدة.
- عضو مجلس أمناء جامعة زويل سابقاً.
- عضو لجنة التخطيط في القطاع الطبي في المجلس الأعلى للجامعات.
- مؤسس ورئيس تحرير المجلة العالمية للطب النفسي باللغة العربية.

- رئيس وعضو هيئة تحرير في ٢٣ مجلة طب نفسي محلية وعالمية.
- ألف واشترك في تأليف ٥٨ كتابًا باللغة العربية والإنجليزية، ثم نشر اثني عشر منها بالخارج.
- نُشرت له في المجلات العلمية، العالمية والمحلية، ٣٠٤ بحوث عالمية في مجالات الطب النفسي والعصبي والعلوم السلوكية والاجتماعية.
- أشرف على ٨٥ رسالة دكتوراه، وعلى ١٥٠ رسالة ماجستير في الطب والآداب.
- حاز الميدالية الذهبية والزمالة الفخرية للجمعية العالمية لطب نفس الأطفال والمراهقين عام ٢٠٠٤.
- حاز الميدالية البرونزية لكربيلين-الزهايمر من جامعة ميونيخ بألمانيا عام ٢٠١٢ (ملاحظة: كربيلين أول مؤسس لتقسيم الطب النفسي).
- حصل على الزمالة والدكتوراه الفخرية من عدة جامعات وجمعيات عالمية وآخرها الدكتوراه الفخرية تقديرًا لإسهاماته العلمية المتميزة من جامعة عين شمس عام ٢٠١٩.
- حاز جائزة الإبداع الطبي عام ٢٠٠٠، وجائزة الدولة التقديرية في العلوم الطبية عام ٢٠٠٧، وجائزة النيل (مبارك) في العلوم الطبية عام ٢٠١٠ من أكاديمية البحث العلمي، ووسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى عام ٢٠١٣.
- عضو المجلس الرئاسي الاستشاري لكبار علماء وخبراء مصر التابع لرئيس الجمهورية.
- مستشار الرئيس للصحة النفسية والتوافق المجتمعي.



اجتماع للمجلس الرئاسي الاستشاري لكبار علماء وخبراء مصر التابع لرئيس الجمهورية. وُثِر في الصورة من اليمين: الدكتور نبيل فؤاد فانوس، المهندس هاني عازر، الدكتور هاني عبد الله الكاتب، الدكتور مجدي يعقوب، الرئيس عبد الفتاح السيسي، الدكتور أحمد زويل، المهندس هاني النقراشي، الدكتور فيكتور رزق الله، الدكتور أحمد عكاشه، الدكتور محمد غنيم، الدكتورة ميرفت أبو بكر



المؤلف وسط فريق مجع الأستاذ الدكتور أحمد عكاشه للطب النفسي

هوامش

«1»: الجشطالت (Gestalt): إحدى مدارس علم النفس التي تؤمن بأن إدراك الإنسان هو إدراك كلي شامل، وليس إجراء تركيبياً للإنسان.

«2»: كتبت المانشيتات وقتها: «مريض نفسياً يقتل مسيحياً ويصيب خمسة في اعتداءات على ثلاث كنائس بالإسكندرية».

«3»: صار اسمها «النيل» بعد ذلك.